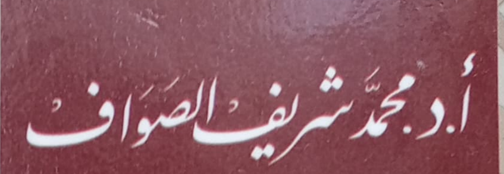
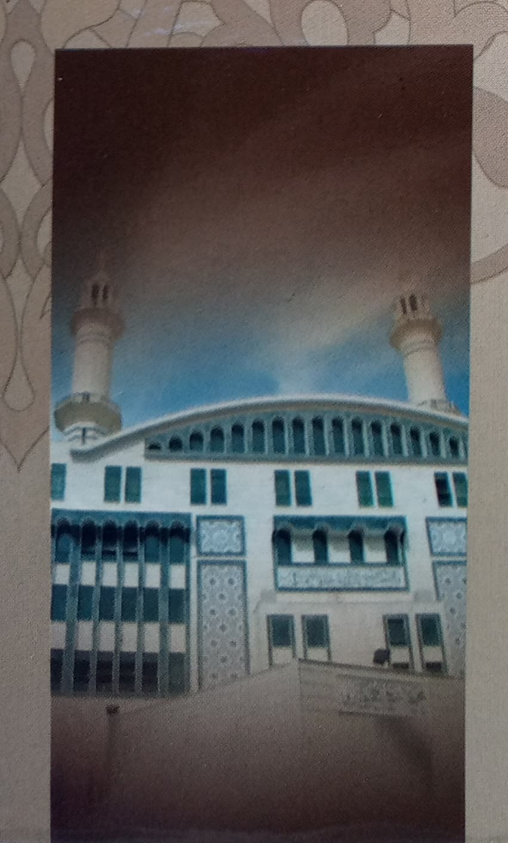
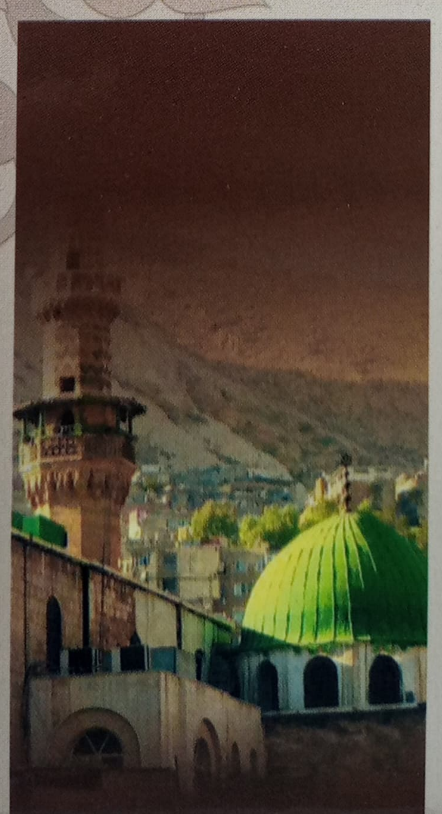
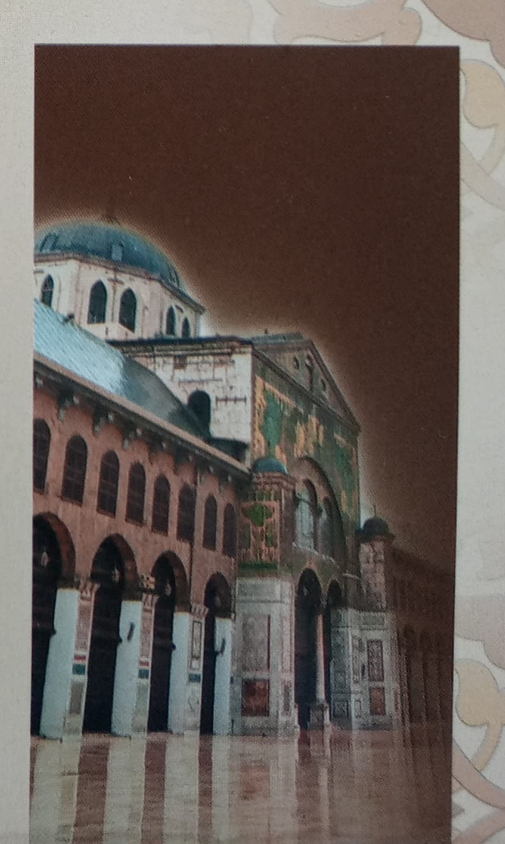

أ.د. محمد شريف الصواف



جامعة بلاد الشام
للعلوم الشرعية
فرع مجمع الشيخ أحمد كفتارو
كلية الشريعة والقانون
قسم الشريعة

المنهج الفكري والدعوي

لِعُلماء بلادِ الشام

المنهج الفكري والدعوي

لعلماء بلاد الشام

بسم الله الرحمن الرحيم



جامعة بلاد الشام
للعلوم الشرعية
فرع مجمع الشيخ أحمد كفتارو
كلية الشريعة والقانون
قسم الشريعة

المنهج الفكري والدعوي

لعلماء بلاد الشام

تأليف
أ.د. محمد شريف الصواف



مقدمة الكتاب

الحمد لله، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه إلى يوم القيامة، أما بعد:

فيقول الله تعالى: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا** ﴾[سورة الفتح، الآية: ٢٨].

هذا وعد الله الذي لا يخلف وعده، وهكذا فإن دين الإسلام، ورسالة سيدنا محمد ﷺ ما زالت منذ بعثته في زيادة وانتشار، على الرغم من مراحل الضعف الكثيرة التي مرت بها الدول الإسلامية المتعاقبة، ولكن الله تكفل بنشر هذا الدين بأسبابه الذاتية من **صفاء العقيدة، وموافقتها للفطرة، وتلبية تشريعات الإسلام لحاجة الناس، وارتباطها بالواقع، ولأن هذا الدين بحقيقته هو الماء العذب الزلال الذي يروي العطاش، ويذهب الظمأ، ويحقق السعادة للأفراد والمجتمعات.**

وقد تعرض الإسلام في مسيرته الطويلة إلى هجوم وتشويه فكري كان أخطر بكثير من كل المعارك التي خاضها أعداء الإسلام ضده.

وكان هذا التشويه الذي يتعرض له الإسلام في بعض الأحيان بأيدي أعدائه، وفي أوقاتٍ كثيرة ببعض أبنائه الذي غالوا في بعض عقائده

وشرائعه، أو الذين فرطوا فيها واتبع الشهوات والأهواء.

ولكن الله الذي حفظ القرآن الكريم بحروفه وكلماته من أي تحريف وتبديل؛ حفظ هذه الشريعة بوسطيتها، وكمالها، ونقائها من خلال آلاف الآلاف من العلماء الربانيين الذين صانوا عقيدتها وشريعتها من أي زيغ وتحريف، حتى وصلتنا بيضاء نقية كما تركنا عليها رسول الله ﷺ حين قال: «**إني قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك**»[1].

وقال ﷺ: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد دينها**»[2].

وتفسير ذلك ما جاء من طرق أخرى:

«**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»[3].

وكأن النبي ﷺ يشير إلى أن سبب الفساد الذي سوف يتسلل إلى بعض فئات هذه الأمة ينحصر في هذه الأمور الثلاثة:

---

(١) أخرجه ابن ماجه، والحاكم، وأحمد بألفاظ متقاربة.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن، وصححه السخاوي في (المقاصد الحسنة).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن بإسناد مرسل، وله طرق أخرى أكثرها ضعيفة، يقوي بعضها بعضاً.

١- الغلو والتنطع والتشدد.

٢- الباطل والموضوع المكذوب.

٣- التأويل غير الصحيح، وليُّ أعناق النصوص.

وهنا كان ميدان عمل علماء المصلحين المجددين الربانيين رضي الله عنهم.

وقد كان لعلماء بلاد الشام، وعلماء دمشق خاصة دورٌ كبير في خدمة هذه الشريعة، وتثبيت أركانها، وتنقيتها من الشوائب التي اختلطت بها عبر العصور. وذلك من رشحات بركات وأنوار قوله ﷺ: «**اللهم بارك لنا في شامنا**»[١].

ولذلك نرى تواتر العلماء الأعلام، في بلاد الشام من ولد منهم فيها، ومن هاجر إليها رغبة في البركة التي دعا بها النبي ﷺ، وذلك منذ عهد الصحابة الذين نزلوا دمشق يعلمون أهلها، والوافدين إليها، وحتى عصرنا هذا.

ومن رجع إلى تاريخ دمشق لابن عساكر، ومن جاء بعده ممن أرَّخ للعلماء الذين جاؤوا من بعده يدرك الأثر الكبير للعلماء الشاميين في تثبيت منهج الحق، والردود على شبهات أهل الباطل، وبيان العقائد والأحكام الصحيحة حتى أصبحت الشام وعلماؤها قبلة طلاب العلم من المشرق والمغرب، ودار الهجرة في آخر الزمان، وانتشرت مؤلفات العلماء الشاميين في البلدان كلها.

وكان من آخر أولئك العلماء الشاميين الذين منَّ الله بهم على بلاد الشام

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

في نهاية القرن الرابع عشر الهجري، وبداية القرن الخامس عشر الهجري سماحة الشيخ المجدد أحمد كفتارو، والإمام الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي، رحمهما الله تعالى، مع غيرهما من العلماء الأبرار الذين واجهوا تيارات الفكر المنحرف الذي عاشته الأمة في ذلك العصر من ظهور جماعات الإسلام السياسي، والفكر التكفيري إلى مواجهة شذوذ الحركة الوهابية، وأفكارها المنحرفة في العقيدة، وفتاواها الشاذة في فروع الفقه.

إضافة إلى مواجهة وفضح الفتن الكبرى التي عصفت بالأمة في أحداث سورية خلال السنوات (١٩٧٩-١٩٨١)، وحرب الخليج الأولى التي ألبست ثوباً طائفياً (١٩٨٠-١٩٨٨)، وأحداث العشرية السوداء في الجزائر (١٩٩١-٢٠٠٢)، إلى (الربيع العربي المزعوم) الذي انطلق خلال سنتي (٢٠١٠-٢٠١١).

ويضاف إلى ذلك مواجهة علماء الشام للدعوات المنحرفة المفرطة التي أرادت أن تخترق الإسلام من داخله؛ مرة بنقد السنة، وإنكار حجيتها، وأخرى بتوجيه السهام إلى صحيح البخاري، وغيره من كتب السنة بدعوى الدفاع عن السنة، وتنقيتها.

كما كان لوزارة الأوقاف في الجمهورية العربية السورية؛ ممثلة بالسيد وزير الأوقاف الشيخ الدكتور محمد عبد الستار السيد، والسادة العلماء أعضاء

اللجنة الفقهية العليا، وأعضاء اللجنة العليا لشؤون القرآن الكريم.

حيث أصدرت الوزارة كتاب (**فقه الأزمة**)، وقامت بإطلاق دورات حوارية حول مواضيعه شملت الأئمة والخطباء في المحافظات كلها.

كما أصدرت كتاب (**الأسس العقائدية والفكرية لمكافحة التطرف والإرهاب التكفيري، وما يسمى (الإسلام السياسي)** ليكون أحد الكتب الفكرية الداعمة للعملية التعليمية في المعاهد والثانويات الشرعية.

وأخيراً جاءت سلسلة دروس (التفسير الجامع) للسيد وزير الأوقاف، الشيخ الدكتور محمد عبد الستار السيد لتقدم تفسيراً عصرياً، يناقش أغلب الشبهات الفكرية للمتطرفين والمفرطين على السواء.

ونحن إذ نتحدث في هذا الكتاب عن المنهج الفكري والدعوي لعلماء بلاد الشام، فإننا نؤكد على أن علماء بلاد الشام لم ينفردوا بهذا المنهج عن بقية علماء الحق في الأمصار الإسلامية كلها من أقصى شرق آسيا إلى المغرب العربي، بل إن علماء بلاد الشام شركاء في ذلك معهم في ترسيخ وبيان منهج الحق، ولكن علماء بلاد الشام تميزوا أكثر من غيرهم بوضوح ذلك، وغلبته على مدارسهم الفكرية، والتربوية.

فلا يوجد إسلام خاص ببلاد الشام، وآخر خاص بمصر، وآخر خاص بالمغرب أو المشرق، كما أنه لا يوجد (إسلام معتدل) وآخر (متطرف) كما

يروَّج، بل الإسلام (عقيدة، وشريعة، وأخلاقاً) هو الاعتدال، والفطرة، وما شذ عن الاعتدال والفطرة شذ عن الإسلام، وهو ليس منه.

وإن جامعة بلاد الشام فرع مجمع الشيخ أحمد كفتارو تأكيداً منها على هذا المنهج لعلماء بلاد الشام، وشعوراً منها بالمسؤولية الملقاة على عاتقها في مواجهة الأخطار الفكرية التي تحاول تشويه الرسالة الإسلامية بنقائها وصفائها تقدم هذا الكتاب ليكون أحد المقررات الجامعية لطلاب قسم الشريعة في مجمع الشيخ أحمد كفتارو.

وهو في مجمله أبحاث منتقاة من كتاب (فقه الأزمة) الذي أصدرته وزارة الأوقاف، ومن كتب ومحاضرات الإمام الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ومن محاضرات ودروس سماحة الشيخ أحمد كفتارو.

والله الموفق، وهو سبحانه من وراء القصد.

دمشق في ١٠/ رجب/ ١٤٤٠هـ الموافق لـ ١٧/ ٣/ ٢٠١٩م.

محمد شريف الصوّاف

رئيس فرع جامعة بلاد الشام

في مجمع الشيخ أحمد كفتارو

الفصل الأول:
وحدة الأمة في ظل احترام أبنائها المتبادل وغنى التنوع المذهبي[1]

قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة آل عمران (١٠٣-١٠٥)].

وهكذا وحدة الأمة من أهم مقاصد الرسالة، فقد أرسل الله تعالى نبيه ﷺ ليوحد الأمة، ويسير بها إلى تحقيق الأهداف الكبرى في نشر الربانية، ودعوة الأمم الأخرى إلى إخلاص العبودية لله تعالى، وبناء الحضارة الإنسانية العالمية الخيرة.

---

(١) هذا الفصل منقول باختصار من كتاب (بين السنة والشيعة) للدكتور محمد شريف الصواف.

وقد استطاع الإسلام أن يحقق المعادلة الصعبة التي لا تصلح الحياة إلا بها؛ أن نَتَّفِق في المقاصد الكبرى، ونختلف في بعض التفاصيل. أن نجتمع على الأهداف العظيمة، مع فسحة الاختلاف والتنوع في الجزئيات، فالتنوع والاختلاف في الفهم من سنن الله في خلقه، ومن دونه لا يعمر الكون، ولا تتم خلافة الإنسان، ولا يُريد الله تعالى أن يجعل الناس صورة متكررة لفهم واحد لا يجوز الخروج عنه.

وهكذا فالوحدة التي دعا لها الإسلام هي وحدة قائمة على التنوع، والإبداع طالما أن هذا التنوع ثمرةُ الدليل والعلم، وليس ثمرة الهوى والزيغ، وطالما أن التنوع لا يخرج عن المقاصد، ولا يشذ عن الأهداف الكبرى.

وإذا كانت وحدة الأمة من أهم مقاصد الرسالة؛ فإن من أبرز المظاهر التي تشكل خروجاً عن هذا الفهم وضلالاً في تيهِ البُعدِ عن مقاصد الحق؛ ظاهرةُ التكفير التي ابتلي بها المسلمون في بعض مراحل انكسارهم الحضاري، فكانت بلاء فَتَكَ بجسدِ الأمة وعطل مَشروعها الحضاري، وصرف الأنظار عن معاركها الحقيقية ضد أعدائها.

وهي من مؤشرات الانكسار الحضاري للأمة، وغياب الوعي عند قياداتها وأبنائها، فكلما كانت الأمة في عافية فكرية وحضارية، كلما كان وعيها بمقاصد الرسالة وأهدافها الكبرى أوضح، والعكس صحيح.

واليوم تطفو ظاهرة التكفير على الساحة الفكرية، وتأخذ حيزاً واسعاً من الخطاب الديني، وتمارس عملياً بصور بشعة جداً، ويزداد الأمر سوءاً مع وجود وسائل الإعلام الفضائية الالكترونية التي تروج لهذا الفكر، وتنشره بين عامة الناس بصورة تحريضية بعيدة عن التدقيق والتحقيق العلمي.

ويستغرب المراقب للمشهد من انتشار فكر التكفير بهذه الصورة المؤذية التي لا تعود على الأمة بالخير؛ وتوجب علينا أن نستنفر الجهود والطاقات لمواجهة هذه الظاهرة الفَتَّاكة بالوسائل الممكنة كافة، ومنها نشر الأبحاث التي تؤصل لهذا التنوع الذي أراد الله أن يكون مظهر ثراء في مسيرة الحضارة الإسلامية.

لقد خلق الله الإنسان، وجعل أسباب التمايز بين البشر في أصل الخلق لأن عمارة الأرض لا تقوم إلا على هذا التنوع البناء.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [سورة الروم (٢٢)].

وقال أيضاً: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة الأنعام (١٦٥)].

وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة هود (١١٨-١١٩)].

وأنزل الله الرسالة على نبيه محمد ﷺ، وجعل شريعته خاتمة الشرائع، وعلم الله أن الناس مختلفين في الطباع والبيئات والعصور، ولذلك جعل في هذه الشريعة قواعد كبرى لا تتغير بتغير الزمان والمكان، وجعل فيها ما هو قابل للتغيير حسب ما تقتضيه المصلحة التي أباحها الله تعالى. وتحقيق المصلحة لا يكون من خلال الفوضى، وإنما يكون من خلال ما أصله العلماء من قواعد فهم النصوص وتطبيقها.

وكذلك فإن في نصوص الشريعة المحكم والمتشابه، والخاص والعام، ولذلك كان الميدان واسعاً في اختلاف فهم العلماء لمعاني هذه النصوص والمراد منها، وكل ذلك في إطار ما تتحمله قواعد اللغة، ولا يخالف المعلوم من الدين بالضرورة من قواعده الكلية.

ونحاول في هذا البحث أن نُلقي ضَوءاً على الحالة التي يجب أن نكون عليها نحن المسلمين في فهمنا لأنفسنا، وتعاملنا مع تنوعنا المذهبي، نستقي ذلك من فكر الأئمة وسلوكهم رضي الله تعالى عنهم.

المبحث الأول:

التقارب بين المسلمين ضرورة تاريخية وعقيدية ومستقبلية

المطلب الأول

أسس ووسائل وأهداف التقارب بين فِرَق المسلمين

لا بد قبل الدخول في هذا البحث الفقهي من الحديث عن موضوعٍ مُهمٍ يَشغل بال المخلصين من أبناء هذه الأمة، وهو مشكلة تفرُّق المسلمين إلى فرق ومذاهب دبت بينها أسباب البغضاء والنزاع، وحاك لها أعداؤها خططاً خبيثة مدروسة بدقة، لإبقاء حالة التنافر والتباغض فيما بينها، ليسهُل عليهم اختراق صفوف هذه الأمة وتفتيت قوتها، حتى إنه ليستطيع أن يستعين في حربه لبعض أفراد الأمة بأفراد منها، كما جرى عندما استخدم أعداؤنا القوات والسلاح العراقيين لحرب الثورة الإسلامية في إيران، واستخدم القوات والقرارات العربية لحرب العراق وتحطيم قوته العسكرية، وحصاره تمهيداً لاحتلاله، وضرب الفتن ما بين الشيعة والسنة والسلفية وغيرهم في بلاد الأفغان،

فاشتعلت نيرانٌ للفتنة لم تُطفأ حتى يومنا هذا، وما زال نهر الدماء الإسلامية يتدفق على أيدي المسلمين أنفسهم، وأعداؤنا في فلسطين يُدنِّسون المقدسات، ويهتكون الأعراض، وكذلك في كشمير، وإندونوسيا، وألبانيا، والبوسنة، والشيشان.

والله تعالى يخاطبنا في القرآن الكريم فيقول: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء (٩٢)] ويقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة الأنعام (١٥٩)] وخاطب الله تعالى المسلمين في آية جامعة فاذَّة فقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ ۞ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة آل عمران (١٠٣-١٠٥)].

لقد منَّ الله تعالى على المسلمين بأن جمعهم بعد فرقة، وألَّف بينهم بعد تباغضٍ، وجعلهم أمة واحدة بعد أن كانوا أمماً أشتاتاً متفرقين، وجعلهم دعاة خير بعد أن كانوا دعاة شقاء، ودعاة تآلف بعد أن كانوا دعاة شقاق. ولكنهم نبذوا كل ذلك وراء ظهورهم فعادوا أمماً متفرقين، متباغضين، دعاة شقاق، وشقاء.

ووصف النبي ﷺ المسلمين ووحدتهم فقال: ((مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحُمَّى))[1]. وقال ﷺ أيضاً: ((من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذِمَّةُ الله، وذِمَّةُ

---

(١) صحيح البخاري في [كتاب الأدب]، باب: رحمة الناس والبهائم، الحديث رقم (٥٥٥٢)، وصحيح مسلم في [كتاب البر والصلة والآداب]، باب: تراحم المسلمين وتعاطفهم وتعاضدهم، الحديث رقم (٢٥٨٦)، واللفظ له، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

رسولـه، فلا تُخْفِروا الله في ذمَّتِه))[1]. وقال ﷺ أيضـاً: ((لا تحاسـدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضـوا، ولا تـدابروا، ولا يبـع بعضـكم علـى بيـع بعـض، وكونـوا عبـاد الله إخوانـاً، المسـلم أخـو المسـلم لا يظلمـه، ولا يخذلـه، ولا يحقره، التقوى هاهنا - ثلاث مرات وأشار إلى صدره - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، ومالـه، وعرضه))[2].

فهل المسلمون اليوم على هذا المستوى من التوحد، والتآلف، والتناصر فيما بينهم؟!

إنَّ الأمة الإسلامية أمة فريدة، توفر لـها من أسباب الوحدة ما لـم يتـوفَّر لأمة أخرى. فالمسلمون كلـهم على اختلاف فرقهم ومذاهبهم يشهدون

---

(١) صحيح البخاري في [كتاب الصلاة]، باب: فضل استقبال القبلة، الحديث رقـم (٣٧٨)، والترمذي في [كتاب الإيمان عن رسول الله ﷺ]، الحديث رقـم (٢٦٠٨)، والنسـائي فـي [كتاب تحريم الدم]، الحديث رقم (٣٩٦٧)، عن أنس رضي الله عنه واللفظ للبخاري.

(٢) صـحيح مسـلم فـي [كتـاب البـر والصـلة والأدب]، بـاب: تحـريم ظلـم المسـلم وخذلـه واحتقاره، الحديث رقم (٢٥٦٤) ومسند الإمام أحمد في باقي مسند المكثرين الحديث رقم (٧٦٧٠).

أنه لا إلـه إلا الله دون خلاف فيما بينهم على التنـزيه المطلـق لله تعالى عـن كـل نقـص، وعيـب، ومماثلـة للمخلوقـات وإن اختلفت اصطلاحاتهم، وتعبيراتهم.

وكلـهم متفقون على أن محمداً رسول الله ﷺ وخاتم أنبيائه، وهو عبدٌ من عباده، يقرُّون لـه بالفضل، وبأنه بلَّغ الرسالة وأدَّاها كاملة، ونصح الأمة، ويقرُّون لـه بكل صفات الكمال البشرية.

وكلـهم متفقون على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، لا تبديل ولا تغيير فيه، وهو قانون الله، وحكمه الملـزم الذي تعبَّد به بني البشر، وقد تكفَّل تعالى بحفظ القرآن الكريم حين قـال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [سورة الحجر (٩)].

وكلـهم متفقـون على أنَّ طـاعة رسـول الله ﷺ واجبـة فيما جاء به من تشـريع، لقول الله تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [سورة النساء (٥٩)].

وكلـهم متفقون على أنَّ الله تعالى أنـزل الإسلام لتحقيق سعادة

الإنسان في الدنيا والآخرة، وشرع في سبيل ذلك أحكاماً تحقق هذه المقاصد قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة المائدة (١٥-١٦)].

وهكذا كان ينبغي على المسلمين أن يبنوا صرح وحدتهم العملية على هذه الأسس النظرية، فيجمعوا همهم وهمتهم لتحقيق الأهداف الكبرى، ومواجهة التحديات الكبرى التي تواجه الأمة، وتهدف إلى إفنائها، وطمس معالمها، والقضاء على رسالتها.

وإن من الخيانة لأمتنا اليوم أن نُغرقها في بحرٍ من الجدل، حول مسائل في فروع الفقه، أو على هامش العقيدة في حين ننسى مشكلات الأمة ومآسيها ومصائبها التي تزداد وتتجدد يوماً بعد يوم، وكان الأحرى بنا أن نبحث لها عن شاطئ أمان، ومنهاج متكامل للإصلاح والنهضة.

ولقد كان سلفنا الصالح رضي الله عنهم أكثر إدراكاً لأولويات

الأمور، وترتيبها في الأهمية، وأكثر بعداً عن الخوض فيما لا جدوى منه، وهذا ما جرى مع الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنه، حينما جاءه ناسٌ من أهل العراق يسألونه عن حكم دم البعوض إذا أصاب الثوب، أو قَتَله المسلم في حالة الإحرام، فقال رضي الله عنه: هؤلاء يسألون عن دم البعوض وقد قتلوا ابن رسول الله؟! وقد قال ﷺ: ((هما ريحانتاي من الدنيا))[1].

"وهكذا فإن من الخيانة أن يحمى الوطيس، وتُنصب المجانيق، ويتقاذف الناس بكلمات أشد من الحجارة، وأنكى من السهام، من أجل مسائل تحتمل أكثر من وجه، وتقبل أكثر من تفسير، فهي من مسائل الاجتهاد التي دلَّت على سعة هذا الدين ومرونته، الْمُصيب فيها مأجور والمخطئ فيها معذور، وخطؤه فيها مغفور، بل هو بنص الحديث مأجور.

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في [كتاب المناقب]، الحديث رقم (٣٤٧٠). قال الحافظ ابن حجر في تعليقه على قول ابن عمر: أورد ابن عمر هذا القول متعجباً من حرص أهل العراق على السؤال عن الشيء اليسير والتفريط في الشيء الجليل. انظر: (فتح الباري) لابن حجر العسقلاني ٧/ ٩٩.

إن العالم يتقارب بعضه من بعض على كل صعيد، رغم الاختلاف الديني والإيديولوجي، والاختلاف القومي واللغوي والوطني والسياسي.

رأينا المذاهب المسيحية -وهي أشبه بأديان متباينة- يقترب بعضها من بعض، ويتعاون بعضها مع بعض.

بل رأينا اليهودية والنصرانية -رغم ما كان بينهما من عداء تاريخي- يتقاربان ويتعاونان في مجالات شتى، حتى أصدر الفاتيكان منذ سنوات وثيقته الشهيرة بتبرئة اليهود من دم المسيح.

ورأينا تقارب العملاقين أمريكا والاتحاد السوفيتي -عندما كان قائماً- وكذلك التقارب بين دول أوربا التي مزقتها الحروب والصراعات والنزاعات القومية، وقد تناست كل ذلك حتى أوشكت أن تكون دولة واحدة.

رغم ذلك كله ما يزال المسلمون يتباعدون، ويتنكر بعضهم لبعض بل يقاتل بعضهم بعضاً"[١].

---

(١) أبحاث ودراسات مقدمة لندوة التقريب بين المذاهب المنعقدة في مدينة حلب (سورية) بتاريخ ٢٥-٢٦ شوال ١٤٢٠هـ/ ١-٢ شباط ٢٠٠٠م. وقد جمعت المحاضرات=

ولذلك يجب التأكيد على الأسس التي تجمع المسلمين أكثر من التي تفرِّق وتثير العصبيات والطائفية والمذهبية، وعلينا أن نسعى مجتمعين متعاونين لمواجهة الأخطار التي تتحدَّانا، ومنها:

١- التخلف العلمي التقني الذي يُعانيه المسلمون.

٢- التخلف الحضاري الثقافي.

٣- جهل المسلمين بدينهم وعقيدتهم، وربما عداؤهم له.

٤- حرب العولمة والتغريب التي تواجه العالم الإسلامي.

٥- حالات الاستعمار والاغتصاب التي يُعاني منها العالم الإسلامي، وخاصة سرطان الاحتلال الصهيوني.

٦- واقع التجزئة والتمزق، والعداء والحروب بين الدول الإسلامية.

٧- همُّ التسيب والانحلال الأخلاقي.

٨- الاستبداد والتسلط السياسي.

٩- محاربة الحركات الإسلامية، وجماعات الدعوة في معظم

=والأبحاث المقدمة لهذه الندوة في كتيب صدر عن المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، ضمن سلسلة كتاب الثقافة الإسلامية العدد (٧) بعنوان (بحوث ودراسات في التقريب بين المذاهب الإسلامية) عام ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

الدول الإسلامية.

١٠- ظهور الجماعات المتشددة التي لا تَفقه حقيقة الإسلام، وتعرضه للعالم بأسلوبها العدواني الخاطئ المشوَّه.

١١- ظهور الفرق الضَّالة التي تدعو إلى نفسها على أنها تمثل الإسلام الصحيح.

١٢- حروب التنصير والتكفير التي يقودها أعداء الإسلام.

١٣- انتشار المجاعات والفقر في كثير من البلاد الإسلامية، ووجود الترف والإسراف والتبذير في الدول الأخرى.

١٤- وجود الذين يَدَّعون أنهم مُفكرون إسلاميون يطرحون أفكاراً علمانية تخريبية ويُلبسونها ثوباً إسلامياً لتضليل الناس وتشويشهم.

١٥- عدم وجود صياغة حضارية معاصرة لمنهاج الدولة الإسلامية المنشود.

كل هذا وغيره يستدعي منا توحيد الجهود ولمَّ الشمل، والسعي الحثيث لمواجهة هذه المشكلات بحزم وعزم، انطلاقاً من قوة الوحدة الإسلامية، وقوة توحيد الجهود بين مختلف التيارات الإسلامية.

المطلب الثاني

الأسس التي يجب أن ننطلق من خلالها في توحيد الصف

أمام كل ما سبق من تحدياتٍ كبرى، وأمام نداء الله تعالى لنا في القرآن بقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [سورة آل عمران (١٠٣)] كان لا بد من جمع الصفوف، وتقارب المسلمين، والتقائهم على أسس واحدة ثابتة وهي:

١- التعاون في المتفق عليه: ولدينا -والحمد لله- ساحة واسعة من الأمور المشتركة التي تجمع فيما بيننا، وتهيئ إطاراً مشتركاً للعمل، وقد تحدثنا عن ذلك سابقاً.

٢- التسامح في المختلف فيه: وهو قليل جداً بالنسبة للمتفق عليه، وأكثره يندرج تحت عناوين هامشية، ومساحات من الأمور التي يمكن التغاضي عنها، وإهمال الخلاف فيها، ولا بد من ذكر القاعدة الأصلية التي دعا إليها المرحوم العلاّمة محمد رشيد رضا منهاجاً للتعاون بين المسلمين وهي: "نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا

بعضاً فيما اختلفنا عليه".

وهذا التسامح المنشود لا يمكن أن يتحقق عملياً إلا إذا أدركنا أن الاجتهاد أصل من أصول الشريعة، وأن الاجتهاد لا بد أن يؤدي إلى نتائج ووجهات نظر مختلفة متباينة، وهذا أمر فطر الله الناس عليه، وهو في حقيقته تيسير عليهم في أمور دينهم ودنياهم.

"ولا ريب أن هذه رحمة من الله تعالى بعباده، وتوسعة عليهم، ولو شاء الله سبحانه لأغلق علينا باب الاجتهاد كله، بإنزاله نصاً قطعياً لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، ولكنه سبحانه رحمنا ووسع علينا، فسكت عن أشياء كثيرة لم ينص على حكمها في كتاب ولا سنة، رحمة بنا من دون نسيان، فما كان ربنا نسياً، وما نصَّ عليه جعل معظمه قابلاً لتعدد الأفهام، واختلاف التفسيرات والاستنباطات، حتى يتسع للأصناف المتباينة من الناس، ما بين آخذٍ بظاهر النص وحرفه، أو بروحه وفحواه، وما بين مضيّق متشدد، وموسع مترخص.

وإذا كان من حقي أن أجتهد في فهم النصوص، أو فيما لا نصَّ فيه، فلا بد أن أعطي غيري الحق الذي لي، وإلا فما الذي يميزني عن غيري ؟

وما دام من حق غيري أن يجتهد، فمن شأن الأمور الاجتهادية أن تختلف فيها الآراء والأفهام وإلا لم تكن اجتهادية.

وسواء كان الصواب مع أحد الرأيين أو الآراء وإن لم يُعرف هو بعينه، فإن المخطئ مأجور والمصيب مأجور.

وأقصى ما يقوله المجتهد عن نفسه في الأحكام الجزئية قول الإمام الشافعي رضي الله عنه: "رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب".

يقول الآمدي: اتفق أهل الحق من المسلمين على أن الإثم محطوط عن المجتهدين في الأحكام الشرعية، وذهب بشر المريسي، وابن عُلَيَّة، وأبو بكر الأصم، ونفاة القياس كالظاهرية والإمامية إلى أنه ما من مسألة إلا والحق فيها متعين، فمن أخطأه فهو آثم غير كافر ولا فاسق، ولا ثمرة عملية من هذا الخلاف، لأن التأثيم مرجعه إلى الله، فإن شاء لام المخطئ وإن شاء لم يفعل .

ولذلك منع المحققون من العلماء الإنكار على الأمر المختلف فيه، وقالوا: والمنكر الذي يجب إنكاره ما كان مجمعاً عليه.

وقال ابن قدامة الحنبلي: "لا ينبغي لأحد أن ينكر على غيره

العمل بمذهبه، فإنه لا إنكار في المجتهدات"[1].

ومن الوسائل التي ينبغي الاستفادة منها عقد الندوات العلمية الحوارية بين نخبة من علماء المذاهب غير المتعصبين، لاستعراض النقاط المختلف فيها، ومناقشتها بغية الوصول إلى الحق ومعرفته.

٣- الاعتدال وعدم المغالاة:

ولذلك يجب عدم المغالاة في تصويب رأي واجتهاد مجتهدٍ ما، وتخطئة الآخرين، فيرى المقلد أو الفقيه أن مذهبه هو الحق، وغيره الباطل، وهذا غُلُوٌّ وعصبية جاهلية بعيدة عن روح الإسلام وعن المنهج العلمي.

٤- الاعتراف بالآخر:

كما ينبغي الاعتراف للآخرين بقيمتهم العلمية، ومنزلتهم الفقهية، وعدم دعوة الناس جميعاً للانخراط في مذهب واحد، كالذي يشيع بين العوام من الدعوة إلى توحيد المذاهب، أو اعتبار الخلاف العلمي من الخلاف في الدين، فإن قائل ذلك جاهل ببدهيات الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وبطبيعة الخلاف الذي بين المسلمين.

---

(١) (الآداب الشرعية) لابن مفلح، ١/ ١٨٦.

٥- تجاوز أحقاد التاريخ والاستفادة من دروسه:

المسلمون هم أول أمة تعلَّمت المنهج العلمي في التأريخ، وعلَّمته لمن بعدها، فبعد أن كان التاريخ أساطير تروى وخرافات تتناقل، جاء الإسلام ليقرر مبدأ التوثيق في نقل الخبر والتعامل معه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [سورة الإسراء (٣٦)].

وبعد أن كان التاريخ أحاديث لمجالس اللهو والسمر، جعل منه القرآن الكريم آيات تتلى في الصلاة، ومجالس العلم والعبادة ابتغاء الذكرى والاستفادة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة التوبة (٧٠)] وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنعام (٩٠)] وفهم التاريخ ومعرفته يجب أن تتساند مع وعي المسلمين بحاضرهم وسُبُل وحدتهم ونهضتهم.

والمشكلة الكبرى التي يعيشها المسلمون اليوم هي أنهم أكثروا

من الخوض في مشكلات تاريخهم، وحروبهم ونـزاعاتهم، وبنوا مواقفهم الحالية على أساس تحيزهم وتعصبهم لأحد الطرفين المتخاصمين قبل أكثر من ألف عام، وأدخلوا هذه الخلافات السياسية الاجتهادية في ضمن العقيدة، فتعصب كل طرفٍ لحليفه، وجعل عدم تفضيلـه على غيره من النفاق أو الكفر!

فكما غالى الشيعة في حب آل البيت والدفاع عنهم وتعظيمهم، غالى السنة في الدفاع عن أخطاء الصحابة، أو أخطاء بني أمية وبني العباس.

ومما زاد الطين بلة ما نسبه الجهلة من الطرفين إلى النبي ﷺ في تأييد موقفه من أحاديث ملفقة موضوعة، وما كذبوه على التاريخ من مواقف تؤجِّج النار وتزيد اتقادها، وتلقَّف بعض العلماء هذه الأخبار بسذاجة أو حسن ظن.

ولذلك كان لزاماً علينا أن نعيَ تاريخنا، وخصوصيةَ كل مذهبٍ من مذاهبنا، وأن نتفق على منهج دقيق لدراستنا للتاريخ يقوم على أسس علمية أهمها:

١ً- تمحيص الروايات التاريخية ونقدها من حيث إسنادها،

واستبعاد الروايات المروية عن طريق المغالين من الطرفين، وخاصة في تأييد موقف فرقته.

٢- تمحيص الروايات التاريخية من حيث المتن، واستبعاد الروايات التي تصادم أصلاً معروفاً من الدين بالضرورة، أو تصادم حقيقة تاريخية ثابتة، أو أمراً منطقياً معروفاً[١].

٣- النظر بحذر شديد إلى كتب "المناقب والفِرق" لأن أكثر هذه

---

(١) من أمثلة ذلك أن مجموع أحاديث (تهذيب الأحكام) للشيخ الطوسي الذي بين يدينا الآن (١٣٥٩٠) حديثاً، بينما يذكر الطوسي نفسه في كتابه (عدة الأصول) أن في كتابه (تهذيب الأحكام) نحو (٥٠٠٠) حديث! انظر (عدة الأصول) للطوسي ولهذا يقول السيد هاشم معروف الحسني: وضع قصاص الشيعة مع ما وضعه أعداء الأئمة عدداً كثيراً على لسان الأئمة الهداة. وبعد التتبع في الأحاديث المنتشرة في مجاميع الحديث (كالكافي) و(الوافي) وغيرهما نجد أن الغلاة والحاقدين على الأئمة الهداة لم يتركوا باباً من الأبواب إلا ودخلوا منه لإفساد أحاديث الأئمة. انظر (الموضوعات) للسيد هاشم الحسني ص ٢٥٣،١٦٥. و(كشف الأستار وتبرئة الأئمة الأطهار) للسيد حسين الموسوي ص ١٠٣. والحقيقة أن السنة قد قطعوا شوطاً سبقوا فيه إخوانهم الشيعة في تنقيح أحاديثهم، وجرح رجالهم وتعديلهم. بينما تأخر ظهور هذا العلم عند الشيعة كثيراً، وتقبلوا كل ما وصلهم من أحاديث عن أئمتهم، وإن ظهر متأخراً من حاول تنقية أحاديثهم، وتمييز الصحيح منها عن غيره.

الكتب كُتبت بروح من التعصب والمبالغة، والتهويل والتقوقع على الذات.

٤- تجاوز الخلاف التاريخي العقيم، وخاصة الذي لا ينبني عليه أثرٌ عملي، كالخلاف حول ميراث العباس وفاطمة رضي الله عنهما من رسول الله ﷺ!! والاشتغال بما يُوحِّد الأمة بدل أن يفرقها.

يقول الداعية الكبير الشيخ عبد السلام ياسين في تعليقه على منهج الشيخ القاضي المالكي أبي بكر ابن العربي في دراسة التاريخ:

نلاحظ في نثر فقيهنا وقاضينا أبي بكر تغاضياً حييًّا عن ذكر ما نشب بين الصحابة من نـزاعٍ وقتال، فهو يتخطى حرب الجمل، وكارثة صفين، ويُرجعُ النـزاع إلى دمٍ يطالب به أولياء عثمان من بني أمية، وكأنَّ المسألة نازلة فقهية يحكم فيها القضاء.

وهكذا أمسك علماؤنا، وأوصوا بالإمساك عن ذكر تلك المآسي الدموية، ولئن كان نبش الماضي للوقوف عنده والتعرُّض للصحابة الكرام -وقد قُضي ذلك الأمر- مما لا يعني الشحيح بدينه؛ فإن رفع جانب الستار بقدر ما نتبين الأسباب التاريخية للانكسار المريع واجب.

ولن نفهم منهاج إعادة الخلافة الراشدة إن بقينا نغطي وجوهنا كلما ذكرت تلك الفترة العنيفة والدةُ كل ويلاتنا[١].

ويقول الأستاذ هاشم الموسوي: "فالمسلمون اليوم لا يواجهون من الناحية العملية مشكلة الإمامة والخلافة بشكلها التاريخي بين اتجاهين؛ اتجاه يرى أن أئمة أهل البيت هم أولى بالخلافة والإمامة، واتجاه آخر لا يرى وجوب الالتزام بإمامة أهل البيت، بل يواجهون خلافاً فقهياً بين مذاهب متعددة، والمفروض في مثل هذا الخلاف أن يكون خلافاً علمياً يمكن مناقشته وحله بالطرق العلمية، وسنجد المجال واسعاً للتلاقي إذا انطلق العقل الإسلامي من نقاط الالتقاء. ولا يضرُّ المسلمين أن يكون هناك تعدد في الرأي والاجتهاد إذا تغلّبوا على الأزمة، والحواجز النفسية التي صنعتها ظروف تاريخية"[٢].

وبما أن الخلاف بين المسلمين اليوم هو خلاف فقهي وعقيدي في معظم جوانبه فهم مدعوُّون إلى الحوار العلمي، والمنهج النقدي الموضوعي، وإزالة الحواجز النفسية بينهم وإعادة قراءة التاريخ،

---

(١) (الخلافة والملك) لعبد السلام ياسين، ص ٣١-٣٢.

(٢) (التشيع نشأته ومعالمه) لهاشم الموسوي ص٣٧٣.

وتحقيق وقائعه، وتقويمها تقويماً علمياً نـزيهاً، واستفادة الدروس والعبر منها من غير أن تُجعل سبباً للفرقة والخلاف والعصبية.

ونختم الحديث حول هذا الموضوع بكلمة للداعية الكبير المرحوم الشيخ محفوظ نحناح إذ يقول: "دول أوربا استطاعت أن تُذيب الفوارق فيما بينها، وأن تنسى أحقاد حربين عالميتين كان فيهما أكثر من ثمانية ملايين ضحية والأوربيون استطاعوا أن يحتفظوا بتاريخهم في المتاحف والكتب، ويرسموا خططاً مناسبة لمستقبلهم، فأوجدوا سوقاً مشتركة وبرلماناً أوربياً، ونقداً موحداً، وعَلَمَاً موحداً. لقد هداهم العقل والحاجة إلى تطبيق جزء من الإسلام هو المتعلق بوحدة الأمة، وكان الأجدر بالمؤمنين أن يكونوا سبَّاقين إلى هذا الوعي"(١).

٦- دراسة الاختلافات الفقهية لمعرفة أدلة المذاهب، وحقيقة ما يُنسب إلى كل مذهب:

وحتى يكون التقارب بين المذاهب مبنياً على أسس ثابتة سليمة،

---

(١) من محاضرة ألقاها الأستاذ محفوظ نحناح في الدورة التأهيلية الثامنة للأئمة والخطباء في مجمع الشيخ أحمد كفتارو الإسلامي بدمشق عام (٢٠٠٠م).

وليس ردّ فعلٍ عاطفي انفعالي، يجب أن نوسع دائرة الفقه المقارن ليشمل كل المذاهب الإسلامية القائمة اليوم.

كما يجب أن نسعى لدراسة كل مذهب من هذه المذاهب من مصادره الأصلية، فكم في كتب الفقه الواسعة من أخطاء في نسبة بعض الأقوال إلى المذاهب الأخرى.

ثم لا بد من ربط الخلاف بدليله فإن الإنسان إذا قرأ مذهب غيره ربما استنكر هذا القول غاية الاستنكار، فإذا قُرِن القول بدليله أو أدلته ربما تغير هذا الموقف إلى قبول بل إلى ترجيح.

كما ينبغي التنبيه إلى أن في بعض كتب الفقه عبارات وكلمات من تسفيه آراء الآخرين أو الطعن في أئمتهم لا تليق بالمسلم فضلاً عن العالم، لذلك يجب أن تكون هذه الدراسة الفقهية المقارنة قائمة على النية الحسنة، والهدف العلمي، بعيداً عن المهاترات، والتنابذ بالألقاب.

ويقدم الدكتور محمد الدسوقي دعائم أساسية لدراسة الاختلافات الفقهية دراسة تحقق غايتها في التقريب وهي:

١- التسليم بأن اجتهادات الفقهاء وآراءهم ليست شرعاً واجب

الاتباع وإنما هي فهم بشري لنصوص الشريعة وقواعدها العامة، ولذلك فهي تحتمل الخطأ والصواب، وليس لها صفة الثبات والخلود.

٢- كان من وراء اختلافات الفقهاء في المسائل الفرعية أسباب علمية تشهد للأئمة بالحرص البالغ على تحري الحق والصواب كما تشهد لهم بالعقلية الفاحصة، والنظرة الثاقبة، والفهم الواعي.

٣- الاقتناع بأن أئمة الفقهاء لم يتعصبوا لآرائهم، ولم يدَّعِ واحد منهم أن اجتهاده هو الصواب وحده، ولكنَّ مشكلة المسلمين أنَّ أتباع المذاهب أضفوا على تلك الاختلافات قداسة ليست لها، وأنزلوها منزلة لا ترقى إليها، ولذلك رفضوا كل ما يخالفها ولو كان نصاً شرعياً!.

كما انكمش الكثير من فقهاء المذاهب على مذاهبهم، وعكفوا عليها دون أي اعتبارٍ للآخرين، وهذا الأمر ولَّد لديهم ضيقاً في الأفق، وحرباً على كل مخالف[1].

يقول الإمام الشاطبي: "إن تعويد الطالب على ألا يُطالع إلا على

---

(١) (بحوث ودراسات في التقريب بين المذاهب الإسلامية) ص ١٧٣-١٧٥.

مذهبٍ واحدٍ ربما يكسبه نفوراً، وإنكاراً لغير مذهبه، وحزازةً في الاعتقاد بفضل أئمة أجمع الناس على فضلهم، وتقدُّمهم في الدين، وخبرتهم بمقاصد الشارع وأغراض التشريع"[1].

وقال الإمام أبو شامة: "ينبغي لمن اشتغل بالفقه أن لا يقتصر على مذهب إمام، ويعتقد في كل مسألة ما كان أقرب إلى دلالة الكتاب والسنة المحكمة، وليتجنب التعصب والنظر في طرائق الخلاف المتأخرة، فإنها مضيعة للزمان ولصفوه مكدِّرة"[2].

ومن الكلمات المضيئة الساعية إلى توحيد صف الأمة وبناء مجدها على أساس وحدتها، ما كتبه الشيخ هاشم الموسوي فقال: "لقد نشأ الخلاف الفقهي عندما نشأ اجتهاد الصحابة والتابعين، واستمر مع تطور المذاهب الفقهية، والفرق الكلامية التي تأثرت نشأتها بعوامل عديدة منها ما هو غريب عن روح الإسلام، ويعتبر الخلاف العلمي نتيجة طبيعية لعملية الاجتهاد والبحث العلمي، غير أن محنة المسلمين كانت في القصور العلمي لدى الكثيرين، وإصرارهم على الخطأ

---

(١) (الموافقات) للشاطبي، ٢/ ٢٧٣.

(٢) (حجة الله البالغة) للدهلوي، ١/ ٣٢٧.

والتعصب للرأي.

ويقول المرحوم الشيخ محمد جواد مغنية: "والخلافات الفقهية كما هي واقعة بين السنة والشيعة فهي حاصلة بين السنة بعضهم مع بعض، وبين الشيعة أيضاً بعضهم مع بعض، ولكن اتفقت كلمة الجميع على أن هذه الخلافات مرتبطة بالشريعة لم يقصد واحد منهم أن يخالف نصاً من نصوص الإسلام، وأنها رحمة للأمة وتوسعة عليها، ونفيٌ للإكراه والحرج في الدين، وهذه هي الثمرة الطبيعية لفتح باب الاجتهاد"[1].

وهكذا نرى أن الحكماء المخلصين من العلماء المجتهدين في كلا الطرفين -الشيعة والسنة- مجمعون على ضرورة الخروج من قوقعة المذهبية والطائفية إلى سعة ورحابة الإسلام، وهذا الخروج لا بد أن يقوم على فهمٍ وفقه، ولا يكفي لتحقيقه وجود العواطف الجيَّاشة والمشاعر الطيبة، ولذا كانت الدراسة العلمية ومعرفة الآراء من مصادرها هي سبيل الفهم الصحيح الذي يَردُّ كثيراً من الأخطاء، ويسدد الخطوات على الصراط المستقيم، ويجعل التقارب مبنياً على أسس

---

(١) (الشيعة في الميزان) لمحمد جواد مغنية، ص ٢٩٧،٢٩٨.

قوية تصمد أمام زعازع وعواصف الطائفية.

ونرجو الله تعالى أن يكون عملنا هذا خطوة في هذه المسيرة، ولبنة في هذا الصرح، وأن نوفق فيه للرشد، ونتجنَّب الوقوع في مزالق المذهبية والطائفية.

المطلب الثالث

مناقشة حديث افتراق الأمة إلى فِرَق كثيرة كلها في النار إلا واحدة

تعرضنا فيما سبق إلى ركائز وحدة الأمة، وأسس هذه الوحدة، وتبيَّن لنا من أقوال المحققين من علماء الأمة أن هذه الوحدة فرض، وأمرٌ محتَّمٌ لا مجال للمحيد عنه.

ولكن هذا التيار الوحدوي الجارف يصطدم بعقبة كؤودٍ هي الحديث الذي روي بطرق عدة عن النبي ﷺ وفيه يقول: ((افترقت اليهود على إحدى -أو اثنتين- وسبعين فرقة، وتفرَّقت النصارى على إحدى -أو اثنتين- وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة)).

فإن هذا الحديث يقدم مفهوماً هجومياً ينسف كل دعوة إلى وحدة هذه الأمة، والتقارب بين فرقها ومذاهبها، فكل مذهب وفرقة تريد أن تنال هذا الشرف، وتذهب بالسبق، وترسخ في الأذهان أنها الفرقة الناجية، وما عداها من تيارات إسلامية تشغل الساحة ليست إلا هباءً وغُثاءً لا قيمة له في الدنيا والآخرة ولا يمثل الإسلام في شيء. ولذلك كان لا بد من إعطاء هذا الحديث حقه من النقاش العلمي من حيث

السند والمتن، ونقل أقوال العلماء في التعليق عليه، ثم الحكم عليه.

رواية الترمذي للحديث:

قال أبو عيسى: حدثنا محمود بن غيلان قال: حدثنا أبو داود الحَفَرِيُّ، عن سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن زياد الإفريقي، عن عبد الله بن يزيد، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: ((ليأتينَّ على أُمَّتي ما أتى على بني إسرائيل حَذوَ النَّعلِ بالنَّعلِ، حتى إن كان منهم من أتى أُمَّهُ علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإنَّ بني إسرائيل تفرَّقت على ثنتين وسبعينَ مِلَّة، وتفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين مِلَّة كلهم في النار إلا ملَّةً واحدةً، قالوا: ومن هي يا رسول الله ؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي)).

قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ غريب، مفسَّرٌ لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه[1].

وفي هذا الحديث مشكلات كثيرة سنداً ومتناً نذكر أهمها:

١- أن الحديث -على أهميته وأهمية موضوعه- لم يرد في الصحيحين أو في أحدهما، وهما وإن لم يستوعبا الأحاديث الصحيحة

---

(١) سنن الترمذي في [كتاب الإيمان عن رسول الله]، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة، الحديث رقم (٢٦٤٠).

إلا أنهما حرصا على أن لا يَخلو كتاباهما من بابٍ من أبواب العلم، ولو كان ذلك تعليقاً أو ترجمة.

٢- أن الحاكم عندما ذكره في مُستدركه صححه على شرط مسلم باعتبار أن محمد بن عمرو من رجال مسلم، ولكن تعقبه الذهبي بأنَّ مسلماً لم يحتجَّ بمحمد بن عمرو منفرداً، وإنما ذكر رواياته شواهدَ ومتابعات. هذا مع ملاحظة أن الرواية التي صححها الحاكم على شرط مسلم ليس فيها زيادة: ((كلها في النار إلا واحدة)) وهي أصل المشكلة وأساسها[1].

٣- أن الحديث ورد من طرق حسنة أقوى من هذه الطرق من غير زيادة: ((كلها في النار إلا واحدة)) فقد رواه الترمذي فقال: حدثنا الحسين بن حريث، أبو عمار قال: حدثنا الفضل بن موسى، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ((تفرَّقت اليهود على إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة)). قال أبو عيسى الترمذي: وفي الباب عن سعدٍ، وعبد الله بن عمرو، وعوف ابن

---

(١) انظر (المستدرك) للحاكم ١/ ٢١٨، الحديث رقم (٤٤١).

مالكٍ، قال أبو عيسى: حديث أبي هريرة حديثٌ حسنٌ صحيح[1].

ونقل المنذري تصحيح الترمذي وسكت عنه[2].

وأخرجه أيضاً أبو داود[3]، وابن ماجه[4]، وابن حبان[5]، وأبو يعلى[6].

٤- إن هذا الحديث في مسألة مهمة من مسائل العقيدة، ومثل هذه المسائل ذهب كثير من العلماء إلى عدم قبول أحاديث الآحاد فيها، فكيف إذا أضيفت إليها تلك العلل؟!

ولذلك يجب ترجيح الرواية التي ليست فيها هذه الزيادة، وفهم الحديث فهماً يتوافق مع روح التشريع، وأدب الخلاف في الإسلام.

---

(١) سنن الترمذي، [كتاب الإيمان عن رسول الله ص]، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة، الحديث رقم (٢٦٤٠).

(٢) مختصر سنن أبي داود للمنذري، ٧/ ٤.

(٣) سنن أبي داود في [كتاب السنة]، باب: شرح السنة، الحديث رقم (٤٥٩٦).

(٤) سنن ابن ماجه في [كتاب الفتن]، باب: افتراق الأمم، الحديث رقم (٣٩٩٣).

(٥) صحيح ابن حبان ١٤/ ٤٠، الحديث رقم (٦٢٤٧).

(٦) مسند أبي يعلى ١٠/ ٣١٧، الحديث رقم (٥٩١٠) و١٠/ ٣٨١، الحديث (٥٩٨٧)، و١٠/ ٥٠٢، الحديث رقم (٦١١٧).

قال الخطابي في "معالم السنن": قول النبي ﷺ: ((تفترق أمتي.....)) فيه دليل على أن هذه الفرق كلها غير خارجة من الدين، إذ جعلهم النبي ﷺ كلهم من أمته، وفيه أن المتأول لا يخرج من الملَّة، وإن أخطأ في تأوُّله[1].

(١) (معالم السنن) للخطابي، ٧/ ٧، الحديث (٤٤٢٩).

رؤية الإمام الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي
في دفع الإشكال في حديث (افترقت أمتي ....)
من هي الملة الناجية ؟؟!

لعل من أخطر العوامل التي تتحرك باسم الدين بفهم مقلوب منكس لحديث صحيح رواه أصحاب السنن عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**افترق اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة وتفرقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتي إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة**»، زاد الإمام الترمذي على ذلك هذه الزيادة على لسان رسول الله ﷺ قائلاً: «**كلها في النار إلا ملة واحدة، قيل له: ما هي يا رسول الله قال: ما أنا عليه وأصحابي**».

فهذا الحديث حديث صحيح وله معنى يزيد من دعوة الأمة إلى الاجتماع والألفة ولكن في الناس اليوم كثرة ذهبت في تفسير هذا الحديث مذهباً باطلاً، مذهباً منكساً تحول بذلك هذا الحديث إلى عامل من أخطر عوامل الفرقة بين المسلمين، كثيراً ما يرى الرجل صاحبه من هؤلاء الذي فهموا هذا الحديث فهماً باطلاً، يقول له

صاحبه سائلاً: من أي البلاد أنت، يسأله عن مسقط رأسه، يسأله عن وطنه فيجيبه أنا من الفرقة الناجية ومعنى هذا الكلام بصريح القول أن الذين يسيرون على خلاف مذهبه ومنهجه ليسوا من الفرق الناجية بل هي ممن قال رسول الله عنهم كلها في النار.

وردت أحاديث كثيرة بلغت مبلغ التواتر المعنوي تفيد **أن من مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة**، من هذه الأحاديث ما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**من لقي الله لا يشرك به شيئاً حرَّم الله عليه النار**»، ومن ذلك ما رواه النسائي من حديث أبي عمرة الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أني عبده ورسوله لا يلقى اللهَ عبدٌ يؤمن بهما إلا حُجِبَتْ عنه النار يوم القيامة**»، وروى أبو داود والحاكم من حديث معاذ رضي الله عنه: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار**»، وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من قال لا إله إلا الله مخلصاً بها دخل الجنة**».

وأنتم تعلمون أن هؤلاء الذين يقولون لا إله إلا الله ويموتون وهم مستمسكون بها فيهم كثيرٌ ممن تبنى فرقة من الفرق، تبنى مذهباً من المذاهب، اجتهد في إتباع فئة من الفئات وها هو رسول الله ﷺ يعلن

في أحاديث بلغت مبلغ التواتر المعنوي أن لا حرج، كلهم ناجون وكلهم يكرمهم الله بالجنة، أفيمكن أن يناقض رسول الله ﷺ نفسه فيقول في هذا الحديث ما يناقض مناقضة حادة هذه التأكيدات التي ذَكَرْتُ لكم طائفة يسيرة منها فيقول وستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا ملة واحدة ويعني بذلك الفرق الإسلامية والمذاهب الإسلامية المتنوعة إذاً فرسول الله يناقض نفسه! وحاشاه.

إذاً فما معنى الحديث؟

تأملوا يا عباد الله فيما أقوله لكم، يقول المصطفى ﷺ افترقت اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة، مقتضى بلاغة المصطفى وكونِه حجة في البيان والفصاحة وكونه أوتِيَ جوامع الكلم أن يقابل كلمة اليهود والنصارى بكلمة المسلمين فيقول وسيفترق المسلمون إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة، لكنه عَدَلَ عن كلمة المسلمين وإنما قال وستفترق أمتي إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة **والمراد بالأمة هنا أمة الدعوة لا أمة الاستجابة.**

كل من وُجِدَ في عصر رسول الله ﷺ وكل من وُجِدَ فيما بعد إلى قيام الساعة من أمة رسول الله ﷺ لكنه من أمة الدعوة ومن آمن منهم

أصبح من أمة الاستجابة، يقولُ المصطفى ﷺ: وستفترق أمتي، أي أمة الدعوة، إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة، أي إلى أديان مختلفة متناقضة شتى، والدليل الناطق على هذا أنه قال بعد ذلك: كلها في النار **إلا ملة واحدة ولم يقل إلا فرقة واحدة، كلها في النار إلا ملة واحدة هي ملة الإسلام بكل فئاتها، بكل مذاهبها، بكل أقوامها، الجامع المشترك بينها والذي يجعل لها هوية الرحمة من الله سبحانه وتعالى ويجعلها تدخل إلى بوابة الرحمة الإلهية والواسعة أنها جميعاً لَقِيَت الله عز وجل وهي تؤمن أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله.**

هذا هو المعنى الذي قصده المصطفى ﷺ وهيهات هيهات أن نفسر هذا الحديث بما يروق لنا وبما يبرر المذهبية التي نتعصب لها أو بما يبرر الفرقة التي نتعصب لها والتي نرى أن غيرنا ممن لا يتبناها آيلٌ إلى النار وآيلٌ إلى الدمار، هيهات أن يكون قصد رسول الله ذلك إذاً لناقض نفسه وإذاً لوقعنا أمام مشكلة تجاه هذه الأحاديث الكثيرةِ الكثيرة التي بلغت مبلغ التواتر والتي حدثتكم عن بعضٍ منها.

إذا عرفنا هذا الذي نقول أيها الإخوة فالمسلمون اليوم بكل مذاهبهم، بكل فرقهم، ولا أريد أن أذكر الأسماء، كلهم يستظلون بظل

الإيمان بالله، كلهم لهم هوياتهم التي يدخلون بها غداً في رحمة الله عز وجل ألا وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إذاً لا يجوز لي وقد اتبعت أنا مذهب أهل السنة والجماعة الكثرةَ الكاثرة التي كانت في عصر رسول الله ﷺ لا يجوز لي أن أقول أنا وحدي من الفرقة الناجية والآخرون ليسوا ناجين إذا هم كفرة، هل يجوز لي أن أقول هذا؟

هل يجوز لي أن أُكَفِّرَ أخاً بيني وبينه رحم شهادةِ أن لا إله إلا الله؟

هل يجوز لي أن أقطع صلة ما بيني وبينه وقد مدَّ الله عز وجل صلة ما بيني وبينه بصلة الأخوة في الله إذ قال: ﴿**إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم**﴾[الحجرات: ١٠]؟

أرجو وآمل من كل مسلم أن يتشبع بهذا المعنى الذي ذكرته لكم من معنى حديث رسول الله حتى تفوتوا الفرصة على من يريد أن يُحَوِّلَ معنى هذا الحديث وأن يفرغه من مضمونه ثم يجعل منه قنبلة موقوتة تُصَدِّعُ أمتنا هذه وتحيلها إلى مزيد من الشظايا وكأن ما قد منينا به لا يكفي.

المقال منشور بتوسع على موقع (نسيم الشام)

من خطبة الجمعة بتاريخ ٦/ ٢/ ٢٠٠٩م

المبحث الثاني:
إكرام الصحابة وأئمة الفقهاء لآل بيت المصطفى ومحبة آل البيت لهم

المطلب الأول

إكرام الصحابة لآل البيت

أحب الصحابة النبي ﷺ حباً جماً، فكان أحب إليهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم، ولقد علم الصحابة شدة محبة النبي ﷺ لآله، فكانوا لأجل ذلك يجلونهم ويعظمونهم، على خلاف ما يروِّجه أعداء الصحابة وآل البيت من أن الصحابة كانوا يبغضون آل بيت المصطفى ﷺ، وينتقصون من حقوقهم، وقد ورد في تعظيم الصحابة وإجلالهم لعترة المصطفى ﷺ أخبار كثيرة نذكر بعضها فيما يأتي:

أولاً: محبة أبي بكر رضي الله عنه لآل النبي ﷺ:

أخرج ابن الأعرابي عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في المسجد وقد أحاط به أصحابه، إذ أقبل علي رضي الله عنه، فسلم ثم وقف، فنظر مكاناً يجلس فيه، فنظر رسول الله ﷺ على وجوه أصحابه أيهم

يوسع لـه، وكان أبو بكر عن يمين رسول الله ﷺ، فتزحزح أبو بكر في مجلسه، وقال: ها هنا يا أبا الحسن، فجلس بين رسول الله ﷺ وأبي بكر، فرأينا السرور في وجه رسول الله ﷺ، ثم أقبل على أبي بكر فقال: ((يا أبا بكر، إنما يعرف الفضل لأهل الفضل أهلُ الفضل))[1].

وروي أن أبا بكر رضي الله عنه صعـد منبر رسول الله ﷺ بعد وفاته، فرآه الحسن وكان صغيراً، فقال لـه: انـزل من على منبر أبي -ويعني النبي ﷺ-، فنـزل إليه أبو بكر ولاطفه ولاعبه[2].

وعند الطبراني والبزار، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: جاء أبو بكر بأبيه أبي قحافة رضي الله عنهما إلى رسول الله ﷺ يقوده شيخ أعمى يوم فتح مكة، فقال لـه رسول الله ﷺ: ألا تركت الشيخ في بيته حتى نأتيه؟ قال: أردت أن يؤجره الله، والله يا رسول الله، لأنا كنت بإسلام أبي طالب أشد فرحاً مني بإسلام أبي، ألتمس بذلك قُرَّة عينك

---

(١) (البداية والنهاية) لابن كثير، ٧/ ٣٥٩،وروي أن قيام أبي بكر كان للعباس عند ابن عساكر، انظر (كنز العمال) للهندي ١٣/ ٥١٠، حديث (٣٧٣٠٨)، وعزاه لابن عساكر.

(٢) (كنز العمال) للهندي،حديث (١٤٠٨٤)، وعزاه لأبي نعيم، وابن سعد.

يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: صدقت[1].

ثانياً: محبة عمر رضي الله عنه لآل النبي ﷺ:

وكان عمر رضي الله عنه يُجلُّ آل بيت النبي ﷺ، ويعرف لهم فضلهم وسابقتهم، فقد أخرج ابن عساكر عن ابن شهاب قال: كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في ولايتهما لا يلقى العباسَ منهما واحدٌ وهو راكب إلا نزل عن دابته وقادها، ومشى مع العباس حتى يبلغه مجلسه أو منزله[2].

وعند ابن سعد عن الشعبي أن العباس رضي الله عنه تحفَّى عمر رضي الله عنه في بعض الأمر فقال له: يا أمير المؤمنين أرأيت أن لو جاءك عمُّ موسى مسلماً ما كنت صانعاً به. قال: كنت والله محسناً إليه، قال: فأنا عم محمد النبي ﷺ. فقال: وما رابك يا أبا الفضل ؟ فو الله لأبوك أحب إلي من أبي، لأني كنت أعلم أنه أحب إلى رسول الله ﷺ من أبي، فأنا أوثر حِبَّ رسول الله ﷺ على حِبِّي[3].

---

(١) (مجمع الزوائد) للهيثمي ٦/ ١٧٤. قال الهيثمي: وفيه موسى ابن عبيدة وهو ضعيف.

(٢) (كنز العمال) للهندي ١٣/ ٥١٧، الحديث رقم (٣٧٣٣١)، وعزاه لابن عساكر.

(٣) (كنز العمال) للهندي ١٣/ ٥١٥، الحديث رقم (٣٧٣٠٦).

وعند ابن سعد أيضاً عن أبي جعفر محمد بن علي أن العباس ﷺ جاء إلى عمر ﷺ فقال لـه: إن النبي ﷺ أقطعني البحرين. قال: من يعلم ذلك ؟ قال: المغيرة بن شعبة. فجاء به فشهد لـه، قال: فلم يمضِ عمر ذلك كأنه لم يقبل شهادته، فأغلظ العباس لعمر، فقال عمر: يا عبد الله خذ بيد أبيك. ثم قال عمر: والله يا أبا الفضل لأنا بإسلامك كنت أسرَّ مني بإسلام الخطاب لو أسلم لمرضاة رسول الله ﷺ[1].

توسل عمر ﷺ في الاستسقاء بالعباس ﷺ:

وورد من طرق كثيرة استسقاء عمر بالعباس رضي الله عنهما، وقولـه: ((اللهم إنَّا كنَّا إذا قحطنا على عهد نبينا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنَّا نتوسل إليك اليوم بعمِّ نبينا فاسقنا، فيُسقون))[2].

وعند ابن عساكر وابن النجار، أن عمر ﷺ قال: ((أيها الناس إنَّ رسول الله ﷺ كان يرى للعباس ما يرى الولدُ لوالده يعظمهُ ويُفخِّمهُ، ويبرُّ قسمه، فاقتدوا أيها الناس برسول الله ﷺ في عمه العباس، واتخذوه وسيلةً

---

(١) (الطبقات الكبرى) لابن سعد ٤/ ٢٣.

(٢) صحيح البخاري في كتاب[الجمعة]، باب: سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، الحديث رقم (١٠١٠).

إلى الله عز وجل فيما نـزل بكم))[1].

صور من إكرام عمر ﷺ لعلي وبنيه ﷺ:

وأخرج ابن عساكر عن عروة ﷺ أن رجلاً وقع في علي ﷺ بمحضر من عمر ﷺ، فقال عمر: تعرف صاحب هذا القبر محمدَ ابن عبد الله بن عبد المطلب. وعلي هو ابن أبي طالب بن عبد المطلب لا تذكر علياً إلا بخير، فإنك إن آذيته آذيت هذا في قبره[2].

ولقد تزوَّج عمر أم كلثوم بنت علي وأخت الحسن والحسين رغبة في مصاهرة آل البيت، فلما تزوجها خرج إلى مجلس المهاجرين فقال: رفِّئوني[3]. فقالوا: بماذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: لقد صاهرت رسول الله ﷺ، وإني سمعته يقول: ((كل سبب ونسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا سببي، ونسبي، وصهري))[4].

وكذلك فقد كان عمر ﷺ شديد الإكرام للحسن والحسين رضي

---

(١) (كنز العمال) للـهندي ١٣/ ٥٠٤، الحديث رقم (٣٧٢٩٧).

(٢) (كنز العمال) للـهندي ١٣/ ١٢٣، الحديث رقم (٣٦٣٩٤).

(٣) رفِّئوني: هنئوني. (القاموس المحيط) للفيروزآبادي، ١/ ١٢٢.

(٤) (الإصابة في تمييز الصحابة) لابن حجر ٤/ ٤٩٢.

الله عنهما، ومن صور ذلك أن عمر ﵁ أتاه أثواب من اليمن فكسا أهل المدينة، ولم يكن فيها ما يَصلح للحسن والحسين، فبعث إلى اليمن فأتى لـهما بكسوة، فقال: الآن طابت نفسي[١].

ومن ذلك أنه لما قسم الأموال على المسلمين، وجعل لكل واحد نصيباً في بيت المال، فرض لـهم على حسب سابقتهم في الإسلام، إلا أنه ألحق الحسن والحسين بأبيهما، وفرض لهما خمسة آلاف، خمسة آلاف لقرابتهما من رسول الله ﷺ، وفرض لابنه عبد الله ثلاثة آلاف[٢].

وقد روى الكليني في: "الكافي"، والطوسي في "تهذيب الآثار" صوراً من إجلال عمر لعليٍ، واستشارته في القضاء، والثناء عليه، حتى اشتهر عنه قوله: "معضلة ولا أبو حسن لها".

محبة عمر ﵁ لفاطمة رضي الله عنها:

أخرج الحاكم عن أسلم أن عمر بن الخطاب ﵁ دخل على فاطمة رضي الله عنها، فقال: يا فاطمة، والله ما رأيت أحداً أحب إلى رسول الله ﷺ منك، والله ما كان أحد من الناس بعد أبيك أحب إليَّ

---

(١) (أخبار عمر وعبد الله بن عمر) للطنطاوي ٣١٩.

(٢) (مختصر تاريخ دمشق) لابن عساكر ٧/ ٢١، و(الطبقات الكبرى) لابن سعد ٣/ ٢٩٧.

منك[1].

ثالثاً: محبة عثمان ﷺ لآل بيت النبي ﷺ:

أخرج ابن عساكر عن القاسم بن محمد مما أحدث عثمان فرُضي به منه أن ضرب رجلاً في منازعة استخفَّ فيها بالعباس بن عبد المطلب، فقيل لـه، فقال: أيُفخِّم رسول الله ﷺ عمه، وأرخِّص في الاستخفاف به![2].

وكان الحسن ﷺ من المحبين لعثمان ﷺ، ومن جملة المدافعين عنه يوم حاصره الثائرون في داره.

قال ابن كثير في تاريخه: كان عثمان بن عفان ﷺ يكرم الحسن والحسين ويحبهما، وقد كان الحسن بن علي يوم الدار عنده -وعثمان محصور- ومعه السيف متقلداً به يدافع عن عثمان ﷺ، حتى جرح وخاف عليه عثمان، فأقسم عليه ليرجعن إلى منزلـهم[3].

---

(١) أخرجه الحاكم في (المستدرك) ٣/ ١٦٨، وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) (كنز العمال) للـهندي ١٣/ ٥١٨، الحديث رقم (٣٧٣٣٦).

(٣) (البداية والنهاية) لابن كثير ٥/ ٥٢٤.

رابعاً: محبة أبي هريرة رضي الله عنه لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم:

اتهم كثير من الباحثين والمؤرخين أبا هريرة رضي الله عنه بموالاته لمعاوية والأمويين، وغضّه من شأن آل البيت، وسوف نرى من خلال ما نورده من أخبار أن الحقيقة على نقيض ذلك وخلافه، فقد كان أبو هريرة رضي الله عنه يُجلُّ آل البيت، ويعرف لـهم حقهم، ويعلن ذلك صراحة حتى أمام بني أمية، وإن نالـه في سبيل ذلك شيء من الأذى، فليس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن يبيعون دينهم بدنياهم، وقد تركوا دنياهم، وأهلـهم ابتغاء رضى الله ورسولـه.

فعن سعيد بن أبي سعيد المقبري قال: كنا مع أبي هريرة إذ جاء الحسن بن علي رضي الله عنه فسلم فرددنا عليه، ولم يعلم أبو هريرة، فمضى، فقلنا: يا أبا هريرة هذا الحسن بن علي قد سلّم علينا، قال: فتبعه فقال: وعليك السلام يا سيدي، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إنه سيد))[1].

ومما روي في ذلك عنه قال: ما رأيت الحسن بن علي إلا فاضت عيناي دموعاً رحمة، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوماً فوجدني في المسجد، فأخذ بيدي، فاتّكأ عليَّ، ثم انطلقت معه حتى جئنا سوق بني

---

(١) (مختصر تاريخ دمشق) لابن عساكر ٧/ ٢١.

قينقاع، فما كلمني، فطاف فيه، ونظر ثم رجع، ورجعت معه، فجلس في المسجد فاحتبى، فأتى حسن بشدة حتى وقع في حجره، فجعل يدخل يده في لحية رسول الله ﷺ، وجعل رسول الله ﷺ يفتح فمه، ويدخل فمه في فمه، ويقول: ((اللهم إني أحبُّه، وأحبُّ من يحبُّه)) ثلاثاً.

وفي رواية أخرى: أنه ﷺ كان يدخل لسانه في فمه، أو لسان الحسن في فمه ص[1].

وعن أبي هريرة ﷺ أن مروان بن الحكم أتى أبا هريرة في مرضه الذي مات فيه، فقال مروان لأبي هريرة: ما وجدت عليك في شيء منذ اصطحبنا إلا في حبك الحسن والحسين، قال: فتحفز أبو هريرة فجلس فقال: أشهد لخرجنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا ببعض الطريق سمع رسول الله ﷺ صوت الحسن والحسين، وهما يبكيان، وهما مع أمهما، فأسرع حتى أتاهما، فسمعته يقول: ((ما شأن ابنيَّ؟)) فقالت: العطش. قال: فأخلف رسول الله ﷺ إلى شنَّة[2] يتوضأ بها، فلم يجد فيها ماء،

---

(١) (مختصر تاريخ دمشق) لابن عساكر ٧/ ١٠.

(٢) الشنة: القربة الصغيرة. (القاموس المحيط) للفيروزآبادي ٤/ ٣٤١.

وكان الماء يومئذ إعذاراً[1]، والناس يريدون الماء، فنادى: هل أحد منكم معه ماء؟ فلم يبق أحد إلا أخلف يده يبتغي الماء في شنّه، فلم يجد أحد منهم قطرة، فقال رسول الله ﷺ: ((ناوليني أحدهما))، فناولته إياه من تحت الخدر، فضمه إلى صدره وهو يصغو[2] ما يسكت، فأدلع له لسانه فجعل يمصه حتى هدأ وسكن، فلم أسمع له بكاءً، والآخر يبكي كما هو لا يسكت، فقال: ((ناوليني الآخر))، فناولته إياه، ففعل به كذلك فسكتا، فما أسمع لهما صوتاً، ثم قال: ((سيروا)). فصدعنا يميناً وشمالاً عن الظعائن، حتى لقيناه على قارعة الطريق. فأنَّى لا أحب هذين، وقد رأيت هذا من رسول الله ﷺ؟!»[3].

غضب سعيد بن زيد رضي الله عنه على من سب علياً رضي الله عنه:

وأخرج أبو نعيم في "الحلية" عن رباح بن الحارث، أن المغيرة رضي الله عنه كان في المسجد الأكبر وعنده أهل الكوفة عن يمينه وعن يساره، فجاء سعيد بن زيد، فحياه المغيرة وأجلسه عند رجليه على السرير، فجاء

---

(١) الإعذار: المنقطع.

(٢) يصغو: يتأذى من شدة العطش.

(٣) (مختصر تاريخ دمشق) لابن عساكر ٧/ ١٦،١٧.

رجل من أهل الكوفة فاستقبل المغيرة فسب. فقال سعيد: من يسب هذا يا مغيرة؟ قال: يسبُّ علي بن أبي طالب ﷺ. فقال: يا مغيرة ابن شعبة -ثلاثاً- ألا أسمع أصحاب رسول الله ﷺ يُسبون عندك لا تنكر ولا تغيّر! وأنا أشـهد على رسول الله ﷺ مما سمعت أذناي ووعـاه قلبي من رسـول الله ﷺ -فإني لم أكن أروي عنه كذباً يسألني عنه إذا لقيته- أنه قـال: ((أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن في الجنة، وسعد بن مالك في الجنة)) وتاسع المؤمنين في الجنة، ولو شئت أن اسميه لسميته. قال: فرجَّ أهل المسجد يناشدونه: يا صاحب رسول الله ﷺ من التاسع؟ قال: ناشدتموني بالله والله عظيم؛ أنا تاسع المؤمنين ورسول الله العاشر. ثم أتبع ذلك يميناً فقال: لمشهد شهده رجل مع رسول الله ﷺ يغبر وجهه مع رسول الله ﷺ أفضل من عمل أحدكم ولو عُمِّر عمر نوح(١).

---

(١) وأخرجه أحمد وأبو نعيم في (المعرفة)، وابن عساكر عن رباح نحو ما تقدم؛ انظر (كنـز العمال) للـهندي، الحديث رقم (٣٦٧٤١).

المطلب الثاني

محبة علي ﵁ وآل البيت لأصحاب رسول الله ﷺ ودفاعهم عنهم

أولاً: خطبة عظيمة لعلي ﵁ في بيان فضل الشيخين، وبعض ما جاء عنه في ذلك:

روي عن خيثمة واللالكائي وأبي الحسن البغدادي والشيرازي وابن منده وابن عساكر عن سويد بن غفلة قال: مررت بقوم يذكرون أبا بكر وعمر وينتقصونهما. فأتيت علياً ﵁ فذكرت لـه ذلك فقال:

لعن الله من أضمر لـهما إلا الحسن الجميل، أخوا رسول الله ﷺ ووزيراه! ثم صعد المنبر فخطب خطبة بليغة فقال: ما بال أقوام يذكرون سيدَي قريش وأبوي المسلمين بما أنا عنه متنزه، ومما يقولون بريء، وعلى ما يقولون معاقب؟ والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لا يحبهما إلا مؤمن تقي، ولا يبغضهما إلا فاجر رديء.

صحبا رسول الله ﷺ بالصدق والوفاء، يأمران وينهيان ويعاقبان، فما يجاوزان ما يصنعان رأي رسول الله ﷺ، ولا يرى رسول الله ﷺ كرأيهما رأياً، ولا يحب حبهما حباً، مضى رسول الله ﷺ وهو عنهما راضٍ والناس راضون.

ثم ولي أبو بكر الصلاة، فلما قبض الله نبيه ﷺ ولاه المسلمون ذلك وفوضوا إليه الزكاة لأنهما مقرونتان -وكنت أول من يسمى لـه من بني عبد المطلب- وهو لذلك كاره، يود أن بعضـنا كفاه، فكان والله خير من بقي، أرأفه رأفة، وأرحمه رحمة، وأكيسه ورعاً، وأقدمه إسلاماً، شبهه رسول الله ﷺ بميكائيل رأفة ورحمة، وبإبراهيم عفواً ووقاراً، فسار بسيرة رسول الله ﷺ حتى قُبض رحمة الله عليه.

ثم ولي الأمر من بعده عمر بن الخطاب، واستأمر في ذلك الناس، فمنهم من رضي ومنهم من كره، فكنت ممن رضي. فو الله ما فارق عمر الدنيا حتى رضي من كان لـه كارهاً. فأقام الأمر على منهاج النبي ﷺ وصاحبه، يتبع آثارهما كما يتبع الفصيل[1] أثر أمه.

وكان -والله- خير من بقي، رفيقاً رحيماً، وناصر المظلوم على الظالم. ثم ضرب الله بالحق على لسانه حتى رأينا أن ملكاً ينطق على لسانه، وأعز الله بإسلامه الإسلام، وجعل هجرته للدين قواماً، وقذف في قلوب المؤمنين الحب لـه، وفي قلوب المنافقين الرهبة لـه، شبَّهه رسول الله ﷺ بجبريل فظاً غليظاً على الأعداء، وبنوح حنقاً ومغتاظاً

(١) الفصيل: ولد الناقة.

على الكافرين. فمن لكم بمثلهما؟ لا يُبلغ مبلغهما إلا بالحبّ لهما واتباع آثارهما، فمن أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني وأنا منه بريء.

ولو كنت تقدمتُ في أمرهما لعاقبت أشد العقوبة، فمن أُتيت به بعد مقامي هذا فعليه ما على المفتري. ألا وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر، ثم الله أعلم بالخير أين هو. أقول قولي هذا ويغفر الله لي ولكم[١].

وقد رويت آثارٌ عن علي كرم الله وجهه في فضل أبي بكر منها ما رواه عن علي كرم الله وجهه قال: ما مات رسول الله ﷺ حتى عرفنا أن أفضلنا بعد رسول الله ﷺ أبو بكر[٢].

وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [سورة النمل (١٩)] عن

---

(١) (كنز العمال) للهندي، الحديث رقم (٣٦١٤٥). وعزاه إلى خيثمة واللالكائي وابن منده في تاريخ أصفهان.

(٢) (السنة) لابن أبي عاصم ٢/ ٥٦٩.

علي ﷺ أن الآية نـزلت في أبي بكر ﷺ أسلم أبواه جميعاً، ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أن أسلم أبواه غيره[1].

وروي أن علياً دخل على عمر رضي الله عنهما بعد أن طعنه أبو لؤلؤة، ومعه الحسن ابن علي، وعمر يبكي، فقال علي: ما يبكيك؟ قال: أبكاني خبر السماء، ولا أدري أيذهب بي إلى الجنة أم إلى النار؟ فقال علي: أبشر بالجنة، فإني سمعت رسول الله ﷺ ما لا أحصيه يقول: ((سيدا كهول الجنة أبو بكر وعمر وأنعما)). فقال عمر: أشاهد أنت لي يا علي بالجنة ؟

قال: نعم. فالتفت عمر إلى الحسن وقال: وأنت يا حسن فاشهد على أبيك أن رسول الله ﷺ قال: ((إن عمر من أهل الجنة))[2].

وجاء مدح عمر ﷺ على لسان عليٍ كرم الله وجهه في خطبة له

---

(١) (السنة) لابن أبي عاصم ٢/ ٥٦٩، والحديث عنده بروايات كثيرة في باب (ما روي عن علي من تفضيله أبي بكر وعمر)، وهو أيضاً عند ابن عساكر، انظر (كنز العمال) للهندي، الحديث رقم (٣٦٠٨٤).

(٢) (كنز العمال) للهندي، الحديث رقم (٣٦٠٨٤)، وعزاه إلى ابن عساكر.

حيث قال: قوَّم الأوَد، وداوى العمد، خلَّف الفتنة، وأقام السنة، ذهب نقي الثوب، قليل العيب، أصاب خيرها، وسبق شرها، أدى إلى الله طاعته، واتقاه بحقه[1].

وأخرج ابن عساكر عن أبي إسحاق قال: قال رجل لعلي بن أبي طالب ﷺ: إن عثمان في النار. قال: ومن أين علمت؟ قال: لأنّه أحدث أحداثاً. فقال لـه علي: أتراك لو كانت لك بنت أكنت تزوجها حتى تستشير؟ قال: لا. قال: أفرأيك هو خير من رأي رسول الله ﷺ لابنتيه؟! أخبرني عن النبي ﷺ أكان إذا أراد أمراً يستخير الله أو لا يستخيره؟ قال: لا، بل كان يستخيره. قال: أفكان الله يَخير لـه أم لا؟ قال: بل يخير لـ. قال: فأخبرني عن رسول الله ﷺ، اختار الله لـه في تزويجه عثمان أم لم يختر لـه؟! قم فو الله لقد تجردتُ لك لأضرب عنقك فأبى الله ذلك، أما والله لو قلت غير ذلك لضربت عنقك[2].

ومما ورد عن علي ﷺ أيضاً في الثناء على أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ ما رواه أبو جحيفة قال: خطبنا علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه

---

(١) (نهج البلاغة) ٢/ ٢٢٢.

(٢) (كنز العمال) للهندي، الحديث رقم (٣٦٢٤٧)، وعزاه إلى ابن عساكر.

على منبر الكوفة فقال: ألا إنَّ خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ولو شئت أن أخبركم بثالث لأخبرتكم، قال: فنـزل عن المنبر وهو يقول: عثمان، عثمان.

وعن عمرو بن حريث قال: سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: خير الناس بعد رسول الله ﷺ: أبو بكر وعمر وعثمان[١].

وعن شريح القاضي قال: سمعتُ علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول على المنبر: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم أنا[٢].

وروى سلام بن أبي مطيع عن أيوب السختياني عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: لما طعن عمر بن الخطاب بعث إلى حلقةٍ من أهل بدر كانوا يجلسون بين القبر والمنبر، فقال: يقول لكم عمر: أنشدكم الله أكان ذلك عن رضا؟ فتلكَّأ القوم، فقام علي رضي الله عنه فقال: ودِدنا أنَّا زدنا في عمره من أعمارنا[٣].

ومن شواهد ذلك في كتب الشيعة القديمة ما جاء في رسالة من

---

(١) (مختصر تاريخ دمشق) لابن عساكر، ١٦/ ١٤١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) (حلية الأولياء) لأبي نعيم، ٣/ ١٩٩.

علي إلى معاوية نقلها المؤرخ الشيعي نصر بن مزاحم المنقري ٢١٢هـ في كتابه "وقعة صفين" جاء فيها: "... وذكرتَ أن الله اجتبى له من المسلمين أعواناً أيده الله بهم، فكانوا فيم نازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام فكان أفضلهم وأنصحهم لله ورسوله الخليفة وخليفة الخليفة، ولعمري إن مكانهما من الإسلام لعظيم، وإن المصاب بهما لجرح في الإسلام شديد رحمهما الله، وجزاهما بأحسن الجزاء...)[1].

ورأينا موقف الحسن ﵁، ودفاعه عن عثمان ﵁ يوم الدار، وما قالـه يوم الصلح مع معاوية، والرؤيا التي رآها[2].

وبذلك ترى الحقيقة بارزة للعيان، مشرقة كالشمس لا لبس فيها، وهي أنه على الرغم مما جرى بين الخلفاء الأربعة من خلاف حول بعض الأمور إلا أن هذا الخلاف لم يدفع أياً منهم لاتخاذ موقف عدائي من الآخر، أو إلى الانتقاص من الآخر بشكل من الأشكال.

---

(١) (وقعة صفين)، نصر بن مزاحم، ت: عبد السلام هارون، نشر مكتبة آية الله النجفي المرعشي، قم، ص٨٩، وانظر كتاب (حل الاختلاف بين الشيعة والسنة في مسألة الإمامة)، مصطفى حسيني طباطبائي، ترجمة: سعد رستم، صدر عن دار الأوائل بدمشق سنة ٢٠٠٢م.

(٢) انظر ص (٥٦) من هذا الكتاب.

المطلب الثالث

بعض ما ورد عن أئمة آل البيت في الثناء على الصحابة، وردع من ذمهم

جاء إلى الإمام علي بن الحسين رضي الله عنه نفر من أهل العراق، فقالوا في أبي بكر وعمر وعثمان، وأساؤوا إليهم، وهم يحسبون أنهم بذلك يستميلون قلب الإمام! فلما فرغوا من كلامهم قال لهم: ألا تخبروني من أنتم؟ أنتم المهاجرون الأولون الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون؟[1]. قالوا: لا! قال: فأنتم الذين تبوَّؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة؟ فقالوا: لا. فقال: وأنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة الحشر (١٠)]. أخرجوا عني.

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [سورة الحشر(٨)].

وكان الإمام الباقر يستشهد بفعل أبي بكر رضي الله عنه، فعن عروة بن عبد الله بن الزبير قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي عن حلية السيف. قال: لا بأس به، وقد حلّى أبو بكر الصدّيق سيفه. فقال عروة: أتقول عن أبي بكر: الصِّدّيق؟! قال: فوثب وثبة واستقبل القبلة، وقال: نِعمَ الصِّدِّيقُ، نِعمَ الصِّدِّيقُ، من لم يقل الصِّدِّيق، فلا صدّق الله لـه قولاً في الدنيا ولا في الآخرة[1].

والروايات عن الإمام الصادق في الثناء على الشيخين بلغت مبلغ التواتر المعنوي، منها ما روي عن زهير بن معاوية قال: قال أبي لجعفر بن محمد: إن لي جاراً يزعم أنك تبرأ من أبي بكر وعمر! فقال جعفر: برئ الله من جارك. والله إني لأرجو أن ينفعني الله بقرابتي من أبي بكر، وإني اشتكيت شكاية فأوصيت إلى خالي عبد الرحمن ابن القاسم[2].

وعن حنان بن سدير قال: سمعت جعفر بن محمد وقد سئل عن أبي بكر وعمر، فقال: إنك تسألني عن رجلين قد أكلا من ثمار الجنة[3].

---

(١) (الفصول المهمة في معرفة أحوال الأمة) لابن الصباغ المالكي، ص٢٠٥.

(٢) (سير أعلام النبلاء) للذهبي ٦/ ٢٥٨، و(تهذيب الكمال) للمزي ٥/ ٨٠.

(٣) (سير أعلام النبلاء) للذهبي ٦/ ٢٥٦.

وعن محمد بن فضيل عن سالم بن حفصة قال: سألت أبا جعفر وابنه جعفراً عن أبي بكر وعمر، فقال: يا سالم تولهما، وابرأ من عدوهما، فإنهما كانا إمامي هدى، ثم قال جعفر: يا سالم، أيسب الرجل جده ؟ أبو بكر جدي، لا نالتني شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة إن لم أكن أتولاهما وأبرأ من عدوهما[١].

وعن عمرو بن قيس الملائي قال: سمعت جعفر بن محمد يقول: برئ الله ممن تبرأ من أبي بكر، وعمر[٢].

وجاءت امرأة إلى أبي عبد الله -جعفر الصادق- تسأل عن أبي بكر وعمر، فقال لها: توليهما. فقالت له: فأقول لربي إذا لقيته أنك أمرتني بولايتهما؟ قال: نعم!

وروي مثل ذلك عن جعفر الصادق مع واصل بن عطاء المعتزلي[٣].

---

(١) (سير أعلام النبلاء) للذهبي ٦/ ٢٥٩، و(تاريخ الإسلام) للذهبي ٦/ ٤٦، وقال الذهبي: هذا إسناد صحيح وسالم وابن فضيل شيعيان.

(٢) (سير أعلام النبلاء) للذهبي ٦/ ٢٦٠.

(٣) (الروضة من الكافي) للكليني ٨/ ١٠٦٢، الحديث رقم (٣١٩)، و(الكافي) ٥/ ٢٣.

ومما يدل على محبة آل البيت لأصحاب النبي ﷺ عامة ولأبي بكر وعمر وعثمان وعائشة خاصة، أنهم كانوا يسمون أبناءهم بأسمائهم.

فعن أبي سعيد قال: رأيت غلاماً ما أدري غلام هو أم جارية ما رأيت أحسن منه جالساً على جنب علي بن أبي طالب، فقلت لـه: من هذا الفتى ؟ فقال: هذا عثمان بن علي سميته بعثمان بن عفان، وقد سميت عمر بعمر بن الخطاب، وعباس بعمي العباس رضي الله عنهم[1].

ومن أولاد الحسن رضي الله عنه: "عمـر" وأمه أم ولـد، و"طلحة" وأمه أم إسحـاق بنت طلحة ابن عبيـد الله رضي الله عنه[2].

ومن أولاد الإمام زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنه "عمر"، ومن كناه رضي الله عنه "أبو بكر"[3].

---

(١) (الرياض النضرة) للمحب الطبري ٣/ ٤٩٩، وانظر: (الفصول المهمة في معرفـة أحـوال الأمة) لابن الصباغ المالكي، ص١٣٤.

(٢) (الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة) لابن الصباغ المالكي، ص١٥٧، و(الإرشـاد) للمفيد ص١٩٤.

(٣) (الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة) لابن الصباغ المالكي، ص١٩٧.

وتزوج الإمام الباقر ﵁ من أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، ومنها ولد الإمام جعفر الصادق[1].

ومن أولاد الإمام موسى الكاظم، والإمام الرضا، والإمام علي الـهادي "عائشة"[2].

وكان الإمام جعفر الصادق يفتخر بانتسابه إلى أبي بكر ﵁ ويقول: ولدني أبو بكر مرتين، وذلك لأن والدته هي أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وأم والدته هي أسماء بنت عبد الرحمن.



---

(١) (الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة) لابن الصباغ المالكي، ص٢٠٩.

(٢) (الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة) لابن الصباغ المالكي، ص٢٧١،٢٥٢،٢٣١.

المبحث الثالث: أهمية المذاهب الفقهية في رعاية الوحدة الإسلامية

هذا البحث[1] يتضمن بيان مدى أهمية المذاهب الفقهية في حماية الوحدة الإسلامية، وذلك على النقيض مما يتصوره بعض الناس.

كما يتضمن بيان الآفات الخطيرة التي لحقت المذاهب الفقهية في أزمنة لاحقة، فعاقتها عن مواصلة دورها الإيجابي في رعاية هذه الوحدة، وأهمَّ ما يجب على المسلمين فعله لإبعاد هذه الآفات عن حظيرة الاجتهاد الفقهي خصوصاً والإسلامي عموماً.

وتتسلسل نقاط هذا البحث طبق الترتيب التالي:

١. مقدمة في بيان أن الوحدة الإنسانية هي أهم الأهداف التي تعبَّد الله عبادَه بالإسلام من أجلها.

٢. معنى المذاهب الفقهية.

٣. عوامل نشأة المذاهب الفقهية.

---

(١) هذا البحث منقول كاملاً من كتاب قضايا ساخنة – طباعة دار الفقيه – للعلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى.

٤. تاريخ نشأة المذاهب الفقهية.

٥. الاختلافات الفقهية كانت ولا تزال اختلافات تعاونية.

٦. الآفات التي لحقت بالمذاهب وهي:

أ- تسليط قدر كبير من آثار المذاهب الاعتقادية والسياسية عليها.

ب- إخضاع ضوابط الرواية وفن الجرح والتعديل لتيار بعض المذاهب الاعتقادية والسياسية.

ث- تعصب كثير من أتباع المذاهب الفقهية لمذاهبهم.

٧. كيف نعالج هذه الآفات؟.

الوحدة الإنسانية أهم الأهداف التي جاء الإسلام من أجلها:

لا نزاع في أن وحدة الأسرة الإنسانية، والقضاء على عوامل التشرذم والتفرق فيها من أهم الأهداف التي جاء الإسلام لتحقيقها، على صعيد الحياة الدنيوية هذه.

ولعل من أبرز ما يجسّد هذا الهدف ويؤكده، كلمة "الحبل" التي عبر بها القرآن عن الاسلام، ثمّ أمرُه الناس جميعاً بالاعتصام بهذا الحبل

الذي يمنعهم من التفرق بمقدار ما يمنعهم في الوقت ذاته من الضياع والهلاك، وذلك في قوله عز وجل:

(وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ)

والقرآن مليء بعد ذلك بالآيات التي تنهى عن التفرق والشقاق، وتوصي بالوحدة والاتفاق وتهيب بالناس، كل الناس، أن لا يكونوا كالجماعات والأقوام الذين خلوا من قبلهم، إذ أعرضوا عن السبيل العريض التي يوحدهم ويجمع شملهم، واستعاضوا عن السبيل العريض التي يوحدهم ويجمع شملهم، واستعاضوا عنها بسبل متعرجة شتى، تفرقوا في متاهاتها، حيث أسلمتهم بدورها إلى أودية الضياع.

ألم يقل: (..وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ).

أولم يقل أيضاً: (وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

ولكن ما هو المعنى المحدد للوحدة التي جاء الإسلام لتحقيقها ثم لحمايتها ؟

إن من المهم جداً أن نطرح هذا السؤال، ولعل من أهم ما يحوجنا إلى طرحه، أن الناس كانوا، ولا يزالون، على الرغم من الحقيقة الإنسانية الواحدة الجامعة لهم، مختلفين في كثير من مشاربهم وعاداتهم، وأساليب تعاملهم مع الحياة ومرافقها، بل كانوا، ولا يزالون مختلفين في لغاتهم وألوانهم وانتماءاتهم العرقية والقومية.

من أجل هذا، كان لا بّد من أن نتبيّن الحجم المحدد المطلوب لهذه الوحدة التي جاء الإسلام لإقامتها، ثم لحمايتها وتغذيتها، بحيث تدرك أن الخطب فيما وراء هذا الحجم يسير، وإن الوحدة إذا تم نسيجها داخل حدود هذا الحجم، عاد الاختلاف فيما وراء ذلك صوراً من التعدد الهامشي لا ضرر فيها ولا خطر منها.

إن الوحدة المطلوبة هنا، هي وحدة الرؤية العقلية إلى الكون والإنسان والحياة، بحيث يصدر الناس جميعاً من عقيدة واحدة بحقيقة الإنسان والحياة التي يتمتع بها، وبالمكونات التي من حوله، وليس المعنّي بحبل الله في الآية السابق ذكرها إلا هذه العقيدة العقلية الشاملة، أما إضافة الحبل إلى الله، فلأن الذي عرّفنا بهذه الحقائق الثلاث على وجهها الصحيح إنما هو الله عز وجل، بل لا يملك أحد

غير الله عز وجل الذي تفرد بخلق كل شيء، أن يعرفنا بها، ويبصرنا بهويتها.

ومن المعلوم أن الناس إن صدروا عن عقيدة واحدة في فهم هذه العناصر الثلاثة الجامعة لمعنى الكون، لا بد أن يتفقوا على أصول واحدة في التعامل مع الكون على أساسها، وهذه هي التي تشكل بدورها نسيج وحدتهم وتضامنهم.

ولا شك أن من هذه الأصول الأخوة الإنسانية، وعبودية الإنسان لله و وحدة المبدأ والمصير في حياة الانسان.

فإذا اجتمع شمل الأسرة الإنسانية تحت مظلة هذه الأصول، فمن حق أفرادها بل من مقتضيات الفطرة في حياتهم أن تتلوّن منهم الخبرات والعادات وأساليب الحياة تماماً كما تتفاوت منهم القدرات، وتتعدد الألوان، وتتنوع اللغات.

ولولا هذا التلون والتعدد لما وجدت فيهم عوامل التساند والتعاون التي هي بدورها الغذاء الذي لا بّد منه لتنمية واقع الوحدة والتآلف والتضامن.

ومن هنا ندرك أن كثيراً من مظاهر الاختلاف والتعددية في حياة المجتمع الانساني إن هو إلاّ روافد وعوامل أساسية لتعميق معنى الوحدة والتضامن بين أفراده.

ترى هل تعدّ المذاهب الفقهية التي نراها اليوم في المجتمعات الإسلامية، واحدة من هذه المظاهر التي تغذي في الحقيقة والمآل نسيج الوحدة الإسلامية، في حياة المسلمين؟

ولكي يأتي الجواب مدروساً ومدعوماً بالمنطق، يجب أن نعلم أولاً معنى المذاهب الفقهية، وعوامل نشأتها، ومن ثم تاريخ نشأة هذه المذاهب.

فهذه ثلاث نقاط يجب أن نمهد بها للإجابة عن هذا السؤال.

معنى المذاهب الفقهية:

المذاهب الفقهية، حصيلة اختلاف الفقهاء في مسائل اجتهادية غير قطعية الثبوت أو الدلالة، في نطاق الأحكام السلوكية.

وهذا يعني أن في مصدري الكتاب والسنة، ما هو غير واضح الدلالة على المعنى المطلوب، بل يحمل في طيه أكثر من احتمال واحد. كما

أن في السنة ما هو غير قطعي الثبوت، بل تطوف به احتمالات الصحة والحسن والضعف.

ثم إن هذا المعنى يوضح أن هذه الخلافات الفقهية التي هي مادة المذاهب الفقهية لا علاقة لها، من قريب أو بعيد، بالأصول الاعتقادية المتعلقة بحقيقة الكون والإنسان والحياة، أو بما يتفرع عن معرفة هذه الحقائق الثلاث، من سلسلة المعتقدات الإسلامية التي يتكون من مجموعها معنى الإيمان والإسلام.

نعم، إن لها علاقة بهذه الأصول الاعتقادية، ولكنها لا تزيد على أن تكون تحقيقاً لمناطاتها، واستظهاراً لكيفية تطبيقاتها.

وبيان ذلك أن اليقين بوجوب الخضوع للشريعة الإسلامية من أصول المعتقدات الدينية التي لا خلاف فيها. أما تحديد الشريعة وإبرازها من خلال نصوصها ومسائلها الجزئية، فهو الفقه الذي قد تتسرب إلى بعض مسائله عوامل الخلاف والاحتمال..

وعلى سبيل المثال: إن اليقين بوجوب تجنب البدع واحد من أصول المعتقدات الدينية التي لا خلاف فيها، أما تحديد الجزئيات التي ينطبق أو لا ينطبق عليها حدّ البدعة، فداخل في تحقيق المناط، ومن ثم ففيها

ما قد يكون انطباق معنى البدعة عليه فيه شيء من الارتياب والاحتمال.

ولكن، لماذا كان في النصوص الفقهية في القرآن والسنة، ما قد يحمل أكثر من دلالة واحدة، ومن ثم كان فيه مجال واسع للاجتهاد والاختلاف.

الحكمة من ذلك أن يأتي مجموع الشرائع السلوكية ذا وجوه وطرق متعددة في استيعاب حاجات الناس ومصالحهم مهما تنوعت هذه الحاجات والمصالح، ومهما تطورت مع تطور الأزمان، وقد غدت هذه الحكمة واضحة جلية من كثرة ما تناولتها الدراسات والأبحاث المتنوعة.

إننا لا نرتاب على ضوء ما قد ذكرناه الآن، في أن نشأة المذاهب الفقهية وتطورها وانتهاءها إلى الحال التي هي عليها الآن، كل ذلك كان خير حماية للوحدة الإسلامية من التصدع والشقاق.

وقد يبدو غريباً في أذهان بعض الناس أن تكون اختلافات المسلمين في فهم الشريعة الإسلامية تعميقاً لعوامل وحدتهم وحماية لها من عادية التفرق والشقاق.

إن هذا الاستغراب صحيح عندما يكون مآل لاختلاف أن ينسب كل فريق صاحبه إلى انحراف في الفهم والسلوك، أو إلى الوقوع في خطيئة لا تغتفر.

غير أن الذي تبيّن لنا من معنى المذاهب الفقهية وعوامل نشأتها، أن الخلافات الفقهية التي تشكل العمود الفقري في تلك المذاهب، كانت خلافات تعاونية مسوغة، لا خصومات أو شقاقات فكرية مجرّمة.

ومعنى هذا أن نسيج الوحدة الاسلامية إنما تلاقت سداه ولحمته من هذه الخلافات التعاونية. إذ لولا الساحة التشريعية العريضة التي تكونت من مجموع الاجتهادات الفقهية المتعددة، لما أتيح للمساحات الإسلامية الشاسعة والمتنوعة، أن تتلاقى وتتلاحم تحت مظلة شرعة واحدة. ومن ثم لما أتيح لها أن تخضع، على اتساعها، لنظام دولة واحدة.

وإن نظرة واحدة متدبرة إلى التفاعل الذي كان قائماً، في صدر الإسلام، وأيام الخلافة الراشدة وما بعدها، بين أنشطة المذاهب الفقهية من جانب، ومظاهر وحدة الدولة الإسلامية من جانب آخر، ليبرز ويؤكد الحقيقة التي نقولها. وما سمعنا في التاريخ قط أن

خلافات المذاهب الفقهية كانت وبالاً على الوحدة الإسلامية في أيّ من عصورها الذهبية، وما ينبغي، ونحن نؤكد هذه الحقيقة، أن ننسى دور المناهج الفكرية، واعتماد الفقهاء على قواعد تفسير النصوص التي تم تدوينها في أواخر القرن الثاني، في تحصين هذه المذاهب ضد عادية الشرود، وعوامل الانزلاق في المتاهات التي من شأنها أن تنتزع ثقة الأئمة والعلماء بعضهم ببعض، وأن تحيل اختلافاتهم التعاونية إلى اتهامات وشقاق.

ولا داعي إلى أن نعيد إلى الذاكرة ثناء أئمة المذاهب الأربعة بعضهم على بعض، وصلة الود والتقدير المتبادلين بين الإمام الشافعي والإمام أحمد، وإعجاب كل منهما بالآخر، وثناء الإمام الشافعي على أبي حنيفة وتلميذه محمد وأبي يوسف، وقول الشافعي عن الإمام مالك: "مالك معلمي وعنه أخذنا العلم".

الآفات التي لحقت بالمذاهب الفقهية:

غير أن المذاهب الفقهية على الرغم من دورها الإيجابي، في ترسيخ بناء الشريعة الإسلامية، وتعميق دعائم الوحدة الإسلامية، خلال ما لا يقل عن خمسة قرون من عمر الشريعة الإسلامية، أصابتها، كأي شيء

آخر آفات قلصت الكثير من آثارها الإيجابية، وكادت أن تحيل آثارها المفيدة الوحدوية إلى نتائج سلبية ضارة في كثير من الأحيان.

وتتلخص هذه الآفات في:

١. تسليط قدر كبير من آثار الاختلاف بين الفرق الاعتقادية والسياسية عليها.

٢. إخضاع ضوابط الرواية وعلم الجرح والتعديل لتيار بعض المذاهب الاعتقادية والسياسية.

٣. تعصب أتباع المذاهب لمذاهبهم .

فلنفصل القول في كل من هذه الآفات بالقدر الذي تتعلق به الحاجة في هذا المقام.

أولاً: أثر الاختلافات الاعتقادية والسياسية على المذاهب الفقهية:

من المعلوم أن أكثر المذاهب الاعتقادية التي يعبر عنها بالفرق، بادت بعد أن انتشرت وسادت، فالمرجئة والجهمية والقدرية والمجسمة والحشوية، وحتى المعتزلة، ما كادت تعبر عن ذاتها وأفكارها بالجدل هنا وهناك حيناً من الوقت، حتى أخذت تضمحل ثم

تذوب في تيار العقيدة الإسلامية الكبرى المتمثلة فيمن يُسَمَّونه بأهل السنة والجماعة.

ولا يخفى أن الفضل في ذلك يعود إلى إمامين جليلين ظهراً في عصر واحد، أحدهما الإمام أبو الحسن عليّ بن إسماعيل الأشعري (٢٦٠-٣٣٠)، وثانيهما الإمام محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي (٠٠٠-٢٦٨).

إن أياً من هذين الإمامين لم يكن صاحب مذهب أو نحلة، أو داعياً إلى أي بدعة جديدة. بل انحصر عمل كل منهما في الانتصار لكتاب الله وسنة رسوله، وفي السعي الدؤوب للعودة بالمسلمين إلى ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، بعيداً عن سائر البدع والأهواء المستحدثة.

وقد كانت جماعة الفقهاء والمحدثين والمشتغلين بالتفسير في الحجاز وبلاد الشام والعراق قد اعتزلوا الخصومات التي ارتفع أوارها بين تلك الفرق المبتدعة المتهارجة، ومضى كل منهم يعكف على ما تفرغ له من حديث أو فقه أو تفسير.

الظاهرة الأولى: المذهب الإباضي، ونحن نعلم أن الإباضية هي الفرقة المتبقية من ست فرق تشكل جلّ من يسمون بالخوارج، أما الفرق الخمس الأخرى فقد تاب كثير منهم، ورجعوا عن ضلالتهم بحكمة سيدنا علي رضي الله عنه في محاورته لهم، واتساع صدره معهم، وقضى على سائرهم ممن أبى إلا التكفير والقتال.

وفرقة الإباضية هذه، أقل الخوارج شططاً وغلواً، وأكثرهم ورعاً والتزاماً. وقد كان المفروض أن تبقى أفكارهم الفقهية التي اختصوا بها، محصورة في النقاط المتعلقة بالأمور الاعتقادية الخاصة بهم. غير أنهم تجاوزوا ذلك إلى إقامة بنيان فقهي خاص بهم، وظهرت لهم المؤلفات بل الموسوعات الفقهية التي تعبر عن شخصية فقهية خاصة للفرقة الإباضية.

والراجح الذي تسكن إليه النفس أن فقهاء المذهب الإباضي، لو لم تكن أفكارهم الاعتقادية والسياسية قد شكلت منهم جماعة مستقلة، لكانوا اليوم تلامذة، بل فقهاء بارزين تتوازعهم المذاهب الفقهية الأربعة.

ولكن جذورهم الفكرية الاعتقادية، أبت عليهم إلا أن تكون لهم شخصية فقهية مستقلة هذا مع العلم بأن جل آرائهم الفقهية لا تخرج، لدى تمحيص النظر فيها عن دائرة المذاهب الأربعة.

إن الأثر السلبي الذي لا يغيب عن بال أحدنا لهذه الظاهرة، أن الشاب الإباضي يحسب، وهو يرى أمامه مذهباً فقهياً خاصاً بالإباضية، أن مذهبه الاعتقادي الموروث يفرض عليه أن لا يتخذ من دون مذهبه الفقهي مذهباً، ومن ثم فهو ينظر إلى سائر الاجتهادات الفقهية الأخرى، على أنها غير صالحة له ولا تتفق مع مذهبه الاعتقادي أو السياسي.

إلا أن الأمر في واقعه العملي، مخالف تماماً لهذا التصور. فإن المصادر المعتمدة لاستنباط الأحكام الفقهية، مستقلة كل الاستقلال عن الأدلة المعتمدة في آرائهم الاعتقادية، لا سيما الإباضية، الذين لا نكاد نجد فرقاً بينهم وبين جمهور أهل السنة في جل الأحكام الفقهية الاجتهادية.

الظاهرة الثانية: المذهب الشيعي الذي تفرعت عنه مذاهب فقهية متعددة، من أبرزها مذهب الإمامية، والزيدية، والهادوية... إلخ.

ولسنا الآن بصدد بيان الفروق القائمة بين هذه المذاهب التي تؤول بجملتها إلى مذهب واحد، ولكن الذي يهمنا في هذا الصدد أن نتساءل عن علاقة البنية الفكرية والعقائدية لمذهب الشيعة عموماً بالمنهج المقرر عندهم في الاجتهادات الفقهية..!

إن كلاً من الإمام محمد الباقر، وابنه جعفر الصادق، وزيد بن علي رضي الله عنهم جميعاً، من أبرز أئمة الفقه الشيعي اليوم. وما من مسألة فقهية في مذهب الشيعة إلا وتنسب إلى واحد من هؤلاء الأئمة الثلاثة.

غير أننا عندما نعود إلى أصول الاجتهاد الفقهي، المعتمدة عند هؤلاء الأئمة الأعلام، لا نجد أيّ فرق بينها وبين الأصول الاجتهادية المتبعة لدى سائر الفقهاء، لا سيما أئمة المذاهب الأربعة. بل لقد كان بين هؤلاء الأئمة الثلاثة وأئمة المذاهب الأربعة، من التفاعل والتعاون ما يؤكد أنهم كانوا ينهلون من مصادر فقهية واحدة، ومن ثم فقد كانوا جماعة بل كتلة فقهية واحدة. ولقد لقي أبو حنيفة كلاً من زيد بن علي، ومحمد الباقر وجعفر الصادق فدارسهم وأخذ منهم. ووافقهم في حب آل البيت والتعلق بهم، ووافقوه في تقدير الخلفاء الثلاثة واحترامهم وعدم ذكرهم بأيّ سوء.

ولقد لقي الإمام مالك إمام دار الهجرة جعفر الصادق رضي الله عنه وأخذ عنه وكان يذكره بأحسن ما يذكر طالب شيخه.

روى السيوطي في تزيين الممالك أن الإمام مالكاً قال: "كنت آتي جعفر بن محمد، وكان كثير المزاح والتبسم، فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم، اخضر واصفرّ، ولقد اختلفتُ إليه زماناً فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصلياً، وإما يقرأ القرآن، وإما صائماً، وما رأيته قط يحدث عن رسول الله إلا على طهارة، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء العباد الزهاد، وما رأيته قط إلا ويخرج الوسادة من تحته، ويجعلها تحتي...".

إذن، فقد كان المنهل الفقهي وأصول الاجتهاد عند هؤلاء جميعاً واحدة، وكانوا يتلاقون على خدمة الشريعة الإسلامية وتجلية أحكامها، أسرةً علمية وإسلامية واحدة.

وقد كان من مقتضى ذلك أن لا ترى اليوم للشيعة، إمامية أو زيدية كانوا، مذهباً فقهياً خاصاً يستقلون به، غير أن الواقع الذي آل إليه الأمر أخيراً خلاف ذلك فإن للشيعة اليوم مذهباً فقهياً خاصاً بهم، بالإضافة إلى مذهبهم الاعتقادي، أو السياسي الذي تفردوا به.

وإن أحدنا ليسأل: كيف أمكن أن يتكون للشيعة فقه مستقل وخاص بهم، مما زادهم انشطاراً واستقلالية عن جمهرة أهل السنة والجماعة، مع ما نعلمه يقيناً بأن كلاً من زيد بن علي ومحمد الباقر وجعفر الصادق - وهم ركائز ومصادر ما يسمى اليوم بالفقه الشيعي - كانوا أساتذة لأكثر أئمة المذاهب الأربعة، إن لم نقل أنهم كانوا أساتذة وشيوخاً لهم جميعاً ولم نعثر بعد طول البحث والتحقيق، على أي تحفظ فكري أو مذهبي من أي الطرفين للآخر، بل إننا لنسأل: ما الذي حال دون استمرار هذه الوحدة المذهبية إلى اليوم..؟

أغلب الظن أن الشخصية الفقهية للشيعة، نشأت فيما بعد، مع الزمن، وإنما نشأت ظلاً لشخصية التشيع وآثاره وذيوله، وهذا ما لم يكن موجوداً في عهد أولئك الأساطين الثلاثة في القرون الثلاثة المباركة التي أثنى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإن كان لذلك عامل آخر، فهو إذن هذا العامل الثاني الذي سنتكلم عنه والذي يشكل في الوقت ذاته الآفة الثانية من الآفات التي لحقت المذاهب الفقهية.

ثانياً: إخضاع فن الرواية وعلم الجرح والتعديل لشرط العصمة:

وإنما اشترطها الشيعة في الأصل لصحة الإمامة، سواء منهم من يرى أن الإمامة محصورة في أولاد فاطمة رضي الله عنها بالنص عليهم واحداً إثر آخر، أو من يرى أن مساق الخلافة في أولادها ولكن باختيار الشيوخ ولهم على ذلك أدلتهم التي يسوِّقونها.

غير أنهم، أو كثيراً منهم، سحبوا هذا الشرط إلى فن الرواية والجرح والتعديل، فجعلوا من جملة شروط قبول الرواية أن يكون الراوي من آل البيت، ولعلهم إنما يشترطون ذلك تلمساً لمزية العصمة في الرواة. إذ لو لم يُفْتَرَض انفراد آل البيت بها لما كان ثمة أي معنى لاشتراط كون الرواي من آل البيت.

إن اعتبار هذا الشرط، ووضع الشيعة له فيما بعد موضع التنفيذ، كان لا بّد أن يفرد الشيعة بمنهج مستقل في فهم الحديث الصحيح، وشروط الأخذ به، ومن ثم فقد كان لا بّد أن ينبثق لهم من ذلك فقه خاص بهم يعتمد على أحاديث خاصة بهم.

ونحن لا نريد هنا أن نناقش هذا الشرط الذي فرضوه، في الأصل لصحة الإمامة غير أن نوضح أن أياً من أئمة آل البيت رضي الله عنهم،

وفي مقدمتهم أولئك الأعلام الثلاثة لم يقتصر في أخذه الحديث على آل البيت.

بل روى عنهم وعن عامة الصحابة، وعن كثير من التابعين، كإبراهيم بن سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن المسيب، وعبيد الله بن أبي رافع..! كما أن آل البيت لم يكونوا هم المنفردين بالرواية عن كل منهم، بل التقى على الرواية عنهم والأخذ منهم جمهرة أهل السنة والجماعة من آل البيت وغيرهم.

فكان من آثار ذلك أن اتحد سبيل الاجتهاد الفقهي فيما بينهم وانطلقت موازينه من رؤية وأصول واحدة. إذن فما المبرر لهذا الانشطار الذي ظهر فيما بعد؟ ومن أين انبثقت ضرورة عدم أخذ الحديث إلا من آل البيت، وحصر الرواية فيهم؟

تعصب اتباع المذاهب لمذاهبهم:

نشأت هذه العصبية في القرون المتأخرة، ولعلها زادت واستشرت في أواخر عهد الخلافة العثمانية، إذ كان المذهب الحنفي هو المعتمد من قبل الدولة، ومن ثم فقد كان هو السائد في أكثر المناطق لنفوذ الأتراك.

ولعل أتباع المذهب الحنفي هم أول من أظهروا العصبية لمذهبهم، فألحقوا به ذيولاً من الأحكام التي لم تكن معروفة من قبل كتحريم الانتقال من المذهب الحنفي إلى غيره، وإخضاع من يفعل ذلك لنوع من التعزيز، وكالتشنيع على الاجتهادات الفقهية عند بعض المذاهب الأخرى، في كثير من حواشي المتأخرين، حيثما مرت لذلك مناسبة، ولعل متأخري الحنفية هم أول من ابتدعوا إنشاء عدد من المحاريب في المسجد الواحد، بقدر عدد المذاهب المنتشرة في تلك المنطقة، وكان ذلك تمهيداً لتنظيم أربع جماعات في المسجد الواحد لكل صلاة، وإيعازاً بحرمة اقتداء الشافعي بالإمام الحنفي والعكس، ولقد انتشرت هذه العادة فعلاً في البلاد التي ينتشر فيها أكثر من مذهب واحد كبلاد الشام والعراق. وفي المسجد الأموي بدمشق يوجد إلى

الآن أربعة محاريب لأربعة مذاهب، ولكل منها إمام راتب يفترض أن لا يقتدي به إلا من هم على مذهبه.

هذا مع العلم بأن الإجماع منعقد على صحة اقتداء المصلي بالإمام الذي ينتمي إلى مذهب مخالف لمذهبه، ما دام أنه غير متأكد من أن الإمام متلبس بما يبطل الصلاة في مذهب المقتدي على أن هذا في حق من كان لديه من الثقافة الفقهية ما يجعله أهلاً لاتباع مذهب فقهي بعينه فأما عوام الناس، فإن مذهب أحدهم إنما هو مذهب الإمام الذي يقتدي به.

ومن الطبيعي أن ينشأ عن هذا التعصب ردود فعل من جنس المشكلة ذاتها لدى أتباع المذاهب الأخرى، وقد ظهرت ردود الفعل هذه في مظاهر متعددة.

فمنها اعتداد كل صاحب مذهب بمذهبه، إلى درجة الاستهانة والانتقاص من المذاهب الأخرى، وهكذا، فبعد أن كان الخلاف بين أئمة هذه المذاهب خلافاً تعاونياً كما قلنا، تحول الخلاف بين أتباعها في كثير من الأحيان إلى تنافس وتخاصم واتهام.

ومنها الركون إلى المماحكات والمجادلات المؤلمة والجارحة، في جزئيات فقهية مما وقع فيه الخلاف، كإسبال اليد وعدم إسبالها في الصلاة، وكالقنوت أو عدم القنوت في صلاة الفجر وكقضاء الصلاة الفائتة أو عدم قضائها، وكمشروعية أو عدم مشروعية جلسة الاستراحة في الصلاة...إلخ، فبعد أن كانت هذه المسائل توضع في أماكنها من الاعتبار ضمن سلّم الأولويات، عند الأئمة والفقهاء السابقين، وكانوا يمرّون باجتهاداتهم عندها، دون أن يستشعر أحدهم بأيّ وقع لاختلافاتهم فيها، إلى درجة أن الإمام الشافعي أمسك عن القنوت في صلاة الصبح في مسجد أبي حنيفة ببغداد، ولما سئل عن ذلك قال: أدباً مع صاحب هذا القبر. أقول بعد أن كان هذا هو موقف الأئمة السابقين من هذه المسائل الجزئية، خلف من بعدهم خلف يتباهون بآرائهم الشخصية في هذه المسائل، ويجعلون منها عصيّ تأديب، واتهام لكل من خالفهم فيها، ولا يبالون أن يثيروا أخطر أنواع الشجار فيما بينهم، وربما داخل المساجد، لينتصر كل منهم لنفسه في ساحة هذه الجزئيات التي ليست لها أي أهمية في ترتيب سلّم الأولويات.

ومن أسوأ ما أفرزته هذه الخصومات التي بلغت في كثير من الأوقات إلى درجة اللكم و الصفع في داخل المساجد، كتاب أصدره أحدهم بعنوان "الأزهار الفواحة في سنة جلسة الاستراحة".

وواضح جداً لكل ذي وعي من الناس أن هذا الخصام الشديد الذي يمزق وحدة المسلمين إرباً، ليس انتصاراً لدين الله من خلال هذه الجزئيات الصغيرة التي يسع المسلم أن يتقرب إلى الله بفهمها على الوجه الذي يريد، بل يسعه أن لا يلتزم بها أصلاً، وإنما هو انتصار في الحقيقة للنفس على حساب مصلحة الدين، بل في مقابل القضاء على أقدس ما جاء الإسلام لتحقيقه ثم لحمايته، ألا وهو وحدة هذه الأمة وتضامنها.

ولعل هذه الظاهرة التي نعاني منها اليوم، هي أبلغ وأخطر ما قد وصلت إليه العصبية المذهبية، بل عصبية الاختلافات الفقهية عموماً، في حياة المسلمين.

وليكن محور حديثنا في معالجة هذا الموضوع البحث عن منهج لتعايش أفضل بين المذاهب الإسلامية على اختلافها.

إن المنهج السليم إلى هذا التعايش، يمكن العثور عليه، **من خلال العمل على تنفيذ النقاط التالية:**

النقطة الأولى: الانطلاق من خطوة تأسيسية لا بّد منها، هي الإخلاص في كل من القصد والعمل لله عز وجل.

والحديث عن الإخلاص لله تعالى يحفّ به أكثر من مشكلة واحدة.. من ذلك ما هو معروف من أن شرط الإخلاص لقبول الأعمال وصلاحيتها، من البدهيات التي لا يجهلها أحد، والتي لا ينكر أهميتها أحد. فكأن الحديث عنه يغدو، والحالة هذه، تحصيلاً لحاصل، أو اتهاماً للمسلمين العاملين في الحقل الإسلامي أو لكثير منهم، بالإعراض عن أجلّ بدهية من بدهيات الدين..! ومن ذلك أن الإخلاص من أجلّ أعمال القلب، فهو أمر خفي لا يعلم بوجوده أو عدمه في سريرة الإنسان إلا الله عز وجل، ومن ثم كانت إحالة المصائب والآفات التي تحيق بالمجتمع الإسلامي على الرغم من أنشطته وتحركاته، إلى غياب الإخلاص لله تعالى عن القلوب، اتهاماً كبيراً يوشك أن يكون عارياً عن الدليل عليه، فما أيسر أن يتبرأ الموصوم بذلك عن هذه التهمة، بل ما أيسر أن يرمي الذي يصمه بها

بأنه قد تجاوز الظاهر الذي لا حق له في تجاوزه، إلى الباطن الذي لا سبيل له إليه، إذ لا يطلع عليه إلا الله عز وجل.

أقول: فلو التفتنا إلى هاتين المشكلتين بالنظر والاهتمام، لكان علينا أن نمسك عن الخوض في أمر الإخلاص وبيان أهميته، والتحذير من التساهل فيه، كي لا يحرج الناصح نفسه، ولكي لا يتهم الآخرين بدون دليل.

ولكن العلماء الربانين كانوا ولا يزالون يتحدثون عن أهمية الإخلاص وضرورته، ويؤكدون أنه الروح التي يجب أن تسري في جميع الطاعات والأعمال التي يفترض أن يُتقرَّب بها إلى الله، فإن غابت هذه الروح، عادت الأعمال كلها أشباحاً لا قيمة لها، وركاماً لحطام لا فائدة منه.

ونحن إنما نسلك مسلك هؤلاء العلماء، فنذكر بضرورة الإخلاص لله تعالى، دون اتهام ونحذر من عواقب استخدام الطاعات والقربات للمغانم والرغائب الدنيوية، دون أن ندعي أن فينا من يفعل ذلك.

ونقول: لأن الذي يجعل من الشعارات الإسلامية الكثيرة، ومن مظاهر أنشطته المتنوعة الوفيرة، ما يشبه في خمودها، وجمودها وعدم

جدواها، المدينة المسحورة، إنما هو غياب سرّ الإخلاص عنها، نقول ذلك، دون أن نشير بأي من أصابع الاتهام إلى أحد، كي لا تهتاج الحساسية النفسية بين جوانح أي منا، فيندفع إلى ردّ هذه التهمة عن نفسه، موهماً أن التوجه بمثل هذه التذكرة يدخل في باب النصيحة المتعالية، والإرشاد الذي لا مجال ولا معنى له بين الأنداد في مثل هذا المقام. وقد اهتاجت هذه الحساسية في لقاء مماثل يوماً ما، من قبل.

وعلى كلٍ فإن مما لا ريب فيه، أن وجود الإخلاص لله تعالى في المقصد الاعتقادي، وفي المناهج السلوكية، يقطع السبيل على العصبيات المذهبية، ويبعد الخلافات الاجتهادية التي لا مندوحة عنها من الآفات المتنوعة التي قد تتسرب إليها، وإن مما لا ريب فيه أيضاً أنه إن لم يتحقق هذا المنطلق الأساسي الذي لا بّد منه، فإن الالتزام ببقية خطوات المنهج الذي نتحدث عنه يغدو أمراً عسيراً، وإن تيسر تحقيقها فلن تجدي شيئاً ولن تحقق شيئاً من أهدافها.

النقطة الثانية: الاحتكام إلى قاعدة إذا اجتهد المجتهد فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد.

ومن المعلوم أن هذا الكلام قبل أن يصبح قاعدة شرعية ثابتة لها أثرها في مجال الرأي والاجتهاد، حديث نبوي صحيح متفق عليه.

ولفظه فيما اتفق عليه الشيخان وأحمد وأبو داود وابن ماجه من حديث عمرو بن العاص: (إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فأجتهد فأخطأ فله أجر واحد).

ومن المعلوم أيضاً أن خصوصية الحاكم هنا ساقطة عن الاعتبار، كما قال العلماء أي ليس لها مفهوم مخالف، إذ الملاحظ في الحاكم هنا وضعه الاجتهادي، وهو ينطبق على حال كل مجتهد.

إن الذي ندركه من مدلول هذا الحديث النبوي الذي غدا قاعدة ذات أثر كبير في أمور العقيدة والقضايا الفقهية والعلاقات الأخلاقية، أن سائر الخلافات المذهبية التي تبرز داخل دائرة العقائد الإسلامية الجامعة أو الفروع الفقهية، بدافع من الإخلاص لوجه الله عز وجل، تظل مكلوءة بنعمة الرضا من الله تعالى، وعائدة بالأجر الوفير منه عز وجل، ما دامت المسائل التي وقع الخلاف فيها اجتهادية، وما دام أئمة هذه المذاهب يتمتعون بمزية ويرتؤون ؟.

غير أن الآفة التي تتربص بهذه القاعدة، العصبية التي يحتكر بموجبها صاحب المذهب وجه الحق في المسألة الخلافية، لما قد هداه إليه رأيه الاجتهادي دون غيره، فيسفه سائر الآراء الاجتهادية الأخرى في تلك المسألة، ويلغي بذلك القاعدة النبوية التي فسحت المجال، بإخبار من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أمام سائر المجتهدين الذين فرقتهم اجتهاداتهم من تلك المسألة في طرائق متعددة، لبلوغ الرضا والأجر من الله عز وجل.

وسبيل التخلص من هذه الآفة، أن نعود إلى المسألة الخلافية فنتذكر أو نؤكد أنها من المسائل الاجتهادية، التي لا يمكن أن يتعرض العلماء المختلفون بشأنها لأي فسوق أو ضلال أو كفر، من جراء اختلافهم فيها.. فإن تذكرنا وأكدنا ذلك، سلكنا الاجتهاد فيها سبيل العبد الذي لا يبتغي بعمله إلا الوصول إلى مرضاة الله، موقنين أن إخواننا الآخرين الذين يتمتعون بالمزية الاجتهادية ذاتها، يسلكون في اجتهاداتهم السبيل ذاته، ويتبعون الغاية ذاتها. فأنى للعصبية عندئذ أن تجد سبيلها إلى هؤلاء الإخوة الذين جمعهم السعي إلى مرضاة الله، وأنى لوساوس

الشيطان أن تثبت في ذهن كل منهم بأن الحق في تلك المسألة ليس إلا ما قد هُدي هو إليه ..؟

وعى الرغم من أن هذا السبيل للتخلص من هذه الآفة ميسر ومفتوح، فإنها كثيراً ما تفعل فعلها الممقوت في تقطيع صلة القربى بين الإخوة المجتهدين، ولا ريب أن مرد ذلك في الغالب إلى العصبية للرأي، بل للذات.

وعلى سبيل المثال: إن مقتضى هذا السبيل، أن لا يُستجرَّ أتباع مذهب إسلامي أياً كان إلى مذهب آخر، فلا يستجر شيعي ليصبح سنياً، ولا العكس، ولا يفتن زيدي عن زيديته ولا إباضي عن إباضيته.

ولكن ما أكثر ما تُنسي العصبية للرأي وللذات أصحابها هذه الحقيقة، ففي شمال سورية وفي جنوبها مثلاً أناس حملوا على التشيع بوسائل شتى. ترى هل حصل العكس أيضاً ؟ لقد تتبعت وبحثت، فلم أعثر بحمد الله على أثر لذلك.

وفي أتباع المذاهب الفقهية اليوم، من تحرفهم هذه العصبية ذاتها، فينسون أو يتناسون أن أئمة هذه المذاهب أدَّوْا في اجتهاداتهم الفقهية التي انتهوا إليها ضريبة العبودية لله، سواء فيما اتفقوا عليه من ذلك أو

فيما اختلفوا فيه. فكان لعامة المسلمين من بعدهم أن يتبعوا من شاؤوا منهم معذورين ومأجورين.

النقطة الثالثة: ضرورة مزيد من الاهتمام بدراسة الفقه المقارن، من حيث العمق العلمي والاتساع الشمولي:

إن دراسة الفقه المقارن تعني دراسة أسباب الخلاف بين أئمة الشريعة الإسلامية، ولا ريب أنها إن أوليت العناية التامة، ودرست دراسة علمية معمقة، تشمل أكثر أبواب الفقه، تحقق فوائد وآثاراً إيجابية شتى، من أهمها أنها تكشف عن قوة المدرك العلمي، الذي استند إليه كلٌّ من الأئمة الذين اختلفوا في بعض المسائل والأحكام الفقهية، ومن ثم فإن المستعرض لدليل كل منهم يدرك أنهم جميعاً على حق، أي أن كلاً منهم اعتمد فيما انتهى إليه، على حجة قوية دامغة من وجهة نظره، على أقل تقدير، وبذلك يكون قد أعذر أمام الله عز وجل، وإنها لأفضل طريقة علمية وتربوية للقضاء على أسباب العصبية للمذهب.

ولكني ألاحظ - ويا للأسف - أن الإخوة الذين يجنحون إلى ركن ركين من العصبية المذهبية وأكثرهم حنابلة من سكان الجزيرة العربية

- لا يقيمون وزناً لهذا المقرر العلمي الهام ولا يعيرونه أي التفاتة، وكيف يلتفون إلى ما لا وجود له في اعتبارهم، أو إلى ما لا قيمة له في تصورهم ..!

إنني بمقدار ما أدعو عوام الناس إلى التقيد بمذهب ما من المذاهب الفقهية المدونة، أحذرهم وأحذر مرشديهم من التعصب للمذهب الواحد. ذلك التعصب الذي من شأنه أن ينسخ المذاهب الفقهية كلها بالمذهب الواحد، وأن يسفه القائمين بواجباتهم الاجتهادية التي كلفهم الله بها، وأن يهدد المثوبة التي بشرهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، سواء لمن أصاب منهم الحق أو لمن تنكب عنه.

إن خير ما يقضي على هذا التعصب، ويقضي على شرته، بعد الإخلاص لوجه الله، الاطلاع على أسباب الخلاف بين المذاهب، وقد أفاض في بيان هذه الفائدة وأجاد العالم الجليل: الإمام الشاطبي في كتابه "الموافقات" والشاه ولي الله الدهلوي في كتابه "حجة الله البالغة".

النقطة الرابعة والأخيرة: ضرورة التنبه إلى أخطر الأسلحة التي يحارب بها الوجود الإسلامي في بلاد الشام.

إنه يتمثل في سلاح واحد لا ثاني له، ألا وهو سلاح القضاء على البقية الباقية من وحدة الأمة الاسلامية، والجسور الاعتقادية، الواصلة ما بين فئاتها وأفرادها.

ولقد كان هذا السلاح خفياً، فيما مضى، على الرغم من شدة اعتماد محترفي الغزو الفكري عليه، ولكنه غدا بيناً مكشوفاً في هذه السنوات الأخيرة، فلقد أخذت سلسلة الوثائق الشاهدة على ذلك تظهر وتتوالى دون أي استخفاء أو تحفظ من أصحابها والمنفذين لوصاياها.

فمن ذلك التقرير الصادر عام ١٩٩١ من مجلس الأمن القومي الأمريكي، فقد تضمن شطره الأول بيان خطورة الإسلام على الحضارة الغربية بشطريها، الأوروبي والأمريكي، وتضمن شطره الثاني البنود التي يجب أن تنفذ للقضاء عليه في مهده، وتجفيف معينه.

أول هذه البنود: إثارة التناقض في مضمون الأفكار والعقائد الإسلامية..! على حد تعبير التقرير،

ثانيهما: تأليب المسلمين بعضهم على بعض..!

ثالثهما: تحويل العمالة الإسلامية في دول الخليج العربي، إلى عمالة آسيوية...إلخ.

ومن ذلك التقرير الذي رفعه "وليم كليفورد"، مبعوث هيئة الأمم المتحدة، مراقباً، إلى سلسلة المؤتمرات التي عقدتها الجامعة العربية في أواخر السبعينات، من القرن الماضي، للدفاع الاجتماعي ضد الجريمة، إلى هيئة الأمم المتحدة، وإلى المؤسسات الخفية المعنية بشأن الإسلام ومراقبة سيره وأنشطة قادته ورجاله. وهو أخطر ما وقع في يدي في تقرير يتحدث عن خطر الإسلام على الغرب، ويضع المنهج الأمثل لتفتيته والقضاء على البقية الباقية من وحدة رجاله وقوتهم وغناهم، أسباب تماسكهم وتنامي معتقداتهم.

ومن ذلك المقال الذي نشرته مجلة foreign Affairs، لسان حال وزارة الخارجية الأمريكية في عدد تشرين الثاني من عام ١٩٩٢، عن خطر الإسلام، وضرورة القضاء عليه، وأفضل الطرق إلى ذلك، وهو تقطيع جسور التواصل والتضامن بين الدول العربية التي هي المصدر الأول للخطر الإسلامي، ثم العمل على إيجاد أكبر قدر من التشاكس بين شعوب المنطقة وحكامها، بحيث يسودها القلق والاضطراب، وتنأى عن الهدوء والاستقرار.

إذن، فالمسلم اليوم، على ضوء هذه الحقيقة، لا يعدو أن يكون أحد رجلين:

صادق مع الله في إسلامه، إذن فلابّد أن يسعى سعيه جهد استطاعته على سد الثغرات المصطنعة بين فئات المسلمين ومذاهبهم، ومدّ المزيد من جسور التآلف والتضامن والتعاون فيما بينهم.

أو متبرم بإسلامه كاذب بانتمائه إليه، فما أيسر أن يكون هذا وأمثاله، جنوداً وجهوداً مجهولين أو معلومين للساهرين على وضع المخططات المتتالية للقضاء على الإسلام وأهله، ينفذون خططهم، ويبعثون المزيد من أسباب الشقاق فيما بينهم، ويوقظون عوامل الفتنة فيما بينهم، لأتفه الأسباب التي كان المسلمون من سلفنا الصالح يغمضون العين عنها، ويجعلونها فداء لوحدة الأمة وجمع شملها وشدّ آصار ما بينها.

فاللهم اجعلنا وقومنا، من المسلمين الصادقين معك والمخلصين لك، ولا تجعلنا من الذين يخادعونك في دينك، ويمتطون من إسلامهم مطية ذلولاً إلى عصبياتهم ومصالحهم.



الفصل الثاني:
آفة الإسلام السياسي، وخطره على الإسلام

المبحث الأول: الإسلام السياسي، نشوء الفكرة وأهدافها

السياسة لغةً: إدارة الأمور بحكمة.

السياسة اصطلاحاً: تجنيد العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وغيرها ابتغاء الوصول إلى الحكم، أو ابتغاء مصلحة من مصالح الإدارة والحكم.

ومن أبرز خصائص السياسة القائمة في مجتمعاتنا اليوم شرعنةُ كلِّ الوسائل التي تحقق أهداف السياسيين، فهي تتبع ما يُسمى مبدأَ "الذّرائِعيَّة" الذي وضعه "وليم جيمس"، ويبرّر للإنسان أن يَسلُكَ إلى غايته السبيلَ الذي يشاء، بِغَضِّ النَّظر عن شرعيَّته، وهذه خاصّة سلبية تَتَّسم بها – للأسف – السياسة المعاصرة.

ما هو مفهوم السياسة في الإسلام ؟

لـمّا هاجر رسول الله ﷺ تكاملت للمسلمين أركانُ الدولة الثلاثة وهي: الأرض، والجماعة التي تعيش فوق هذه الأرض، والدستور الذي تمثّله الوثيقة التي كتبها النبي ﷺ تنظيماً لعلاقة المسلمين فيما بينهم وعلاقتهم مع أهل الكتاب في المدينة.

ما هو مفهوم الإسلام السياسي ؟

الإسلام السياسي: كلُّ رُؤيَةٍ سِياسيَّةٍ تَنبعث من فِكرِ فِئةٍ من الناس، ثمّ تُصْبَغ بِصِبغةِ الإسلام، ولو عن طريق تَرقِيعِ الأَدلّة، بغية تحقيق أهداف سياسية لا علاقة لها بالإسلام.

فصاحبُ هذه الرؤية يَقوم باستغلال العَاطِفَةِ الإسلامية للناس، فإذا بِهم يَتَّجهون إليه بالتقدير، وينهضون به إلى الحُكم بِأقصر طريق، وهذا العَملُ لا شَأنَ لصاحبه بالإسلام، وإنما هو عِبارةٌ عن إنسان يَمتطي صَهوةَ الإسلامِ لِيُوصِلَهُ إلى مَا يَشاء. والدّليل على ذلك أنه لا يَتَورَّع عن مخالفة أحكام الشريعة الإسلامية وصولاً إلى غايته المنشودة، وَيُغطي ذلك بما يَشاء من الأحابيل والاجتهادات التي لا وجه لها، لِيَتحوَّل الدِّين بذلك إلى خادمٍ وإلى سُلَّمٍ يُسْتَخْدَمُ لِلبلوغِ إلى الأماني السياسية المتنوعة المختلفة. بينما الإسلام في حقيقته يَأمُرُ وَيَنهى، الإسلامُ يَأمر بالسياسة السليمة الإنسانية التي بَيَّنَهَا لنا اللهُ فِي مُحكم تِبيانه، وَشرحها لنا رسول الله ﷺ في الصحيح من حديثه، لكن ما يَنبغي أبداً أن نُنزِّلَ الإسلامَ مِن عَليائه ؛ لنجعله خادماً لأهدافنا وأحلامنا السياسية.

يقول بعض قادة الإسلام السياسي بأن تطبيق الشريعة الإسلامية لا يُمكن أن يَتمَّ إلا بعد بلوغ الحكم، وبعد الإمساك بنواصيه، وعندما

نَصل إلى الحُكم وَنُمسك بزمامه فإنّ بوسعنا عندئذٍ بكل سهولة أن نطبق الإسلام.

أرأيتم إلى هذا الفَخّ ! يَتصور هؤلاء أن شأن الإسلام وتنفيذه كشأن المذاهب السياسية عندما يسعى السياسيون إلى تنفيذها، أناس يتبنون الاشتراكية ؛ يُنفذونها عندما يَصلون إلى الحكم، ليبراليون يُنفذون ليبراليتهم عندما يَصِلون إلى الحكم، دون البحث عمن اقتنع وعمن لم يقتنع، هل الإسلام هكذا ؟ الإسلام مُعتَقَدٌ يَسري إلى العقل عن طريق العلم، ثم هُوَ حُبٌّ يَسري إلى الفؤاد ؛ تَعظيماً لحرماتِ الله وَحُباً له ومخافة ومهابة منه، والدعوة إلى الله عز وجل بين الناس على الأرض لا أن تبتغي محادثتهم على كرسي الحكم.

لماذا يَرعى الغرب اليوم الإسلام السياسي والإسلام الـمُتطرّف؟

في البداية لا بُدَّ مِن التَّوضيحِ أَنَّهُ لا يُوجَدُ فِي الحَقيقة إِسلامٌ مُعتدل وإسلام مُتطرِّف، فالإسلام واحدٌ، وهو الإسلام الفِطريّ السليم الذي يَرعى مَصالحَ الأمة فرداً وجماعة.

بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ازداد تَخوّف الغَربِ مِنَ الْمَدِّ الإسلاميّ، ولعلّ أوّل تَصريح يَكشف عن الحجم الحقيقي لهذه المخاوف تلك الكلمات التي نقلتها إذاعة لندن في بَثِّهَا العَربيّ عن لسان "**مارغريت تاتشر**"، مساءَ اليوم الثالث من شهر شباط عام ١٩٩٠، في

برنامج الشؤون العربية في الصحف البريطانيّة، تقول فيه: "كان أمام الغرب عَدُوَّان اثنان: الشيوعية والإسلام، وقد تمَّ القضاء على العدوّ الأول دُون أن يُقدِّم الغَرب في سبيل ذلك خسائرَ تُذكر".

وقد رأى الغربُ أنّه لا مَصلحة له في معاداة الإسلام المتطرّف، لأنّه انتهى إلى قرارٍ يَقضي بأن الشيءَ الذي يُفقِد الناسَ الثقةَ بالإسلام هو أن يَجِدُوا أمامهم على مسرح الأحداث الإسلاميّة إسلاماً يُثِيرُ الرُّعبَ وَيُعَبِّر عن وحشيّةٍ بربريّة.

فالإسلام الفطريّ الذي سرعان ما يَتَقَبَّلُهُ أصحاب الفكر الموضوعي هو الذي يُحارَب، والسبيل إلى هذه الحرب هو فَتحُ الباب واسعاً للإسلام السياسيّ، وللجماعاتِ الـمُتَطرِّفة التي تَستبيحُ لِنفسها القتلَ والذّبح والتخريبَ تحت راية "لا إله إلا الله"، وتحت اسم "الجهاد في سبيل الله"، وتسليطُ هذه الجماعات على المجتمعات الإسلامية الوسطية.

كان الإسلام يُقاتَل من خلال عدو خارجي لا شأن له بالإسلام، أما اليوم فالإسلام يُخنَق بحباله، ويُحارَب بسلاحه وبشعاراته.

وهذا ما يُفسِّرُ لَنا، لماذا يتبنى الغربُ الحركة الإخوانيّة، أمريكا اليوم هي التي تُعَبِّدُ الطريق أمام الحركة الإخوانية في مصر، وأمام الأنشطة الإخوانية في أماكنَ أخرى، بل بكلمةٍ أدقّ إسرائيل هي التي

تفعل ذلك، لكي تُجهِضَ التَّوَجُّهَ الذي هَيمن على أذهان كثيرٍ من الناس في أن الإسلام هو الذي يَرعى مصالحَ الأمة، ويضمن سعادة الفرد والمجتمع.



المبحث الثاني:

من الأحاديث التي تنهى عن الخروج على الإمام

- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ، فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخَرِ»، فَدَنَوْتُ مِنْهُ، فَقُلْتُ لَهُ[1]: أَنْشُدُكَ اللهَ آنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَأَهْوَى إِلَى أُذُنَيْهِ، وَقَلْبِهِ بِيَدَيْهِ، وَقَالَ: «سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ، وَوَعَاهُ قَلْبِي»، فَقُلْتُ لَهُ: هَذَا ابْنُ عَمِّكَ مُعَاوِيَةُ، يَأْمُرُنَا أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ، وَنَقْتُلَ أَنْفُسَنَا، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) هو عبد الرحمن بن عبد ربّ الكعبة عندما سمع من عبد الله بن عمرو بن العاص.

لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] قال: فسكت ساعةً، ثُمَّ قَالَ: «أَطِعْهُ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَاعْصِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ»[١].

قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا بِشَرٍّ، فَجَاءَ اللهُ بِخَيْرٍ، فَنَحْنُ فِيهِ، فَهَلْ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: هَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الشَّرِّ خَيْرٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: فَهَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: كَيْفَ؟ قَالَ: «يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ»، قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»[٢].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ،

---

(١) صحيح مسلم: (١٨٤٤) (بَابُ الْأَمْرِ بالْوَفَاءِ بِبَيْعَةِ الْخُلَفَاءِ، الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ) (٣/ ١٤٧٢) سنن النسائي: (٤١٩١)، (ذكر ما على من بايع الإمام وأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه): (٧/ ١٥٢)، سنن ابن ماجه: (٣٩٥٦)، (باب ما يكون من الفتن): (٢/ ١٣٠٦).

(٢) صحيح مسلم: (١٨٤٧)، (بَابُ الْأَمْرِ بِلُزُومِ الْجَمَاعَةِ عِنْدَ ظُهُورِ الْفِتَنِ وتحذير الدعاة إلى الكفر): (٣/ ١٤٧٥) المستدرك على الصحيحين للحاكم: (٨٥٣٣)، (٤/ ٥٤٧) قال عنه الذهبي: (صحيح).

وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، فَمَاتَ، فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ، يَغْضَبُ لِعَصَبَتِهِ، وَيُقَاتِلُ لِعَصَبَتِهِ وَيَنْصُرُ عَصَبَتَهُ فَقُتِلَ، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي، يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، لَا يَتَحَاشَ لِمُؤْمِنِهَا، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدِهَا، فَلَيْسَ مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُ»[1].



(١) مسند الإمام أحمد: (٧٩٤٤)، من مسند أبي هريرة: (١٣/ ٣٢٦)، صحيح مسلم: (١٨٤٨)، (بَابُ الْأَمْرِ بِلُزُومِ الْجَمَاعَةِ عِنْدَ ظُهُورِ الْفِتَنِ وتحذير الدعاة إلى الكفر): (٣/ ١٤٧٦) سنن النسائي: (٤١١٤)، باب التغليظ فيمن قاتل تحت راية عمية: (٧/ ١٢٣).

المبحث الثالث:

تناقض الإسلام السياسي مع الدعوة بالحكمة والحوار

مقدمة البحث(١)

إن من الواجبات الكفائية التي خاطب الله عز وجل بها عباده في محكم تبيانه وجود فئات من الصالحين، الذين طهرت قلوبهم من السخائم، وهيمنت الرحمة عليها بعبادة الله سبحانه وتعالى، يمارسون وظيفة التعريف بالخير والدعوة إليه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ألم تقرؤوا قوله سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ولكن الآفة التي ابتُلِيَتِ بها أمتنا الإسلامية في هذا العصر أن في هذه الفئات التي تنهض اليوم بواجب التعريف بالخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فئاتٍ لا تعلم الحق إلا ذاك الذي هدته إليه عصبيتها، أو طالعه عليه مزاجها، أو اقتضاه تحزُّبها، أو دَعَتْه إليه مصالحها، ذلكم هو الحق فيما يعرِّفون الناس به، وفيما يَدْعون إليه، فإن تنكَّبَ مُتنكِّبٌ

---

(١) مستخلص من خطبة للعلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي بتاريخ: (٢٣/٣/٢٠١٢م).

عن هذا الذي يَدْعونَ هُم إليه اتُّهِم ذلك المتنكب بالفسوق أو الابتداع، وربما اتُّهِم بالكفر، وربما أُهْدِر دمه.

وميزان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما هو من الثوابت المستقرة في كتاب الله سبحانه وتعالى، وهدي رسوله الكريم محمد ﷺ.

ونقول لهؤلاء: إن علماء الشريعة الإسلامية عندما وصفوا الناس الذين ينبغي أن ينهضوا بهذا الواجب، وصفوهم بصفات في مقدمتها:

- الرحمة بعباد الله، وأن يكونوا ربانيين.
- أن تكون قلوبهم أوعية لمحبة الله، ولتعظيم حرمات الله.
- أن تكون لهم ساعات عهد ولقاء مع الله في الأسحار.

تلك هي أهم صفات الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى، فلماذا ننظر فنجد أنَّ في الدعاة من يتَّصِف بنقائض هذه الصفات؟

ننظر إلى كتاب الله فنجده يبشِّر عباد الله سبحانه وتعالى بالمغفرة، وننظر إلى أحاديث رسول الله ﷺ، وإذا هي الأخرى تبشر بالمغفرة، يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ويروي الشيخان من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

قال: (ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار)[1].

وعن معاذ بن جبل ﵁، أن رسول الله ﷺ قال: (من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة) وفي رواية: (وجبت له الجنة)[2].

وعن أبي عمرة الأنصاري ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أني رسول الله، لا يلقى الله عبدٌ يؤمن بهما إلا حجب عنه النار يوم القيامة)[3].

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله

---

(١) أخرجه البخاري، في العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم (١٢٧)، ومسلم، في الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاكٍّ فيه دخل الجنة (٧٢).

(٢) أخرجه ابن حبان، في الإيمان، باب فرض الإيمان، ذكر البيان بأن الجنة إنما تجب لمن شهد لله جل وعلا (٢٠٠)، والحاكم في كتاب الجنائز (١٢٣٣) وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه".

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة (١٠٥٣٨)، وابن حبان، في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فرض الإيمان (٢٢١)، والحاكم في المستدرك، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين (٤١٧٧) وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه".

عز وجل)[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا قال الرجلُ: "هلكَ الناسُ" فهو أهلكهم)[2].

إذن يا هذا، أموقن أنت أن هؤلاء الذين تتَّهمهم بما شِئْت من الفسوق والابتداع بل الكفر، أموقن أن الواحد منهم لن يصبح في الغد القريب خيراً مني ومنك؟.

أموقن أنك -وأنت تعتَدُّ بنفسك- أنني وإياك عندما نمتد على فراش الموت، ونعالج بُرَحاءَه لن تنسينا برحاء الموت شهادة "أن لا إله إلا الله"؟.

أموقن أنت بهذا حتى تُصنِّف نفسك، وحتى أُصنِّف نفسي معك في الناجين من عباد الله وحتى نُصنِّف التائهين مع الكفرة، أو مع الفاسقين، أو مع الفجرة؟

من كان فُضيل بن عياض يا أخي؟ ألم يكن قاطع طريق؟ ألم يكن مرتكباً للفواحش؟ إلام آل أمره بعد ذلك؟ ألم يكن واحداً من كبار

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٥٢٣٤).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب النهي عن قول (هلك الناس) (٤٨٦٢)،(أهلكهم) روي بالنصب والرفع.

الربانيين، من كبار عباد الله الصالحين؟

من كان بشر الحافي؟ ألم يكن مسرفاً على نفسه؟ ألم تكن الدنيا قد أسكرته بأهوائها وشهواتها؟ ثم إنه آل إلى الإنسان الذي ضُرِبَ به المثل في التقوى، وفي البعد لا أقول عن المحرمات، بل عن الشبهات وبالورع العجيب؟

من كان عبد الله بن المبارك وإلام آل أمره؟

أموقن أنت يا أخي، أنني وإياك إذا حانت سكرة الموت سنبقى على هذه الحالة، على هذه الاستقامة؟ إذاً فأنت تأمن مكر الله، والله يقول: ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُون﴾ [الأعراف: ٩٩].

ربنا سبحانه وتعالى فتح باب رحمته لعباده جميعاً، وجلبهم إليه بهذه الرحمة، ورسولنا الحبيب ﷺ يقول: (بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا)[١].

- أننفر بدلاً من أن نبشر؟
- أنعسر ولا نيسر؟!

والعلاج الذي يجعل الإنسان قائماً بواجب التعريف بالخير والأمر به، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دون أن يقع في هذا

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير (٣٣٤٩) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

الحضيض: أن نزكي قلوبنا، ونبذل كل ما نملك من جهد لغرس محبة الله بين جوانحنا، محبة الله عز وجل إذا غرست في أفئدتنا طردت حظوظ النفس، طردت الشهوات والأهواء، طردت الأنانية الشخصية والأنانية الحزبية، طردت ذلك كله وتحول القلب إلى وعاء نقي صافٍ من الأدران، ينبض بحبٍ واحدٍ لا ثاني له؛ ألا وهو الله.

مشكلة الانشغال بأحلام المجتمع الإسلامي عن الدعوة[1]

شاء الله عزَّ وجلَّ -بواسع رحمته ودقيق حكمته- أن يختار من عباده ثلّة يجعل منهم المثل الذي يُحتذى، والنموذج الذي يُقتدى به في الانقياد لأوامر الله وتطبيق تعاليمه وأحكامه، وكأنه عز وجل قضى -بباهر حكمته- أن يجعل من حياتهم وواقع سلوكهم في الجملة، وسيلةَ إيضاح لمن بعدهم، يهتدون بهديهم كلما غُمَّ عليهم الأمر والتبست عليهم الحقائق بأشباهها. وقد تمثَّلت هذه الثُّلةُ المختارة في صحابة رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم.

وليس في اختيار الله لهم ما يثير دهشةً أو يبعثُ على تساؤل، فهم الرعيل الأول الذين تبلغوا عن الله وعن رسول الله ﷺ بعد فترة من الرسل، وهم الذين رأوا رسول الله ﷺ وأخذوا منه وتعلموا على يديه، وهم الذين سرى نور النبوة إلى أبصارهم، التي اكتحلت بمرأى رسول الله ﷺ، ثم سرى منها إلى قلوبهم التي فاضت بمحبة رسول الله ﷺ. فحُقَّ أن يكونوا على خُطى رسول الله ﷺ، ثم أن يكونوا من بعده الهداة الذين يُقتدى بهم، والنموذج الأسمى لكيفية السير على صراط الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) المصدر: كتاب (هذه مشكلاتنا) للعلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

شتّان بين توجُّه الصحابة وتوجّه الإسلامويين:

وقد نظرنا ثم تأملنا طويلاً في موقف هؤلاء الصحابة، الذين جعلهم الله -بعد رسوله ﷺ- قدوة لنا في كلٍّ من الواجبات التي كلَّفهم الله بها وأنهضهم إليها، والحقوق التي بشَّرهم بها وتكفَّل لهم بإنجازها، فرأينا أنهم توجهوا بكل مشاعرهم وقدراتهم إلى الواجبات التي حمَّلهم الله إياها، وسَعَوا في ثباتٍ واستمرار إلى النهوض بها، دون أن تطوف بأذهانهم أحلام تلك الحقوق التي وعدهم بها، ودون أن يدَّخروا شيئاً من جهودهم للبحث عن تلك الحقوق، بل دون أن يربطوا بين تلك الواجبات وهذه الحقوق بشيء من رابطة العلة والمعلول، أو الثمن والسلعة. بل تأملنا فلم نجد إلا دافعاً خفياً واحداً ينهضهم إلى القيام بالوظائف التي ألزمهم الله بها، ألا وهو دافع العبودية والمحبة لإلههم.

ما إن يبايع الواحد منهم رسول الله ﷺ مؤمناً بالله رباً وبمحمد رسولاً حتى يعود إلى نفسه فيُلْزِمُها باتباع أوامر الله والانتهاء عن نواهيه، مجاهداً نفسه ضد أهوائها، مطهِّراً ذاته، ثم يُقْبِل إلى من يعيل، ثم إلى سائر من حوله من عباد الله عزَّ وجلّ، يُعرِّفهم على الله، ويُبلِّغهم أوامره وأحكامه، مُخترقاً إلى ذلك المخاطر كلَّها، مضحياً بحقوق نفسه إنْ أُهينَت، مُتجمِّلاً بمشاعر الحب لعباد الله والشفقة عليهم جميعاً،

وقدوتهم في ذلك كله سيدهم وحبيبهم رسول الله ﷺ.

ولم يكن من شأن أيٍّ منهم أن يعود في المساء إلى داره ليسأل نفسه: متى وكيف تكون الحاكمية في الأرض عن الله؟. كما لم يكن من شأن أيٍّ منهم أن يتقلَّب ذات ليلة في أحلام هذا النعيم الذي وعدهم الله به: كيف يكون مذاقُه، أو إلى أي مدى يَمتدُّ ظلُّه؟ بل كانوا يقطعون الليل بعد أخذ حظِّهم من الراحة والرقاد، بنجوى الخائف من تقصيره الطامع في تجاوز الله وعفوه. وربما اتَّهم أحدُهم نفسَه لتقصيرٍ تخيَّل أنَّه قد أَلَمَّ به، بلون من النفاق قد ابتُلى به، فيتقلَّب من ذلك في همٍّ يكاد يُذيبه، ثم لا يسكن روعه حتى يشكو أمره إلى رسول الله ﷺ، فيذكِّرُه بعظيم رحمة الله وكرمه، ويبشِّرُه بأن إحسان الله لعباده يأتي على قدر ضعفهم وعجزهم، إن هم عظَّموا حرمات الله، واستشعرت قلوبُهم مهابته.

تحت سلطان هذه الدوافع والمشاعر، أَدوا واجباتهم هذه، وصمدوا لكل ألوان الأذية في مكة... وتحت سلطان هذه الدوافع والمشاعر ذاتها، هاجروا في سبيل الله إلى المدينة، وقد نفضوا أيديهم عن كل زاد إلا زاد التقوى والعمل الصالح. وهم خلال ذلك كله يُعرِّفون الناس على الله ويبلِّغونَهم كلمات الله، ويُقدِّمون نفوسهم وحظوظها قرابين رخيصة على طريق تطبيق أوامر الله.

هل كان أي منهم يخلط بين قيامه بواجباته هذه، والتخطيط لكيفية القضاء على الامبراطورية الساسانية أو الرومانية؟.

هل كان فيهم من يُفكِّر بكيفية الانتقام من قريش التي أخرجتهم من ديارهم، أو يفكِّر بالغد القريب الذي يصبحون فيه الحكام المهيمنين عليهم والمتنفذين فيهم؟

معاذ الله... لم يكن هذا شأن أحدٍ منهم، بل كانوا قد وضعوا همهم كله في أن يوفَّقوا إلى أداء حقوق العبودية التي في أعناقهم لله عزَّ وجلَّ، أو يرحلوا إليه وهو راضٍ عنهم غفَّار لهم. فلمَّا صَدَقوا فيما ألزموا أنفسهم به من حق الله عز وجل، وفَّاهم الله حقهم الذي تكفَّل لهم به، فأعادهم إلى الأرض التي أُخرجوا منها، وأورثهم أرضاً وديارا أخرى لم يعرفوها ولم يحلموا بها، وجعل منهم قادة العالم ووُرَّاث الحضارة، فكانوا بحق سدى ولحمة المجتمع الإسلامي.

هل كان سعيهم وجهادهم قبل ذلك تخطيطاً لبلوغ حكم، أو إمعاناً في قهر حاكم، أو مناورة لإنشاء حلف؟ لم يكن هذا شأنهم قط، بل لم يخطر لهم شيءٌ من هذا على بال.

بل مما لا شك فيه أنهم لو ولّوا وجوههم شطر شيءٍ من هذه المشاغل أو صرفوا أفكارهم إليها، لما حقَّق الله لهم شيئاً مما قد أكرمهم به، ولما جعل منهم أئمة الأرض وقادة العالم، بل لَوَكَلَهم

عندئذٍ إلى أفكارهم الْمُخطَّطة وأحلامهم المهتاجة، ولما جاءت قدراتهم من ذلك كله بشيء.

فذلك ما نقرؤه واضحاً في كتاب الله: واجبات كُلِّفْنا بها وأناطها بأعناقنا، وحقوق تكفَّل بها لنا إن نحن أخلصنا القيام بتلك الواجبات.

وهذا ما فعله أصحاب رسول الله ﷺ، وفعله الله لهم: عاهدوا أن ينفذوا أوامره، وأن يمارسوا عبوديتهم له بإخلاص وصدق، وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه... وعندئذٍ وفَّى الله وعده لهم فورَّثهم الأرض والديار، وبثَّ الهيبة منهم في قلوب الناس.

وقد علمنا أن الله عزَّ وجلَّ جعل من أصحاب رسول الله ﷺ النموذج الذي يُتبع في صحة التوجه والسلوك، فهم الذين يصدق عليهم قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه﴾ [الأنعام: ٩٠].

وإذا كان الأمر كذلك، فليس لنا عن الاقتداء بهم أي محيص، إلا إنْ أردنا أن نسلك سُبُل الغواية بدل الرشاد، أو أن نغامر في اتباع ما لا يجدي أو غرس ما لا يثمر. ونسأل أن يسلّمنا ويقينا من الوقوع في هذا التيه.

ونحن اليوم نُعْلِن عن صدق إيماننا بالله واستسلامنا لألوهيته وحكمه، تماماً كما أعلن أصحاب رسول الله ﷺ.

ويظهر اليوم في الساحة الإسلامية من يُسمَّوْن بالإسلاميين أو الجماعات الإسلامية، يدعون كذباً وزوراً ويضعون أنفسهم من عامة الناس موضع الصحابة ﭬ ممن بعدهم، فهم النموذج الذي ينبغي أن يُقْتدى به اليوم بعدهم حسب زعمهم، إذ هم طليعة رجال الدعوة إلى الله، والقائمون بأمر الله والمجاهدون في سبيله، والمنافحون عن حرماته.

ولكن... أفيسلك هؤلاء "الإسلاميون" فعلاً مسلك رسول الله ﷺ، ومن ثم مسلك أصحابه ﭬ؟ أفيحصرون أنفسهم فعلاً في نطاق الواجبات التي كلَّفهم الله بها في حقِّ أنفسهم والناس الذين من حولهم، ويفوضون ما التزم لهم به الله إلى الله.

إننا ننظر فنجد عكس ذلك تماماً.

لقد نامت في نفوسهم مشاعر الواجبات الذاتية، التي أذاب أصحاب رسول الله ﷺ أنفسهم في ضرام السعي إليها والنهوض بها، واستيقظت بدلاً من ذلك لديهم مشاعر التطلع إلى الحكم.

أمرهم الله عزَّ وجلَّ أن يصطبغوا بذل العبودية لله عزَّ وجلَّ؛ شعوراً وتبتلاً وأخلاقاً وسلوكاً، فشردوا عن واجبهم هذا بأحلام السعي إلى إقامة الحكم الإسلامي!.

وأمرهم الله عزَّ وجلَّ أن يعرفوا الناس على الله، وأن يبلغوهم

كلماته وأحكامه، وناشدهم ذلك رسول الله ﷺ قائلاً: (بلِّغوا عنِّي ولو آية)[1]. فتشاغلوا عن واجبهم هذا بهموم الوصول إلى الحكم، ومناوأة من يصدُّهم عن ذلك.

والخلاصة أنهم قصَّروا كلَّ التَّقْصير فيما طلبه الله منهم وحولوا أنظارهم وأنظار دعوتهم إلى العمل السياسي الذي يصل بهم إلى الحكم والمناصب السياسية.

أصل الخلل عند قادة جماعات الإسلاموية:

لقد نظر قادة هذه الجماعات إلى قادة الأحزاب والمذاهب الوضعية، ورأوا كيف يتَّجِهون إلى كراسي الحكم عن طريق الدخول في المعتركات السياسية، أو اقتحام الطُّرق الثورية، وما هي إلا بضع محاولات على هذه الساحة أو تلك، وإذا هم متربِّعون فوق عروش الحكم، وإذا بأنظمتهم وأفكارهم تنبسط في المجتمع دون أي مُشاغِبٍ أو مُعارِض! فما هو إلا أن استهوتهم -أي استهوت الإسلاميين- هذه السرعة الخاطفة في نجاح تلك المنظَّمات أو الأحزاب في فرض سلطانهم، ومن ثم فرض أفكارهم وأنظمتهم على الناس. وأخذت العدوى تفعل فعلها في أفكارهم، بل في نفوسهم:

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٢٩٢) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

لماذا لا نسلك مسالك هؤلاء الناس؟... إنهم يحملون إلى الناس أفكاراً وأنظمة بشرية، ونحن نحمل إليهم الإسلام، ألسنا أَوْلى منهم بالتَّوجُّه إلى كراسي الحكم، والتحكم بمقاليده، سواء أُتيح لنا ذلك بالاشتراك في المعتركات السياسية أم باقتحام الطرق الثورية؟!.. ولئن كان قدر الناس في هذا العصر أن تُفْرض المذاهب عليهم بالقوة، فلنكن السَّبَّاقين إلى ذلك، وليكن المذهب المفروض عليهم هو الإسلام!.

وفي غمار هذه المحاكمة أو المراوضة الفكرية التي فرضتها العدوى، نسيَ قادةُ العمل الإسلامي أن الإسلام الذي يدعون إليه وينهضون بخدمته **إنما هو دين واعتقاد قبل كلِّ شيءٍ، والدين إنما يسري إلى العقول عن طريق القناعة واليقين، وإنما سبيله الدعوة والحوار والإقناع، أما ما فيه من شرعة ونظام، فنتائج طبيعية لدينونة العقل، والقلب لألوهية الله وسلطانه، ولو أن إحدى دول العالم في** الأرض أعجبت من الإسلام بشرعته ونظامه، فاتخذت من شرائعه وأحكامه بديلاً عن نظامها الذي كان سائداً، لما أدخلها ذلك في حظيرة الإسلام من حيث إنه دين يستجيب به الإنسان لأمر الله ويمارس من خلاله العبودية لله، وليس بين شريعة الإسلام والنظام الذي كان سائداً من قبله في هذه الحال أي فرق.

ولكن قادة الجماعات الإسلامية نسوا في غمار هذه المراوضة الفكرية تحت سلطان تلك العدوى، هذه الحقيقة التي هي من البداهة بمكان، واستهوتهم مغامرات رؤساء المنظمات والأحزاب، فأعرضوا عن مهام الدعوة إلى عقائد الإسلام عن طريق التربية والحوار، ثم تفرغوا هم الآخرون للدخول في المعتركات السياسية، أو اتجهوا إلى رسم الخطط الانقلابية والثورية.

وهكذا تحوَّل هؤلاء الذين عرَّفوا الناس على أنفسهم دعاةً إلى الله وخداماً لدين الله، إلى طلابِ حُكْم ينتجعونه في ساحة العمل السياسي، أو يطرقون أبوابه من خلال المغامرات الثورية.

هل يمكن إقامة المجتمع الإسلامي على منهج ثوري؟

معلوم أن "الثورة" في عرف السياسة الحديثة، تعني أي تغيير جذري شامل، يحدث في مسار الأنظمة السياسية أو الاجتماعية، قفزاً فوق سنَّة التطور والتدرج، سواء تم ذلك بطريقة سلمية هادئة أو بعامل عنف وسفك دماء.

غير أن الواقع الذي رصده التاريخ، بدءاً من الثورة الإنجليزية التي ظهرت عام (١٢١٥م) إلى الثورة الفرنسية عام (١٧٨٩م) فالثورات الأخرى التي ظهرت هنا وهناك إلى يومنا هذا، حصر معنى الثورة في السعي إلى التغيير الجذري بعامل العنف وإراقة الدماء. ولا شك أن هذه الأداة تفاوتت شدَّة واتِّساعاً ما بين ثورة وأخرى. غير أنها ظلت سبيلاً أساسياً وقاسماً مشتركاً بينها جميعاً.

وهكذا، فعلى الرغم من أن التصور النظري لا يمنع من أن تقوم ثورة يسلك بها أصحابها طريق السلم والأناة، إلا أن الواقع لم يساعد هذا التصور يوماً ما على فرض نفسه في مجال التطبيق.

ولا ريب أن لهذا الواقع أسبابه التي لا يصعب التنبه لها. غير أن الحديث عنها خارج عما نحن بصدده الآن. لذا لا بدّ أن نتساءل: هل يتفق جوهر الإسلام بحدّ ذاته مع أي منهج ثوري "يقوم على الشدة والعنف" لإقامة المجتمع الإسلامي وتثبيته؟

إن ما يسمى بالمجتمع الإسلامي لا يمكن أن يستقر اعتماداً على سبيل العنف وسفك الدماء، وما سبق أن قام يوماً ما هذا المجتمع على مثل هذا الأساس.

ذلك لأن إشاعة أحكام الإسلام وآدابه في المجتمع، إنما يأتي ثمرة لرسوخ جذوره الاعتقادية في الأفئدة والعقول. وذلك هو مجمل الفارق الكبير بين النظم الإسلامية، وسائر الأنظمة الاجتماعية أو السياسية الأخرى. ذلك لأن هذه الأنظمة الأخرى لا تنمو اعتقاداً عن طريق المناهج التربوية المجردة، وإنما تفرض نفسها بالوسائل المادية المختلفة حسب اختلاف أصحابها، وربما كان العنف واحدة منها. وإنما أداة ذلك على الأغلب، سلوك سبيل العنف. أما عندما تكون هذه الأنظمة متساوقة مع رغبات الجميع، متآلفة مع مصالحهم، فلا داعي عندئذ للجوء إلى هذا السبيل.

أما نظام الإسلام، فهو إنما ينهض على دعامة خفية تكمن في أغوار النفس الإنسانية، ألا وهي استشعار معنى العبودية لله عز وجل، واليقين بوجوده ورقابته للإنسان، وبأنَّ مردَّه إليه، وأنه سيجزيه الجزاء الأوفى، على كل ما صدر منه أو اقترفه من خير وشر. لذلك كانت سائر الأعمال السلوكية التي تصدر من الإنسان مهدرة لا قيمة لها في ميزان المثوبة الإلهية يوم القيامة، إن لم تنهض على هذه الدعامة الإيمانية،

ولم تصطبغ بها. ونصوص القرآن صريحة وقاطعة في ذلك: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وما من ريب في أن طريقاً يتجه به سالكه إلى الأفئدة والعقول، لا يصلح إلا أن يكون طريق مَرْحمة وسِلْم، وحكمة وأناة. وما من شك في أن أخطر العقبات التي قد تبرز على متنه إنما يتمثل في الضغينة والعنف.

وما تَرِدُ كلمة "الجهاد" مرَّة في القرآن، إلا ويكون هذا السعي الحثيث إلى الأفئدة والعقول، أول ما يقصد من معاني الكلمة ومدلولاتها. وهو المعنى الذي تترجمه هذه الآية القرآنية العظيمة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. فإن أعوزك مظهر تطبيقي تتجسّد فيه هذه الحقيقة، فدونك فتأمل في سيرة المصطفى ﷺ، واستعرض مراحل دعوته كلها، فلن تجد من خلالها إلا ممارسة مستمرة لهذه الحقيقة، وسعياً دائباً على هذا الدرب.

لقد أمضى النبي ﷺ ثلاثة عشر عاماً من عمر دعوته إلى الله وجهاده في سبيله، وهو يخاطب العقول بالإرشاد والتذكير، ويتَّجه إلى

القلوب يستثير فيها العواطف الإنسانية والفطرة الإسلامية، دون أن يحرف عن ذلك الطريق ما أمعنت فيه قريش من العناد والبغضاء ومقابلته بشتى مظاهر الكيد والعدوان.

وربما توهَّم الباحث أنَّه الضعف الذي كان يعانيه النبي ﷺ والصحابة آنذاك، منعه من أن يقابل الشر بمثله، وحمله على الصَّبْر إلى حين. ولا ريب أن هذا وَهمٌ وباطل من القول، فلو كان الذي يمسكه على تلك الحال من التجمل والرحمة وسعة الصدر، عجزه عن المقاومة وعن ردِّ الكيد بمثله، إذن لفرضت طبيعة الثورة نفسها على حاله ومظهره، ولتجلَّى ذلك -على أقل تقدير- في حقدٍ ينفثه أو توعد يشفي غليله به، ولدعا عليهم ذات مرة بالسحق والمحق، ولا سيما وأن دعاء الرسل والأنبياء أمضى من أسلحة الثائرين. ولكنَّا قد علمنا أنه ﷺ ما كان يستقبل عداواتهم إلا بمزيد من الشفقة والرحمة، وأبى أن يُحرِّك لسانه بالدعاء عليهم، حتى في أحلك الساعات وأقسى الظروف التي مرَّت به.

فلما هاجر إلى المدينة واستقرَّ به المقام فيها، ونظر المشركون فرأوا أن قد غدا للنبي ﷺ أرض يركن إليها، وأن قد أحاطت به مجموعات تستنّ بهديه وتدعو بدعوته، وأنها بسبيل أن تنتشر في الناس وتستقر في العقول، هاج بهم هائج الضغينة والحقد، وهبّت فيهم من

ذلـك ثـورة لاهبـة تسـعى لحمايـة الباطـل الـذي توارثـوه مـن الآبـاء والأجداد، وتُلِحُّ على خنق حقائق الدين الذي بعث به محمد ﷺ.

وهكذا فإن الأمر كان على عكس ما يتوهمه المتوهمون، فالدعوة الإسلامية التـي اختـط الرسـول ﷺ سـبيلها الآمـن الحكيـم، هـي التـي واجهـت مـن المشـركين ثـورة البطش والعنـف والعـدوان، ولـيس المشركون هم الذين فوجئوا من النبي ﷺ وأتباعه بتلك الثورة.

وما واجه المسلمون أعداءهم يوماً -وهم بقيـادة المصطفى ﷺ- على طـول تلـك المواجهـة وعرضـها، بشـيءٍ مـن تشـنجات الثـائرين وأحقادهم الهائجة، وإنما كانوا يتصدّون لثورتهم بالإخماد، ويواجهون قوَّتهم بالتوهين، ويلاحقون جموعهم بـالتفريق، وقايـة لحقـائق الـدين الإسلامي أنْ تغتال في أشخاص المسلمين، فينكفئ الناس مـرَّة أخـرى على ظلام الجاهلية، ويعودون إلى ماضيهم التائه المشؤوم.

لقد قيل للنبـي ﷺ: إن أهـل نجـد بحاجـة إلـى مـن يـدعوهم إلـى الإسلام ويعرفهم به، فأرسل إليهم سبعة من عيون أصحابه، يخوضـون إليهم غمار أحقاد ضارية، دون أن يجهزهم ﷺ إلا بمنطق الحق مُضَمَّخاً بلوعة الشفقة والحب، فتخطَّفَتْهم جميعاً يدُ الغدر، ودارت عليهم رحا القتل، ولم يَعُد منهم أحد.

ثم قيل مرَّة أخرى له ﷺ عن شدَّة احتياج أهل نجد إلى من يعرفهم

بالإسلام، فأرسل إليهم بدلاً من أولئك السبعة سبعين من أَخلص أصحابه، ولم يُجهِّزهم إلا بمثل ما جهز به إخوانهم من قبل، فما كادوا يبعدون في أرض نجد، حتى أحيط بهم، وقُتِلوا عن آخرِهم، اللَّهم إلا واحداً فقط، وهو "عمرو بن أمية الضمري" وكأن الأقدار استَبْقَتْهُ ليعود بالنبأ الأليم إلى رسول الله ﷺ.

فأي الفريقين ثائرٌ هائِجٌ مغتاظٌ، وأيهما الذي يسعى إلى إنقاذ دعوة الحق مضمَّخة بضياء المنطق، نابعة بلوعة الحب والإخلاص؟.

ولما صدّ المشركون رسول الله ﷺ عن البيت، وقد اتجه إليه مع جمع كبير من أصحابه معتمرين مسالمين، آثر السلامة وعاد إلى المدينة أدراجه، ووقَّع مع المشركين على كتاب صُلْحٍ بين الفريقين، كانت بنوده كلها خدشاً لكرامة المسلمين وإجحافاً بحقِّهم، لو أنَّهم كانوا يسيرون في معاملة الكافرين مسيرة الثائرين.

ولَمَّا أَمكَنَه الله من العودة ظافراً إلى مكة، وأظفره الله بأهلها، وسار إليها ممتطياً أعلى ذرى القوة والنصر، كان يراقب قلبه أن لا يتسلل إليه شيء من روح السخيمة وهوى الانتقام، وكان يحاذر أن يتسلل إلى رأسه شيء من نشوة القهر والانتصار، وكان يراقب أصحابه أيضاً ويحذرهم من أن يفتحوا أفئدتهم لشيء من تلك المشاعر.

ولما بلغه أن سعد بن عبادة قال -وهو على مشارف مكة- كلمة

أجرتْها نشوةُ الظفر على لسانه: "اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستَحلُّ الحرمة" غضب عليه الصلاة والسلام وردَّ قائلاً: (اليوم يوم المرحمة)[1]. وأبى عليه الصلاة والسلام، وهو يدخل مكة من أعلى قمم النصر، إلا أن يكون خاشع القلب مطأطئ الرأس، يرتدي كسوة الذل والعبودية لمولاه، وقدم على مشركي مكة قدوم الغائب على أهله، وبدّد مخاوفهم من البطش والانتقام بقوله: (اذهبوا فأنتم الطلقاء).

فتلك هي صورة مراحل الدعوة الإسلامية، في حياته ﷺ كلها، هل تجدها مسوقة إلا برحمة القلب وشفقة النفس، وهل تجدها متجهة إلا إلى العقول بالإقناع، وإلى الأفئدة بإيقاظ معاني الإنسانية.

غير أن المشكلة التي قد ترد على كلامنا هذا، في تصور بعض الناس هي مسألة الجهاد.

---

(١) روى ذلك الأُمَوي فِي (المغازي) كما في فتح الباري لابن حجر: ١٢ / ص ٩٥.

أليس الجهاد أقدس شرائع الإسلام، وهل كان النبي ﷺ يدعو أصحابه إلى عبادة أعظم من عبادة الجهاد؟

والجواب: أن الجهاد الذي شرَعَه اللهُ واستقرَّ باباً من أخطر أبواب الفقه الإسلامي وأهمها، ليس أكثر مما تشرعه أي دولة مسالمة ديمقراطية اليوم، بصدد حماية سِلْمَها ورعاية أَمْنِها. وهو شيءٌ ضروري لا بدَّ منه بإجماع سائر فلاسفة القانون وعلماء الاجتماع، ما دام أن البغي على وجه الأرض لم ينقطع بعد، وأن مطامع الظلم والعدوان لا تزال بارزة المخالب والأنياب.

هل تجد دولة على وجه الأرض لا تهتم بإنشاء جيش قوي لها، ولا تنصرف إلى حماية ثغورها وتحصين حدودها؟ إن الجهاد الذي شَرَعَه الله وألزم به عباده المسلمين، ليس أكثر من ذلك مهما رأيت له من مظاهر وأَشكال.

يقول ابن رشد في مقدماته على مدونة الإمام مالك: "فإذا هوجر العدو، وحميت أطراف المسلمين، وسدّت ثغورهم، سقط فرض الجهاد عن سائر المسلمين"[1].

---

(١) في (مقدمات ابن رشد): "فالجهاد الآن فرض على الكفاية، يحمله من قام به، بإجماع أهل العلم، فإذا هوجر العدو، وحُمِيَتْ أطراف المسلمين، وسُدَّتْ ثغورهم سقط فرض=

وحسبك أن تعلم أن مشروعية الجهاد ليست من قبيل شرعة المقاصد والغايات، وإنما هي وسيلة لا بد منها، في ظروف معينة تفرض نفسها، إلى غايات إنسانية سامية لا غنى عنها.

يقول العز بن عبد السلام: "إن الجهاد لا يُتقرب به إلى الله من جهة كونه إفساداً، وإنما يتقرب به من جهة كونه وسيلة إلى درء المفاسد وجلب المصالح". وهذا يعني -كما قال جمهور الفقهاء- أن الأصل هو السلْم وحقن الدماء، ولا تشرع الحرب إلا عندما تكون هي الوسيلة الوحيدة إلى حماية السلم، ودرء الفتن وحفظ الأرواح. وعندئذ لا مناص من تطبيق القاعدة القائلة: "يُتحمَّلُ الضَّررُ الأَخَفُّ دَرْءاً للضَّررِ الأَعْظَم".

ويشير إلى ذلك قول النبي ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو وإذا لقيتموه فاثبتوا».

وبمقتضى ذلك يُقرِّر مُعظم الفقهاء أن الباعث على القتال الذي يدخل في تعريف الجهاد، إنما هو دَرْءُ الحِرابة، وحماية السبيل إلى تعريف الناس بالإسلام؛ أي منع الاعتداء، وحماية حرية الاختيار.

ومن أبرز الأدلة على ذلك، أن النبي ﷺ، ما زال ينهى في غزواته

=الجهاد عن سائر المسلمين، وكان لهم نافلة وقُرْبة مرغباً فيها، إلا أن تكون ضرورة مثل أن ينزل العدو ببلد من بلاد المسلمين، فيجب على الجميع إغاثتهم..." ص٢٦٣.

عن قتل الأُجراءِ والعبيد، والنساء والشيوخ، والرُّهبان الذين انقطعوا في كهوفهم أو معابدهم. وقد سار الخلفاء الراشدون ﷺ من بعده على هذا النَّهج. فلو كان الباعث على القتال كفراً، لاستوى في موجب القتل هؤلاء وغيرهم.

غير أن هذا لا يعني أن الجهاد في الشريعة الإسلامية ينقسم -كما تراءى لبعض المستشرقين وأتباعهم- إلى حرب هجومية وحرب دفاعية. فهذا التقسيم لا وجود له في باب الجهاد، ولا تتفق طبيعة الجهاد وأهدافه التي شرع من أجلها مع هذا التقسيم.

إذن فالجهاد ليس مظهراً لثورية الإسلام، كما قد يتوهَّم بعض الناس، وإنما هو الحِزام الذي تتَّخذه أية أمة من الأمم، في أي زمان ومكان، لحماية سِلْمِها، والتمكُّن من أداء دورها الإنساني البنَّاء على صعيد الأسرة الإنسانية جمعاء.



الفصل الثالث:
فتنة التكفير، بلاء يهدد الأمة بالفناء[1]

المبحث الأول: حُكم الكُفر والتّكفير وضوابطهما

الكُفر (لغةً): السَّتْر.

الكافر (لغةً): هو الذي يستُر الأشياء الظّاهرة، لذلك يُسمّى الزّارعُ كافراً لأنه يدفِن (يستُر) البذرَ في باطن الأرض.

قال تعالى: " **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً**" [**الحديد(٢٠)**] الْكُفَّارَ هنا تعني الزُّرَّاع.

ويتفرّع عن هذا المعنى كلُّ ما أنكره الإنسانُ بلِسانه وقد أيقن به عقلُه.

الكُفر (شرعاً): هو كلُّ قولٍ يُعبّر تعبيراً صريحاً عن إنكارِ رُكنٍ من أركان الإسلام أو الإيمان، أو عن إنكار حُكمٍ من الأحكام الإسلامية المعروفة من الدّين بالبداهة والضرورة، كأن يُبيحَ قتلَ النفسِ بغير الحقّ

---

(١) هذا البحث منقول بتصرف واختصار من كتاب (فقه الأزمة) من إصدارات وزارة الأوقاف في الجمهورية العربية السورية.

أو غيرها بعبارة قاطعة في الدلالة.

أو كلُّ فعلٍ يحملُ دلالةً قاطعةً على شيءٍ يناقض ركناً من أركان الإسلام.

أو أن يسخر من شيءٍ من أركان الإسلام أو الإيمان أو أيِّ حُكمٍ من الأحكام الإسلامية المعروفة للجميع بالبداهة والضرورة أو أن يحتقره بوسيلةٍ واضحةٍ من وسائل التحقير.

مثال: رمى بالمصحف أرضاً أو ألقاه بين الأقذار.

ومَدارُ الأمر في أصلِ كلٍّ من الكُفر والإسلام هو الاعتقاد، فإذا ترتَّبَ على القَولِ أو الفعل حُكمٌ بالتكفير فذلك لأن القولَ أو الفعلَ ذو دلالةٍ قاطعةٍ على عقيدةٍ مُكَفِّرَةٍ، فأما إذا لم تكن له دلالة قاطعةٌ لم يَجُزْ ترتيبُ حُكمِ الكُفر عليه، وانحصرت دلالتُه على الفسق و العصيان مع إحالةِ باطن الأمر إلى الله عزّ وجلّ.

ولذلك لا ينبغي التساهل والتسرع في تكفير عموم المسلمين وتضييق ذلك إلى أضيق الحدود.

كما ينبغي التنبيه إلى أن المعاصي مهما عَظُمَت فلا يُحكَم على مرتكبها بالكُفر حتى الكبائر، وإنما يُحكَم عليه بالفسق.

ومن الواضح أن التعريف المتقدم للكفر يشمل الكافر المستكبِر الذي عَلِم حقائق الدّين وأيقن بها عقلاً ولكن صدَّه عن الاعترافِ بها

استكبارُه قال تعالى: (**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً**) النمل ١٤.

ولا يشمل الجاهل الذي قد يقول بعض الكلمات ولا يعرف أبعادها.

وهؤلاء الكفار المستكبرون هم الذين يتوعّدهم البيان الإلهي دائماً بالعقوبة، قال تعالى: (**إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ**) [الصافات ٣٥].

فكلما تحدّث البيان الإلهي عن الأمم السابقة التي أهلكها يؤكّد أن سبب إهلاكها هو الاستكبار.

أما الكافر الجاهل فلا يحمّله الله تعالى مسؤولية جهله، بل ربما يحاسِب من عرف دينَ الله ثم لم يُبَلّغه لأمثال هذا الكافر الجاهل.

ولا يجوز للمسلم أن يحكمَ على فلانٍ من الناس أنه مات كافراً إذا بدا منه أثناء حياته تصرّفٌ يدلّ على كفرٍ صريحٍ، ثم غاب عنه ولم يعلم بأي خاتمة خُتِمَ له، فلرُبّما تدارَكه الله بلُطفِه ورحمتِه وألهمَه العودةَ عن كفره قبل الموت.

كما لا يجوز التكفيرُ الجماعيّ كأن يقال أبناء القرية الفلانيّة كلهم كفّار، أو أتباع المذهب الفلاني كلهم كفار.



المبحث الثاني:
مما جاء في النهي عن التكفير والتغليظ فيه في السنّة النبويّة

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا كفّر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما**»[١].

٢- عن ثابت بن الضحّاك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**...ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله**»[٢].

٣- عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ، أَوْ قَالَ: عَدُوُّ اللهِ، وَلَيْسَ كَذَاكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ**»[٣]. (أي رجع الكفر عليه)، قال ابن دقيق العيد في شرح هذا الحديث:

(وهذا وعيد عظيم لمن أكفر أحدًا من المسلمين، وليس كذلك، وهي ورطة عظيمة وقع فيها خلق كثير من المتكلمين، ومن المنسوبين

---

(١) رواه البخاري: (٦١٠٣) (باب من كفّر أخاه بغير تأويل فهو كما قال): (٨/ ٢٦)، مسلم: (٦٠) (بَابُ بَيَانِ حَالِ إِيمَانِ مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ: يَا كَافِرُ) (١/ ٧٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: (١٦٣٨٥) من حديث ثابت بن الضحاك: (٢٦/ ٣١٢) البخاري: (٦١٠٥) (باب من كفّر أخاه بغير تأويل فهو كما قال): (٨/ ٢٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢١٤٦٥) من حديث أبي ذرّ الغفاري رضي الله عنه: (٣٥/ ٣٦٩)، والإمام مسلم: (١١٢)، (بَابُ بَيَانِ حَالِ إِيمَانِ مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ: يَا كَافِرُ). (١/ ٧٩).

إلى السنة وأهل الحديث، لما اختلفوا في العقائد فغلّظوا على مخالفيهم، وحكموا بكفرهم، وخرق حجاب الهيبة في ذلك جماعة من الحشوية، وهذا الوعيد لاحِقٌ بهم إذا لم يكن خصومهم كذلك)[1].

٤- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**ثَلَاثٌ مِنْ أَصْلِ الْإِيمَانِ: الْكَفُّ عَمَّنْ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا نُكَفِّرُهُ بِذَنْبٍ، وَلَا نُخْرِجُهُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِعَمَلٍ، وَالْجِهَادُ مَاضٍ مُنْذُ بَعَثَنِي اللَّهُ إِلَى أَنْ يُقَاتِلَ آخِرُ أُمَّتِي الدَّجَّالَ لَا يُبْطِلُهُ جَوْرُ جَائِرٍ، وَلَا عَدْلُ عَادِلٍ، وَالْإِيمَانُ بِالْأَقْدَارِ**»[2].

٥- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته**»[3].

مما جاء عن السلف وعلماء الأمة في تحريم التكفير

- عن أبي سفيان[4] قال: قلت لجابر: (أكنتم تقولون لأحد من أهل القبلة كافر؟ قال: لا، قلت: فمشرك، قال: مَعاذَ الله، وفَزِع لذلك،

---

(١) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام: (٢/ ٢١٠).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه: (٢٥٣٢) باب في الغزو مع أئمة الجور: (٣/ ١٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: (٣٩١) باب فضل استقبال القبلة: (١/ ٨٧)، النسائي: (٤٩٩٧) باب صفة المسلم: (٨/ ١٠٥).

(٤) هو طلحة بن نافع.

قال هل كنتم تدعون أحدًا منهم كافرًا؟ قال: لا)[١].

- عَنْ نَافِعٍ: أَنَّ رَجُلا قَالَ لابْنِ عُمَرَ: إِنَّ لِي جَارًا يَشْهَدُ عَلَيَّ بِالشِّرْكِ، فَقَالَ: (قُلْ لَا إِلَهَ إِلا اللَّهُ تُكَذِّبُهُ)[٢].

- يقول مُطِيع الحكم بن عبد الله البَلْخِي: سَأَلت أَبَا حنيفَة النُّعْمَان بن ثَابت رضي الله عنه عن الفِقه الْأَكْبَر فَقَالَ: (أَلّا تُكَفِّرَ أحدًا من أهلِ الْقبْلَة بذنب، وَلَا تَنْفِي أحدًا من الْإِيمَان)[٣].

- قال عَلِيّ زَاهِر بن أَحْمَدَ السَّرخسِيّ: لمَّا قرب حُضُور أجل أَبِي الحسن الأَشْعَرِيّ رَحمَه الله فِي دَاري بِبَغْدَادَ دَعَاني، فَأَتَيْته فَقَالَ: (اِشهَد

---

(١) المطالب العالية لابن حجر العسقلاني: (١٢/ ٥٤٨) وقال عنه (صحيح).

وأورده الهيثمي في المجمع (١/ ١١٢) وعزاه إلى أبي يعلى والطبراني، وقال: رجاله رجال الصحيح.

والحديث في مسند أبي يعلى (٤/ ٢٠٧: ٢٣١٧).

ورواه أبو عبيد القاسم بن سلام في الإيمان (٩٨/ ٢٩)، قال حدّثنا أبو معاوية عن الأعمش به بنحوه.

ورواه الطبراني في الأوسط كما في مجمع البحرين (١/ ٤٠١: ١٥٢)

وأبو إسحاق الأصبهاني في الترغيب (٢/ ٤٢٣) وابن عساكر في تبيين كذب المفتري (ص ٤٠٥) كلهم عن طريق الأعمش..

(٢) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري للإمام الذهبي: (٤٠٤).

(٣) الفقه الأكبر: (٧٦).

عَلى أَنّي لَا أُكَفِّرُ أحدًا من أهل هَذِهِ الْقبْلَة؛ لِأَنّ الكلّ يشيرون إِلَى معبود وَاحِد، وَإِنَّمَا هَذَا كُله اخْتِلَاف الْعبارَات)[1].

- قال أبو منصور الماتريدي في الردّ على من يكفّر المسلمين: (..أَن الله تَعَالَى أوجب كثيرًا من الْعِبَادَات باسم الْإِيمَان وجعل علم الحلّ والحرمة في كثير من ذلك اسم الإيمان وزواله، ثمَّ شَارَكَ من أحدثَ أَفعَال الْفسق مَعَ الْإِيمَان فِيهَا غَيره، ثَبت أَن اسْم الْإِيمَان غير زائل عَنْهُم [أي عن الفاسقين]. ثمَّ إِجْمَاع النقلَة فِي إِثْبَات الشَّفَاعَة، وتوارث الْأمة فِي الصَّلَاة على جَمِيع من مَاتَ من أهل الْقبْلَة والاستغفار لَهُم والترحُّم عَلَيْهِم، هُوَ الدَّلِيل لمن أَبَت نَفسه تَكْذِيب الْأَخْبَار الصِّحَاح، وَمُخَالفَة أَئِمَّة الْهدى وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللَّه)[2].



(١) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري: (١٤٩).

(٢) التوحيد للماتريدي: (٣٣٤).

المبحث الثالث:

الفِرَقُ الإسلامية قديماً وحديثاً وموقفُ المسلمين منها

عندما توفي رسول الله ﷺ وكاد أن ينطوي عهد الصحابة وجاء عهد التابعين تنامَت فرقٌ إسلاميةٌ شاردة عن منهج الإسلام، من أمثالِ المرجئة والجهمية والحشوية والمجِّسَدة والخوارج وما إلى ذلك، فلم يُكَفِّر المسلمون أي فرقة من هذه الفرق نهائياً، لا خارِجياً ولا مُرجِئيّاً ولا أيّاً من هذه الفئات أو الفرق التي شذَّتْ وشردت عن صراط الله سبحانه وتعالى.

ولما سئل سيدنا عليّ رضي الله عنه عن الخوارج الذين آذَوه إيذاءً شديداً قال: "هم إخوانُنا بَغَوا علينا".

والإمام أحمد بن حنبل هو الذي أوذِيَ أشد أنواع الإيذاء عن طريق المعتزلة القائلين بأن القرآن مخلوق، لم يكن كلامُ الله ثم وُجِد، أوذِيَ وحُبِسَ وضُرِبَ مدة طويلة في عهد المأمون، ثم إن الله عز وجل شاء أن ترتفع عنه المحنة في عهد المُتوكّل، جاء بعضُ أصحابه يقولون له يا سيدي ادعُ الله على ابنِ أبي دُؤاد رأسِ المعتزلة، قال له: "وما يفيدكَ أن يُعذِّبَ الله عزَّ وجلّ يومَ القيامة أخاً من أجلك، لا بل أدعو الله سبحانه وتعالى له".

فكم نحن اليوم بحاجة للتّأسّي بهذا السَّلف الصالح في لُطفِهم وسموِّ أخلاقهم.

خطورة ما يقع فيه كثير من المتشددين من خلال تساهلهم في تكفير المسلمين:

إن الإسلام بكل أحكامه وآدابه وشرائعه يقوم على محورٍ قُدسيٍّ هام هو وحدة الكلمة والتآلف والتآخي بين أفراد المجتمع الإسلاميّ يقول تعالى: " **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**" [آل عمران (١٠٣)]

فهذه الآية الكريمة تذكّرنا بنعمةِ توحيد الإسلام للناس الذين كانوا مُتشرذمين مُتفرّقين، ولو علِم الله شِرعةً أكثرَ ضمانةً لتوحيد الأمة وتآلفِها لَأَمَرَنا بها.

فثمرة الإسلام في **دار الدّنيا** طَيُّ عوامل الفُرقة وتحويلُ الفئاتِ المتصارعةِ إلى إخوةٍ مُتحابّين مُتآلفين.

فكان من أهمّ ضماناتِ هذه الوحدة ضبطُ التكفير بضوابطَ دقيقةٍ لا تخضع للمزاجِيّات أو العصبيّات أو الرُّعونات، لأن الحُكم بكُفرِ شخصٍ سيؤدي بعد ذلك إلى اتهامِه بمُعاداةِ الإسلام وإخراجه من عهد

المسلمين وجماعتهم.

متى ظهرت بدعة التكفير في العصر الحديث:

في القرن التاسع عشر الميلادي قام صراعٌ في الجزيرة العربية بين آل رشيد وآل سعود وقد انتصرت بريطانيا التي كانت تتزَعّم الدّول المُستعمِرة للبلاد الإسلامية، انتصرت لآل سعود.

ووجدت في شخصٍ (محمّد بن عبد الوهاب) غايتها المنشودة لاستلام الزّعامة الدينية التي اشترطت وجودَها في الجزيرة العربية، بالإضافة إلى الزعامة السياسية نظراً لمكانة الجزيرة العربية الدّينية عند المسلمين.

كان (محمّد بن عبد الوهاب) تلميذاً لأخيه (سليمان بن عبد الوهاب(وكان أخوه عالماً صالحاً، ولكنّه كان يتجاوز الحدودَ العلمية التي أخذها عن أخيه وأتى بأمورٍ بِدْعِيَّةٍ لا عهدَ للشريعةِ الإسلامية ولا للعلماءِ بها.

وهذه الفتاوى التكفيرية التي أعلنها لم يَنسِبْها إلى دليلٍ من القرآن أو السُّنَّة أو الإجماع.

وقد نصحَ (سليمان بن عبد الوهاب) أخاه بعدم الخضوع لأوامر بريطانيا فلم يَستجِب له، فألّف كتاباً للردّ عليه ولبيان بُطلان أقوالِه وعدم نِسبَتها إلى الشريعة الإسلامية.

فظهور فِكر (محمّد بن عبد الوهاب) هو الذي أدّى إلى ظهور بدعة التكفير في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.

والتسرع في التكفير والتساهل فيه يفرق وحدة الأمة ويستعدي أبناءها بعضهم على بعض.

أما الحكّام فيُفتُون بقَتلِهم بناءً على قوله تعالى: "**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ**" المائدة (٤٤)، ثم يُفتُون بكُفْرِ كلِّ من مشى بركابِهم وبالتالي يُفتُون بقَتلِهم جميعاً، ثم يتمّ دعمُ هذه الفتاوى بالمال وبوسائل القَتْل.

يقول برنارد لويس (اليهودي) في كتاب (الشرق الأوسط والغرب) ص ٤٤:

(إنّ التَّغريب في المنطقة العربية أدى إلى تفكيكِها وتجزئتِها، وإنّ هذا التفكيكَ السياسيّ واكَبَهُ تفكيكٌ اجتماعيّ وثقافيّ.

والواقعُ أنّ إلْحاقَ المنطقةِ بالغَربِ لم يكن ممكِناً إلا من طريقِ تفكيكِها وتجزئتِها عن طريق إثارةِ الفِتَنِ الطّائفيّة وافتِعالِ أسبابِ الخصوماتِ والعنف.

.... ولعلّ من يستبِعد دَورَ الغربِ في إشعالِ فَتيلِ هذا التّقاتُل واحدٌ من اثنَيْن: خادِعٌ أو مَخدوع).

هل تُثمِر محاولاتُ نشرِ الفكر التكفيريّ وبثِّ الفتنة الطائفية في بلادنا:

لن تُثمِر لسبَبَين:

الأول: أنّ اللهَ تعالى ميَّز هذه الأرضَ المباركةَ بميزةٍ تقتضي أن تَمُرَّ بها الفِتَنُ والشّدائد مروراً ولكنّها لا تتلبّث بها ولا تصل إلى المدى الـمُراد منها.

الثاني: أنّ المسلم في هذه البلاد متوازنٌ بين العاطفة والعلم بسبب إقبالِ النّاسِ على تعلُّم الدّين في المساجد والمؤسسات الدّينيّة العامّة والخاصّة، مما يجعل الجامعَ المشترَكَ بين المذاهب والفئات الإسلامية يتغلَّبُ على الخلافات.

لذلك على الدّولة أن تُغذّي هذا التوازن بين العاطفة والعلم عن طريق:

- تفعيل مناهج التربية الدّينية بمخاطبة العقل والعلم معاً والانتقال من النظري إلى التطبيق.
- تبيين تاريخ الإسلام والتعريفُ بشخص رسول الله ﷺ ومحبّته لأُمّته ورحمته بالناس جميعاً.
- تجنيد وسائل الإعلام ومختلف الفنون لنشر هذه التربية التي تضمن اجتناب الفتن الطائفية.

ونحن أمرنا أن نقاتل المشركين كونهم معتدين وليس لأنهم مشركين، فعلة القتال هي الاعتداء وليس الدين قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[البقرة: ٢٥٦]، ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾[الكهف: ٢٩]، ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾[الغاشية: ٢١].

وحساب الناس على ما يضمرون من عقيدة على رب الناس وليس على الناس في الحياة الدنيا.



الفصل الرابع:

الجهاد في الإسلام حقائق علمية نقض أوهام العصابات التكفيرية[1]

تعريف الجهاد:

هو بَذلُ الجُهدِ في سبيل إعلاء كلمة الله، والتعريفِ بالحق الذي ابتَعثَ اللهُ به الرُّسُلَ والأنبياء، والدّعوةِ إلى التّمسك بهذا الحق.

أنواع الجهاد:

الساحة الجهادية الأولى: هي ساحة الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتمُّ هذا الواجب من خلال التعريف بالإسلام ومبادئه، وإزالة الشبهات التي قد تتسلل إلى طريق فهمه والاقتناع به، والثّباتُ على الصَّدعِ بكلمة الحقّ مهما جرّ ذلك من أنواع الشِّدَّة والإيذاء، فهذا هو الأساس الأول في شرائع الجهاد وأحكامه، وهو الركن الركين فيه.

وقد استقرّ في أذهان الناس أن الجهاد إنما شُرِع بعد هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، غير أن الحقيقة ليست كذلك، فالعهد المكِّيُّ من حياة رسول الله ﷺ حَفَلَ بالجهاد كما حَفَلَ به العهد المدنيّ، والقرآن

---

(١) هذا البحث مأخوذ بتصرف واختصار من كتاب (الجهاد كيف نفهمه، وكيف نمارسه؟) للإمام الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي.

المكِّيُّ تحدّث عن الجهاد وأمر به كالقرآن المدنيّ تماماً.

إننا نقرأ في سورة الفرقان -وهي مكّيّة كلُّها- قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] أي: جاهدهم بالقرآن وحُجَجِه.

وسبب هذا الذي استقرّ في أذهان كثير من الناس أنهم حصروا الجهاد في معناه القتالي الذي شُرِعَ بعد الهجرة، ولقد أدّى هذا التصوّر إلى إزالة سِمَة الجهاد عن أهم أنواعه، وهو الجهاد باللسان والفكر والمال.

والحقيقة هي أنّ الجهاد القتالي في الشريعة الإسلامية ليس أكثر من العين الساهرة التي تحرس حقوق الأمة، وآية ذلك أن المسلمين عاشوا في مكة مع رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاماً يَتعرَّضون لأصناف من الاستهانة والإيذاء، دون أن يُؤذَن لهم بالقتال، فلم يُقابل رسول الله ﷺ إيذاء المشركين له ولأصحابه بأي مقاومةٍ قتالية، بل كان جهاده ﷺ محصوراً في الثبات على الدعوة والصبر على الأذى، فحياةُ المصطفى ﷺ في مكة بعد البعثة -والتي دامت ثلاثة عشر عاماً- كانت مقرونةً بهذا النوع الذي هو أساسُ الجهاد في حياة المسلمين وفي الشريعة الإسلامية.

ثمّ شُرِع بعد ذلك الجهادُ القتالي نتيجةً لعوارض الظروف والأحوال، فهو بمثابةِ الدّواء الذي يُلجأ إليه فراراً من الأوجاع والأمراض.

دليل الجهاد الدّعوي:

• يُفتتح باب الجهاد في كتب الفقه عادة ببيان هذا الركن الأساس منه، حتى يتبين لكلِّ دارسٍ ومُستبْصِرٍ أن الدعوة إلى الله هي الساحة الجهادية الأولى ؛ ثم يأتي دور الجهاد القتالي بأنواعه المختلفة، لكونه فرعاً عنها وحصناً لها، وهذا ما نص عليه فقهاء المسلمين في كتبهم.

• وإن جهاد النبي ﷺ منذ البعثة وحتى الهجرة كان بدعوته للمشركين باللسان، وإقامة الحجج والبراهين ورد الشبهات.

فعدم وجود نوع ثانٍ في ذلك الوقت دليلٌ على أن هذا الجهاد هو الجهاد الأساس، والنوع الثاني وُجِدَ بَعد أن ثار الكافرون على تلك الدعوة بالصدّ وتهديد القائمين بها.

يقول الله تعالى: **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾** [فصلت: ٣٣]، فقوله تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً) استفهامٌ تَعَجُّبِيٌّ لبيان أهمية هذا الجهاد، أي وهل يُوجد من هو أحسن شأناً وفعلاً وقولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ؟ فهذا هو أفضل أنواع الجهاد.

ما هي الحكمة من مشروعيّة الجهاد الدّعوي:

إن الله تعالى شرّفَنا بمعرفته ومن ثمّ فقد عَرَّفَنا على أنفسنا عباداً له، وضريبة هذه المعرفة التي هي مِن أَجَلِّ النِّعَم التي أكرمنا الله بها أن

نتوجَّهَ إلى إخواننا في الإنسانية، فنحاولَ جاهدين أن يَنعَموا بمثل هذه الـمَكرُمَة التي أكرمنا الله سبحانه وتعالى بها.

ضريبةُ محبّة الله عزّ وجلَّ لنا إذْ فَتَح عُقولَنا لمعرفة ذاتِه وفتح أفئدتَنا لمحبَّته وتعظيمِه، أن نغارَ على إخواننا في الإنسانية، فنهديَهم إلى مثل ما هُدِينا إليه.

والسبيل إلى ذلك يتمثَّل في قائمة من الوظائف هي الجهاد، وأول بندٍ فيها هو الدعوة إلى الله بمُحاورة الآخرين ابتغاءَ شَدِّهم عن طريق العلم إلى معرفة الله والإيمان به، وفتح أفئدتهم لمحبّته ومَهابته.

فالدّعوة إلى الله هي نوع من أهم أنواع العبادة التي يُتَقرّبُ بها إلى الله سبحانه وتعالى، وهي من نوع المهمة التي بُعِث بها رسول الله ﷺ، مع فارقٍ واحدٍ هو أن محمداً ﷺ كُلِّف أن يَنهض بهذه المهمة طبقاً للوحي الذي يُواكِبُه في دعوته باستمرار، أما أصحابُه والذين سيأتون من بعدهم ؛ فَمُهِمَّتُهم أن يَسلُكوا السبيلَ ذاتَه بالانضباط بالآداب التي سيتركها لهم، فهو ﷺ أُرسِل مُبلِّغاً، ونحن كُلِّفْنا أن نسير على قدمه، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. ولذلك

يقول ﷺ: (بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَة)[1].

حكم الجهاد بالدعوة إلى الله:

الجهاد بالدعوة حُكم تبليغي يَشمل المسلمين عامة، خاطب الله تعالى به عِبَادَهُ فَرداً فَرداً، وأمر كُلاً مِنهم بالنهوض بِه دُونَ وِسَاطَةِ الأئمة والحكام، لكنه يَقِفُ عِندَ حُدود الوجوب أو الفرض الكفائي، قال تعالى: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقد يَكون بِبَذلِ المال أو بالسفر لتعريف الناس بدين الله، أو بإزالة الاتهامات والشُّبُهات التي تُلصَق بالإسلام والرّدّ عليها بالطرق الموضوعية السليمة.

وأقلُّ مَسَاحَاتِ حَرَكَةِ المسلم ضِمنَ هَذِهِ الدَّعوَة هي أسرته، فعليه أن يَدعوَهم إلى الله عزَّ وجلّ، فإن تَأَتَّى له المزيدُ يَزيدُ المساحة شيئاً فشيئاً قدْرَ ثقافته وإمكاناته.

آداب الجهاد الدّعوي وشروطه:

- **العلم**: فالشريعة الإسلامية لا تُجيزُ لإنسانٍ أن يَعِظَ الناسَ

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم (٣٢٩٢)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

مَوعظةً عاطفيةً وجدانيةً فارغةً من العِلم، ولا يُشتَرَطُ أن يكون مُطَّلِعاً على كلّ علوم الإسلام، بل يَكفيه أن يكونَ خَبيراً في الأمر الذي يُريد أن يُحاور الناس فيه.

• **أن يَكون الداعي بصيراً بسُلَّم الأولويّات:** فَلَرُبَّمَا أراد أن يَنهى عن مُنكرٍ فَتَسَبَّبَ نَهيُه في وُقوعِ مُنكرٍ أَخطر منه، فيعلم أن عليه السكوت عن هذا المنكر ابتعاداً عما هو أخطر منه.

• **أن لا تَنبعث أعمال الدعوة الإسلامية إلا مِن شُعورٍ غامِرٍ بِالشفقة والرحمةِ لعباد الله جميعاً:** فعلى كُلِّ مَن جَنَّدَ نَفسهُ داعياً إلى الله أن يَجعلَ مِن قَلبِهِ وِعَاءً يَفيضُ بِالرحمةِ لِعبادِ اللهِ كُلهم، على اختلافِ نِحَلِهِم وَمِلَلِهِم وَمَشَارِبِهِم واتجاهاتهم.

ولا يتحقق ذلك إلا بأن يُضَحِّي الداعي بحظوظه الشخصية ومصالحه الدنيوية في سبيل تحقيق الخير لهم جميعاً، وهيهات أن تَكون الدعوة هي المنطلق الجهادي الأول لو لم تَكن قائمة على هذا الشرط والأساس، أوليسَ هو القائل عن رسوله محمَّد ﷺ: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فإن بقيت في نفسكَ شائبةُ رَيب، فارجع إلى حياةِ سيدنا محمدٍ ﷺ -وأنت تعلم أنه سيد الدعاة إلى الإسلام وإمامهم في ذلك- فتأمَّل مَدى رحمته بالناسِ كلهم. ألم تسمع قولَه ﷺ: (**الرَّاحِمونَ يَرْحَمُهُمُ**

الرَّحْمَن، ارْحَموا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّماء)[1]. أولم تعلم أنَّ بعضَ أصحابه قالَ لهُ: يا رَسولَ الله، ادْعُ عَلى الْمُشْرِكين، فَقالَ ﷺ: (إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً)[2]. وقد صحَّ عنهُ ﷺ أنهُ لم يُطلَب مِنهُ الدعاء على أحدٍ من الناس، مسلماً كانَ أو كافراً، عموماً أو خصوصاً، إلا وعدَلَ عن الدعاء عليه إلى الدعاء له بالرحمة والمغفرة والهداية: (اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفاً، وائْتِ بِهِمْ)[3]. وقَدِمَ طُفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ وَأَصْحابُهُ عَلى النَّبِيِّ ﷺ، فَقالُوا: يا رَسولَ الله، إِنَّ دَوْسًا عَصَتْ وَأَبَتْ، فادْعُ اللهَ عَلَيْهَا، فَقِيلَ: هَلَكَتْ دَوْس، قَالَ: (اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْساً وَأْتِ

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في الرحمة، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، برقم (٤٩٤١). وأخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، عن عبد الله بن عمروٍ رضي الله عنهما، برقم (١٩٢٤).

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، عن أبي هريرة رضي الله عنه، برقم (٢٥٩٩).

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب في ثقيف وبني حنيفة، عَنْ جابرٍ رضي الله عنه قال: قالُوا: يا رَسولَ اللهِ أَخرَقَتْنا نبالُ ثَقِيفٍ فادْعُ اللهَ عَلَيْهِم. قالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا» وقال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ».

بِهِمْ)[1].

فهيهات أن يكون الإنسان ناصحاً إذا كان مُبغضاً لمن يَنصح، وهذا لا يتعارض مع ما هو مُقَرَّرٌ من ضرورة البُغض في الله، لأنه لا يَعني أن تكون في نَفس المسلم أيّ كراهية للشخص بالذّات، بل يتّجه البُغض إلى المعصية التي تَلبَّس بها أو الكفر الذي أصرّ عليه، وهذا في حقيقته ليس إلا معنىً من معاني الشفقة على شخص العاصي، وهذا ما عَنَاهُ سيدنا لوط -على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام- عندما قال لقومه فيما رواه ربُّه عنه: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨]. فالداعي طبيب والْمَدعوّ مريض، والطبيب لا يكون طبيباً ناجحاً إلا إذا اندفع إلى تطبيب مريضه بدافع من الشفقة والرحمة.

إن معنى البغض في الله أن يبغضَ المسلم من الشخص تلبسه بالمعاصي، بحيث لا تكون في نفسه أي كراهية لشخصه بالذات، ولا ريب أن مبعث هذا البغض إنما هو الغيرة عليه والمبالغة في حب الخير له.

ولا يتأتّى الوصول إلى هذه الدرجة إلا لمن طهر قلبه من السخائم

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، برقم (٢٨٠٠). وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل غفار، عن أبي هريرة رضي الله عنه، برقم (٢٥٢٤).

والأحقاد بكَثرة الذكر والالتجاءِ إلى الله في جوف الليل، أن يأخذه من نفسه ويجعله لا يرى إلا الْمُكوِّن، عندئذٍ يأتيه التجلي الرباني ويزول غَبَش الكراهية مما بينه وبين الناس، فيَنفذ كلامه إلى قلوبهم.

وصفوة القول أن الدعوة إلى الله عبادة بل عبودية ضارعة لله، يتجه بها الداعي إلى عقول الناس وقلوبهم، لإقناع الأولى بالحق، وتطهير الثانية من الأدران والآفات، وإنما يَنهض المجتمع الإسلامي على عقول تُؤمن بالحق وتذعن له، وقلوب اتجهت إلى الله بالخوف منه والحب له.

• الدعوة إلى الله تقوم على النصيحة الطوعية لا على الأمر القسري:

فيجب أن تقف عند حدود التعريف والتذكير والنصح، فلا يجوز للداعي أن يتجاوز بها إلى درجة الإكراه والإلزام، وكم أكَّدَ البيان الإلهي هذه الحقيقة لرسول الله ﷺ، وكررها بأساليب شتى، من ذلك قولُ الله عزَّ وجلّ: **﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾** [الغاشية: ٢١ - ٢٤]. ومن ذلكَ قوله تعالى: **﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾** [الشورى: ٤٨]. ومن ذلك قوله تعالى: **﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا**

﴿الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

ولاحظ أن في هذه الآيات ما هو مدني، أي نزل بعد مشروعية الجهاد القتالي، ومعنى هذا أن الدعوة لم تتحول -في عهدٍ ما- من نصحٍ اختياري إلى أمرٍ قسريّ. فالإسلام مُعتقد يَسري إلى العقل عن طريق العلم، ثم هو حُبٌّ يَسري إلى الفؤاد تعظيماً لحرمات الله وحباً له ومخافة ومهابة منه، والداعي إلى الله يستطيع أن يُرغم اللسان، ولكنه لا يستطيع أن يدخل إلى قلب الـمَدعوّ فيُرغمه على الإيمان، ولو أنه خوَّفه بالسلاح فنطق بالشهادة فالله تعالى لا يقبل منه ذلك، يقول رسول الله ﷺ: (**إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلى أَجْسادِكُمْ وَلا إِلى صوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلوبِكُمْ**)[1].

وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فـ (لا) هنا ليست ناهية، بل هي نافية لجنس الإكراه، أي حتى ولو أردتم إكراه الناس على الدِّين لا يتأتّى لكم ذلك لأن قلوبهم بيد الله، والجملة هنا خَبريّةٌ وليست إنشائية.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، برقم (٢٥٦٤) عن أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ.

وقد سارتِ الدعوة إلى الله في عهد رسول الله ﷺ، وفي عهد الصحابة والخلافة الراشدة من بعده على هذا المنوال، واتسمت بهذه الطبيعة، ونُسِجَ من ذلك تاريخ مشهود ومقروء ليس فيه أي غموض أو لَبس.

فعندما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح لم يُجبر أياً من أهلها على الإسلام، بل خطب فيهم قائلاً: (**ما ترون أني صانع بكم**(**قالوا: خيراً، أخٌ كريم وابنُ أخٍ كريم، قال: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)**[1]. ولم يستقبل من المبايعين له إلا من سَاقَتْه إليه قدماه طوعاً...، وغادر رسول الله ﷺ مكة وفيها عدد كبير من المشركين.

فلو كانت الدعوة إلى الله تكون بالجَبْر لكان هذا خَيرُ وَقتٍ له، فرسول الله ﷺ دخل مكة من أعلى قِمَمِ النصر، ومع ذلك لم يحمل أهلها على الإسلام، بل تركهم وفيهم مُشركون.

ولما توجّه رسول الله ﷺ بعد فتح مكة إلى غزوةِ حُنين ذُكِر لِرَسولِ اللهِ ﷺ أَنَّ عِنْدَ صَفوانَ بنِ أُمَيةَ دُروعاً وأَسْلِحَة، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ – وَهُو يَومَئِذٍ مُشْرِك– فَطَلَبَ مِنهُ الدُّروعَ والأَسْلِحَة، فَقالَ صَفوان: **أَغَصْباً**

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب السِّيَر، باب فتح مكة حرسها الله تعالى، برقم (١٨٠٥٥(. وفي معرفة السنن والآثار، كتاب السِّيَر، المسلم يدخل دار الحرب فيشتري دارًا أو غيرها برقم (٥٦٧٤).

يا مُحَمَّد ؟ قالَ: (بَلْ عارِيَةٌ مَضْمونَة)[1].

وقد رُوي عَنْ غُلام لِعُمَرَ بنِ الخَطاب رضي الله عنه اسمهُ وَسْق كانَ نَصْرانيّاً، قالَ: كُنْتُ مَمْلوكاً لِعُمَرَ بْنِ الْخَطّاب، فَكانَ يَقولُ لي: (أَسْلِمْ، فَإِنَّكَ إِنْ أَسْلَمْتَ اسْتَعَنْتُ بِكَ عَلى أَمانَةِ الْمُسْلِمين، فَإِنَّهُ لا يَنْبَغي لي أَنْ أَسْتَعينَ عَلى أَمانَتِهِمْ بِمَنْ لَيْسَ مِنْهُم) قالَ: فَأَبَيْتُ ، فَقالَ: (لا إِكْراهَ في الدّين) [البقرة: ٢٥٦]، فَلَمّا حَضَرَتْهُ الْوَفاةُ أَعْتَقَني، فَقالَ: (اذْهَبْ حَيْثُ شِئْت)[2].

فإذا قام المسلمون بواجب الدعوة إلى الإسلام فقوبلوا بالاستهزاء والسخرية، فليس لهم أن يقاتلوا هؤلاء الذين سخروا منهم، وإنما يُخاطبونهم كما خاطب وفدُ نصارى الحبشة كفارَ قريش: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الجَاهِلِين﴾ [القصص: ٥٥].

---

(١) ينظر: مسند أحمد (٢٧٦٣٦)، سنن أبي داود في البيوع، باب في تضمين العارية، (٣٥٦٢) ، السنن الكبرى للنسائي، في العارية والوديعة، باب تضمين العارية (٥٧٧٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، سورة البقرة، قوله (لا إِكْراهَ في الدِّينِ) (٢٦٥٠). وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٣٤) وغيرهما، وهو في مصنَّف ابن أبي شيبة في الأيمان والنذور والكفارات، في عتق اليهودي (١٤١٠٧)، ولفظه: (عَنْ وَسْقٍ، قالَ: كُنْتُ مَمْلوكًا لِعُمَرَ، فَكانَ يَعْرِضُ عَلَيَّ الإِسْلامَ، وَيَقولُ: «لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ»، فَلَمَّا حُضِرَ أَعْتَقَنِي). وقد وقع اسمه في بعض المصادر (أسبق) وفي بعضها (أَسَّق).

• الإخلاص لله عز وجل بحيث لا تمتزج هذه الغاية بأي غاية أخرى:

فلا يَجعل الدّاعي من دعوته إلى الله وسيلةً لبلوغ منصبٍ أو للوصول إلى الحُكم، لأن الإنسان الذي يُمارس الدعوة إلى الله وهو يتأبّط مصلحةً مادية أو سياسية أو غيرها لن يُستجاب له، لأن دعوتَه تكون عبارةً عن لسانٍ يتحدّثُ بينما قلبُه يتأمّل في الأهداف التي يحلُم بها، وبمقدار ما يكون مُتَحرِّقاً على دين الله عزّ وجلّ وعلى الذي يدعوه ألا يكون غداً وقوداً لنار جهنّم، يَلقى كلامُه تأثيراً في النفوس.

أين تظهر ثمرة الجهاد الدّعَوي:

من المعلوم أن الإسلام أعطى الحرية لكل صاحب مذهب أو رأي أو اجتهاد أن يُعلن عن رأيه واجتهاده، وأن ينافح عنه بما يرى أنه الحق من الأدلة والحجج، فإن كان ذلك الرأي في حقيقته باطلاً مخالفاً لنصوص القرآن والسنة الصحيحة، فإن على أئمة الدِّين وعلمائه أن يَدحضوا الباطل بالحق، ويكشفوا عن الزغَل بالحوار والنقاش. وهذا هو النهج الذي سار عليه المسلمون في العصور الذهبية للإسلام، وفي عصر السلف الصالح رضوان الله عليهم، فقد تكاثرت فيه الفرق الجانحة، كالمعتزلة والمرجئة والحشوية والخوارج وغيرهم...، فلم تُغلق في وجه أي منهم أبواب حرية البحث والنقاش

وإعلان المذهب والرأي، بل كان مسجد البصرة والكوفة يَعج كل منهما بحلقات علمية تنتمي إلى كل هذه المذاهب وغيرها.

وعندما ذابت تلك المذاهب والفرق، وانطوت في تيار السواد الأعظم للأمة، لم يَكن ذلك نتيجة أي قَمع أو خَنق لأصوات تلك المذاهب أن تُعبر عن رأيها أو أن تُدلي بحجتها، وإنما كان نتيجة التلاقي المستمر في حلقات المناقشة والحوار، وها هو ذا سجل كثير من تلك المناقشات باقٍ ومتداول إلى هذا اليوم.

ولو جاز في الإسلام قَمعُ المذهب المخالف، لما تأتى الأمر بمجادلة قومه في قوله عزَّ وجلّ: ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل: ١٢٥]، إذ كيف تتم مجادلة من لا يَملك أن يُعَبر آمناً مطمئناً عن رأيه.

ولكن لا بدَّ من ملاحظة نأخذها بعين الاعتبار: أن الحرية الذاتية النابعة من قناعة صاحبها، دون التي يكون مدفوعاً إليها من جهةٍ أجنبية، كما هو الشأن اليوم بالنسبة لكثير من الأنشطة التي تتسرب إلينا من الخارج، ثم تستقر فيما بيننا تحت سلطان الحرية والحق الديمقراطي.

الفرق بين الحركية الإسلامية وجهاد الدعوة إلى الله:

إن كلمة "الدعوة" تدلُّ على معنىً لا يَتحقَّقُ إلا من خلال طرفين اثنين:

- داعٍ يُرشد ويبيّن ويدعو.

- مَدعوّ يَنطق واقعه بالحاجة إلى مَن يُرشده ويُبين له الحق، ويأخذ بيده لِيُنهِضَهُ مِن عثراته الفكرية، ويُحرره مما عَلِقَ بِهِ مِن شُبهات وأوهام.

إن الدعوة التي يَفهمها ويُمارسها أكثر الجماعات الإسلامية اليوم، ليست أكثر من أنشطة تدورُ حصراً بين أفرادها أنفسهم ! وتتمثل هذه الأنشطة -كما هو معروف- في مناقشات تدور بينهم حول المستجد من أوضاع المسلمين، والمشكلات التي تطوف بهم أو يعانون منها، وفي تحليل وتقويم واقع الحكومات والأنظمة القائمة في بلادهم خاصّة، أو في البلاد الإسلامية عامة، ثم في رسم الخطط التي تتكفَّل بترسيخ وجود أفضل وأكثر قوة لهم، على طريق السعي للوصول إلى مناطق الحكم والنفوذ، ثم في التحرك التعاوني المنظم لتنفيذ هذه الخطط بالسبل المتنوعة الممكنة.

فهل هذه هي الدعوة التي أمر الله عزَّ وجلّ بها في قوله: **﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** [النحل: ١٢٥]، إنك لتنظر، فترى أن برزخاً كبيراً يفصل بين تلك الجماعات التي تنشَط نشاطها الحركي الذي أوضحناه، وهذا الخليط من التائهين والجانحين والجاهلين.

كلُّ هذا، في حين أن الإسلاميين أو الجماعات الإسلامية

منصرفون إلى أنشطتهم الحركية الخاصة بهم والدائرة فيما بينهم، والهمّ الذي ينامون عليه ويستيقظون عليه هو كيفية وصولهم إلى الحكم، ومع ذلك فهم عند أنفسهم وقناعاتهم يُمثلون طليعةَ الدعاةِ إلى الله، من خلال هذا العمل الحركي !.

فمجتمعاتنا العربية والإسلامية بمقدار ما تفور بأنشطة الجماعات الإسلامية المتكاثرة، تعاني من الفقرِ الشديد والركود الخطير في مجال أعمال الدعوة إلى الله !.

الداعي إلى الله بحق، يجيشُ وقودُ الدعوة بين جوانحه، في ضرام الحقيقة النبوية القائلة: (**لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَم**)[1]، فهو يتجه بأمل الهداية إلى الأفئدة والعقول، ويتعلق منهُ الطمع بعد ذلك برضا علام الغيوب، وينتظر من حصاد دعوته تربيةً قويمةً تَشيعُ بينَ الأفراد، واستقامةً على الخُلُق السليم والسلوك الرشيد في علاقة ما بينهم على كل المستويات.

أما الْمُتحرِّك سعياً إلى نصرة جماعته أو حزبه، فهو إنما يتجه بهم في حركة تكتيكية إلى مقاليد الحكم، ومن ثمَّ فهو أبعد ما يكون عن

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل، برقم (٣٠٠٩) عن سهل ابن سعد رضي الله عنه. وأخرجه مسلم في الفضائل، باب من فضائل علي رضي الله عنه، برقم (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

الاهتمام بإصلاح القلوب وإقناع العقول وتهذيب النفوس، وإنما همّه - بل كلُّ همّه- محصورٌ في أن يَقتنع الناس بضرورة إبلاغه إلى سدة الحكم والقيادة، ليُريَهم كيف يُفجّر لهم من نظامه الذي ينادي به جنة تزخر بأمواج السعادة للجميع، -حسب زعمه- بعد وصوله للحكم.

الجهاد القتالي:

مقدمة:

إن الجهاد الذي شرّف الله به هذه الأمة منذ فجر حضارتها لا يقوم على شيءٍ من دوافع العصبية أو العنصرية أيّاً كان نوعه، فلم يكن الجهاد يوماً بقصد القتل والاقتتال الذي تدور رحاه على البرآء الآمنين، بل إن هذه الصورة المشوهة للجهاد يُراد مِنها خنق الجهاد باسم الجهاد.

لماذا شرع الله تعالى للمسلمين الجهاد القتالي:

لم يكن للمسلمين في مكة وراء العقيدة التي يدعون إليها ويُحاورون في سبيلها أي حق ثابت ينهضون لحراسته ويقاتلون في سبيله إن اقتضى الأمر، ومن ثم لم يكن للجهاد القتالي أي موجب، ومن ثم لم يكن له أي وجود آنذاك، بل لقد علمنا أن النبي ﷺ ما كان يَستقبل عدوان المشركين له إلا بمزيد من الشفقة عليهم والرحمة لهم! فما حَرَّكَ لِسانه بكلام قاسٍ لهم أو بدعاءٍ عليهم، حتى في أحلَكِ الساعات وأقسى الظروف التي مرت به وبالمسلمين في تلك السنوات الطوال التي أمضوها في مكة.

فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد أسلم أكثر أهلها، نشأت أول دولة إسلامية بعد أن توفرت لها العناصر الثلاثة اللازمة لقيام أي دولة:

١- الأرض: حيث أصبح للمسلمين أرض تحميهم من أعدائهم، ويقدرون فيها على إظهار دينهم.

٢- الأمة الواحدة.

٣- النظام السُّلْطَويّ: الذي يَجمع الأمة الواحدة، وينظم العلاقة بين أفرادها ؛ مُكوّناً من أحكام الدين وتعاليمه.

فكان على المسلمين أن يَتحمّلوا مسؤولية حفظ هذه المَكرمة التي أكرمهم الله بها، ويدفعوا غائلةَ الْمُعتدين الذين بَدؤوا يتحرَّكون خوفاً من اتساع سلطة الدولة الإسلامية، فشَرَعَ اللهُ تعالى لهم القتال حِفاظَاً على هذه الدولة ودفاعاً عنها، ونزلت أول آية بشأنه وهي قوله عز وجلّ: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾ [الحج: ٣٩].

فرسول الله ﷺ لم يُقاتل في سبيل الحصول على دار الإسلام، ولم يُقاتل في سبيل بناء دولة إسلامية، أو إيجاد حشد من المسلمين تتألف منهم تلك الدولة ويتحقق بهم نظامها، وإنما قاتل بعد أن منحه الله ذلك كلَّه، حِراسةً له ودفاعاً عنه. فالجهاد القتالي إنما شرعه الله تعالى حِمايةً لموجود لا في سبيل إيجاد شيء معدوم.

وهذا هو سبب ارتباط مشروعية الجهاد القتالي بالهجرة إلى المدينة، وليس السبب -كما يتوهم البعض- أنّ المسلمين كانوا في

مكة قلة ضعفاء، إذ إن المسلمين كانوا في الكثير من المعارك التي خاضوها أقلّ من أعدائهم عدداً وأضعف عُدة، وقد غرس البيان الإلهي في قلوب المسلمين وعقولهم أن قِلَّتَهم لن تكون سبباً لِتغلُّبِ الأعداء عليهم، قال تعالى: ﴿**كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٤٩].

هل الجهاد القتالي لدرء الحرابة أم للقضاء على الكفر؟

مفهوم الحِرابة: يُطلق عندما تَظهر وتَتجلى لنا أدلّة واضحة ثابتة على تَبييت نية العدوان، أو ثبوت التخطيط للعدوان، أو الْمُباغتة العدوانية. وهو المعنى المتداول حتى بين الدول بعضها مع بعض.

وتدلّ الآيات الصريحة في كتاب الله تعالى على أنّ مُوجب قتال المسلمين لغيرهم إنما هو العدوان الصادر منهم، وهي آيات كثيرة نزلت في سور متفرقة، ومنها ما نزل قبل وفاة رسول الله ﷺ بأشهر.

منها قول الله سبحانه وتعالى: **﴿لا يَنْهَاكُمْ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾** [الممتحنة: ٨].

كما تَدلُّ أحاديث رسول الله ﷺ على النَّهي عن مُقاتلة غير الذي يُواجه المسلمين بالقتال والعدوان وإن كانوا كفاراً، فلو كان الباعث على القتال كفراً لاستوى في موجب القتل هؤلاء وغيرهم.

كما يدل على ذلك وصية سيدنا أبي بكر لجيش أسامة رضي الله عنهم أجمعين، فقد جاء فيها: (**إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْماً زَعَموا أَنَّهُمْ حَبَّسوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ، فَذَرْهُمْ وَما زَعَموا أَنَّهُمْ حَبَّسوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ،... وَإِنّي** موصيكَ بِعَشْرٍ: **لاَ تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلاَ صَبياً، وَلاَ كَبيراً هَرِماً، وَلاَ تَقْطَعَنَّ شَجَراً مُثْمِراً، وَلاَ تُخَرِّبَنَّ عامِراً، وَلاَ تَعْقِرَنَّ شاةً وَلاَ بَعيراً، إِلاَّ لِمَأْكُلَةٍ،**

وَلاَ تَحْرِقَنَّ نَخْلاً، وَلاَ تُفَرِّقَنَّهُ، وَلاَ تَغْلُلْ، وَلاَ تَجْبُنْ)[1].

تفيدنا الأدلة السابقة -وغيرها كثير- أن الكفر يُعالج بالدعوة والتبليغ والحوار، وأن الحرابة "العدوان" تُعالج بالقتال، وما من آية نزلت في الجهاد القتالي إلا ونرى فيها أو في الآيات التي تحيط بها ما يُبرز أنَّ علَّة القتال هي الحرابة، أو نية العدوان والقتال، سواء في ذلك ما نزل مباشرة بعد الهجرة أو في آخر حياة النبي ﷺ.

فالجهاد القتالي لم يُشرَع لـجَبر الناس على الإسلام -كما يحلو لبعض المفتئتين من محترفي الغزو الفكري أن يقولوا- ومتى كان الإسلام الذي يُساق الإنسان إليه كرهاً إسلاماً مقبولاً عند الله ؟! إذن لاسْتَوى المنافق والمؤمن في ميزان الله عز وجل، وأنى يكون ذلك ؟! وإنما شُرِع لحالةٍ طارئةٍ وهي العداوة التي استشْرَت لدى القبائل العربية ضد الدولة الإسلامية، وكذلك العداوة التي ظهرت من الحضارة الرومانية والساسانية وغيرهم، والدليل على ذلك ما ذكرنا من القرآن والسُّنَّة وعمل الصحابة ومَن بعدَهم.

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو.

شُبُهاتٌ حول نصوص:

- **هل يتعارض حديث (أمرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتّى يشهدوا أن لا إله إلا الله(مع ما سبق؟**

غير أن شيئاً واحداً يُشكلُ على فَهم هذا الذي أوضحناه، ويمدُّ غَاشيةً من الغموض والاضطراب عليه، وهو الحديث الذي رواه ابنُ عُمَرَ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ: (**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسولُ اللهِ، وَيُقيموا الصَّلاةَ، وَيُؤْتوا الزَّكاةَ، فَإذا فَعَلوا ذَلِكَ عَصَموا مِنِّي دِماءَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلامِ، وَحِسابُهُمْ عَلى اللهِ**»[1]. لقد كان الحديثُ مُشكِلاً حَقّاً لو كان نصهُ هكذا: "أُمِرتُ أن أَقتُلَ الناس...".

أما التعبير "أقاتل" وهي الكلمة التي عبَّرَ بها رسولُ الله ﷺ فيما أجمعَ عليه الرواة، فليسَ فيها لدى التحقيق ما يُناقض النصوص والدلائل التي أطلنا في بيانها، ومن ثَمَّ فليسَ في فهم الكلمة أي إشكال.

وبيان ذلكَ أن كلمة "أقاتل" على وزن "أفاعل" تدلُّ على المشاركة،

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم﴾ برقم (٢٥). وأخرجه مسلم في الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، برقم (٥٤).

فهي لا تصدق إلا تعبيراً عن مقاومة من الطرفين، بل هي لا تَصدّق إلا تعبيراً عن مقاومةٍ لبادئٍ سبق إلى قَصدِ قَتلٍ، فالمُقاوم للبادئ هو الذي يسمى مُقاتِلاً، أما البادئ فهو أبعد ما يكون عن أن يُسمّى مُقَاتِلاً، بل هو في الحقيقة يسمى قاتِلاً بالتوجّه والهجوم أو بالفعل والتنفيذ، إذ لا ينشأ معنى الاشتراك إلا لدى نهوض الثاني للمقاومة والدفاع.

إذاً فما هو معنى الحديث على ضوء هذا الذي أوضحناه ؟

معناه: أُمرتُ أن أَصُدَّ أيَّ عدوان على دعوتي الناسَ إلى الإيمان بوحدانية الله، ولو لم يتحقق صدُّ العدوان على هذه الدعوة إلا بقتال المعادين والمعتدين فذلكَ واجبٌ أمرني اللهُ به ولا محيصَ عنه.

فإذا وَجد المسلمون من يحاول أن يُكمِّم أفواههم ويمنعهم من الإنفاذ بكلمة الدعوة إلى الله عزّ وجلّ وأصرّ على ذلك، فهذا نوعٌ من الاعتداء، ولهم عندئذٍ أن يواجهوا ذلك بالقوة إذا وُجدَت لدى المسلمين الـمُكنة اللازمة، ولا يُشترط بعد ذلك استجابة الناس لهذه الدّعوة، فمهمّة المسلمين تبليغ الدعوة إلى الناس، وتعبيد السّبُل إلى ذلك، **ثمّ عليهم أن يتركوا للناس حرّيّتهم في الاستجابة أو عَدَمِها.**

- **معنى حديث (بعثت بالسيف حتى يُعبد الله لا شريك له):**

الحديث الذي رواه ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: (بُعِثْتُ

بالسيف حتى يُعْبَدَ الله لا شريك له، وجُعل رِزقي تحت ظل رُمْحِـي)[1] حَديثٌ مُجمَلٌ -كما قال كثيرٌ من العلماء- وجملة (بعثت بالسيف) تحتمل معنَيَيْن:

١- إكراهُ الناس على الإسلام حتى يُعبَد الله وحده لا شريك له.

٢- حَمْلُ السلاح في وجه كل من يُعارض الدَّعوة إلى الله، ويمنع من إبلاغ كلمة الله عزّ وجلّ إلى الناس.

فأيُّ المعنَيَيْن هو الصحيح ؟

من قواعد أصول الفقه أنه **لا يجوز أن يُفسَّر القرآن إلا على ضوء القرآن والسّنّة، ولا يجوز أن تُفسَّر السُّنّة إلا على ضوء القرآن والسّنّة**، فلا يَجوز لنا أن نَلتقط حديثاً ونسجنَ أنفسنا فيه وحده، ثم نحاولَ تفسيره لأننا سنخطئ.

إذا عرضنا هذا الحديث على سُنَّة رسول الله ﷺ القوليّة والفعليّة، نجد أنه ﷺ لم يُجبر أحداً على الدخول في الإسلام كما أوضحنا سابقاً، بل إنه ﷺ دافع عن قبيلة خُزاعة رَغم شركها، وما كان فتح مكة إلا لذلك، كما أنه ﷺ تكفّل بدفع دِيَةِ رَجلَين مُشركَين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمري خطأً، كما قال ﷺ: (ألا لا يُفْتَنَنَّ نَصراني عن نصرانيته، ولا

---

(١) أخرجه أحمد، مسند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (٤٩٦٤).

يُفْتَنَنَّ يهودي عن يهوديته)[1].

فعلى ضوء كل ما سبق لا يمكن أن يكون معنى (بعثت بالسيف) إجبارُ الناس على الإسلام، لأننا لو فسرناه بهذا المعنى فإننا نمزّق كل أحاديث رسول الله ﷺ المخالفة لمعنى الإكراه على الدخول في الإسلام.

إذن فمعنى قوله ﷺ: (بُعِثْتُ بالسيف حتى يُعبَد اللهُ لا شريك له) أي: **كُلِّفتُ أن أقاتلَ كُلَّ مَن أرادَ أن يَصدَّني عن الدعوة إلى الله، ويغلقَ عليَّ سَبيلها ويَكُفَّ لساني عنها**، وهذا ما أجمع عليه الفقهاء.

أما قوله ﷺ: (**وجُعِل رزقي تحت ظل رمحي**) فهو كقوله: (**أُعْطيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلي، كانَ كُلُّ نبي يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لي الْغَنائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لأَحَدٍ قَبْلي، وَجُعِلَتْ لي الأَرْضُ طَيِّبَةً طَهوراً وَمَسْجِداً، فَأَيُّما رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ صَلَّى حَيْثُ كانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسيرَةِ شَهْرٍ،**

---

(١) ينظر: معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني (٢٧٢٢) السنن الكبرى للبيهقي في الجزية، باب كم الجزية (١٧٣٦٤)، الأموال للقاسم بن سلام في سنن الفيء، باب الجزية (٤٥، ٥٧).

وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ)[1] أي إذا انجلى القتال بين المسلمين وأعدائهم عن غنائمَ تركها الأعداء، فإن الله قد أحلّها للمسلمين، وهذا المعنى صريح واضح في قوله ﷺ: (**وأحلت لي الغنائم، وحرمت على من كان قبلي**) وعلى ضوئه نفسر (**وجُعِل رزقي تحت ظل رُمحي**) فكلمة (ظل رمحي) هنا كناية عن الحرب، والمعنى: جعل الله لي هذه الغنائم رزقاً حلالاً، فالغنائم التي يَتركها الأعداء تُصبح ملكاً للدولة الإسلامية، وتوزّعها طبقاً لنظامٍ شرعي معروف في الفقه الإسلامي.

فالقاعدة إذن أننا إذا استشكَلنا آية في كتاب الله تعالى أو حديثاً للنبي ﷺ، فينبغي تفسيره على ضوء بقية الآيات والأحاديث المُتعلقة بالموضوع نفسِه، ولن نَجدَ عِندئذٍ تَناقضاً أو تعارضاً، وهذا معنى قول علماء الأصول: "يُفسَّر العامّ من كتاب الله عزّ وجلَّ على ضوء الخاصّ، ويُفسَّر المُطْلَق على ضوء المُقَيَّد".

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥) ومسلم في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) عن جابر رضي الله عنه.

متى يَملك المسلمون حَقّ الجهاد القتالي ؟

إن المقاومة المشروعة للحرابة لا تكون مَحصورة في وقوع العدوان فقط، بل يَحقُّ للمسلمين التصدي، بل البدء بالهجوم على من بيّتوا في أنفسهم هذا القصد، شريطة أن تستبين دلائله، وذلك حسب ما يراه خليفة المسلمين أو رئيس الدولة في كل عصر.

وهذا ما كان رسول الله ﷺ يفعله في كثير من الأحيان، يُسابق بذلك كيدَ المشركين ومَن معهم، كي يُفوّت عليهم الفرصة، إذ إن السرعة الخاطفة هي عَصب النصر في الحرب، وإنما يَمتلك النصر فيها من امتلك فيها زِمام المبادرة، ومن هنا انقسم الجهاد القتالي في حياة سيدنا رسول الله ﷺ إلى قسمين:

١- **حرب دفاعية**: كما في غزوة بدر وأحد.

٢- **حرب هجومية**: كما في غزوة خيبر، حيث عَلِم رسول الله ﷺ أن حِلفاً خَفياً قد تمَّ بين يهود خيبر وقبيلة غطفان، لاتخاذ موقف موحد ضد المسلمين، وكانت غطفان تُؤيد اليهود في أي عمل عدواني يواجهون به المسلمين، فكان أنْ أسرع رسول الله ﷺ فقطع الطريق بينهم وبين غطفان، وبيّتهم بغارة مُباغتة.

وكما في غزوة مُؤتة التي جاءت بعد عدوانٍ وَحشيٍّ من ملك بصرى، عندما أخذته العزَّة، فعَدا على رسول رسول الله ﷺ إليه

(الحارث بن عمير الأزدي(فقتله، وقد كان الرسل -ولا يزالون- في عُرْفِ العالم كلِّه، فوق مُستوى التعرض لأي خطرٍ أو إيذاء.

لقد شهد تاريخُ الفتوحات الإسلامية التي كانت بقيادة رسول الله ﷺ، ثم التي كانت بقيادة الخلفاء من بعده، أنه ما من غزوة عُقِد لواؤها إلا وكانت رداً على عدوان واقع أو مُتوقَّع، أي عدوان خفي يُخَطَّط له، والقاعدة العسكرية تقضي بالإمساك بزمام المبادرة وتفويت الفرصة على الأعداء في الهجوم على ديار المسلمين.

آداب الجهاد القتالي:

- **لا يجوز مقاتلة الذين لا يواجهون المسلمين بالقتال والعدوان وإن كانوا كفاراً:** فلا يجوز مقاتَلة الرهبان الذين نذروا أنفسهم للعبادة، ولا الرجال غيرِ المقاتِلين، ولا مقاتلة النساء ولا الشيوخ، ولا الأُجراء الذين أُرغموا على الخروج للقتال، عَنْ رَباحِ بْنِ رَبيعٍ رضي الله عنه قالَ: كُنّا مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ في غَزْوَة، فَرَأَى النَّاسَ مُجْتَمِعينَ عَلَى شَيْءٍ، فَبَعَثَ رَجُلاً فَقالَ: (انْظُرْ عَلامَ اجْتَمَعَ هَؤُلاءِ؟) فَجاءَ فَقالَ: عَلَى امْرَأَةٍ قَتيلٍ. فَقالَ: (ما كانَتْ هَذِهِ لِتُقاتِلِ) قالَ: وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ خالِدُ بْنُ الْوَليدِ، فَبَعَثَ رَجُلاً

فَقالَ: (قُلْ لِخالِدٍ لا يَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلا عَسيفاً)[1].

كما يَدل على ذلك وصية سيدنا أبي بكر لجيش أسامة رضي الله عنهم أجمعين التي ذكرناها سابقاً.

أما مُهَاجَمة الناس الآمنين في بيوتهم فجريمةٌ شنعاء جاء الإسلام ليقضي عليها لا ليُبرِّرَها.

فالجهاد القتالي لا ينتقم من الأعداء وإنما يَدفع العدوان، والشريعة الإسلامية تُذكّرنا ألا نلقي الإنسانية دَبْرَ آذانِنا حتى في حالة الحرب، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾

[التوبة: ٦]

• **لا يجوز أن يَتطلّع المسلمون إلى اقتناص شيء من أموال أعدائهم:** عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصارِ قالَ: خَرَجْنا مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ في سَفَرٍ فَأَصابَ النّاسَ حاجَةٌ شَديدَةٌ وَجَهْدٌ، وَأَصابوا غَنَماً فانْتَهَبوها، فَإِنَّ قُدورَنا لَتَغْلي إِذْ جاءَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَمْشي عَلَى قَوْسِهِ، فَأَكْفَأَ قُدورَنا

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في قتل النساء، برقم (٢٦٦٩). وأخرجه الترمذي في السير، باب في النهي عن قتل النساء، برقم (١٥٦٩). وأخرجه ابن ماجه في الجهاد، باب الغارة والبيات وقتل النساء، برقم (٢٨٤٢). وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. والعسيف: الأجير.

بِقَوْسِهِ، ثُمَّ جَعَلَ يُرَمِّلُ اللَّحْمَ بِالتُّرابِ، ثُمَّ قالَ: (إِنَّ النُّهْبَةَ لَيْسَتْ بِأَحَلَّ مِنَ الْمَيْتَةِ) أَوْ (إِنَّ الْمَيْتَةَ لَيْسَتْ بِأَحَلَّ مِنَ النُّهْبَةِ)[1].

• **لا يَجوز أن يُقاتِل المسلمون المسلمين بحُجَّة أنهم أعوان للظَّلَمة:** والدليل على ذلك قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه الذي أرسل كتاباً لقريش يُحذِّرهم فيه أن رسول الله ﷺ عازمٌ على القدوم إلى مكة فاتحاً[2]، ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ -وقد علم بالذي فعله حاطب- لم ينزع عنه صفة الإسلام، ولم يَحكم عليه بقتلٍ ولا إيذاء، ولم يَزِد على أن نصحه واستتابه مع أن الذي قدَّمه لقريش -وهم كفار حربيون- من المساعدة والعَونِ لا يُقدِّم مِثلَه جُلُّ مَن يُسمَّون اليوم بأعوان الظَّلَمة.

---

(1) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في النهي عن النهبة إذا كان في الطعام قلة، برقم (٢٧٠٥).

(2) تنظر القصة عند البخاري في الجهاد والسير، باب الجاسوس، برقم (٣٠٠٧) وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم، برقم (٢٤٩٤).

الخاتمة: الفرق بين الجهاد والهرج (الفوضى):

لقد فرَّق الله سبحانه وتعالى في مُحكم تبيانه وبيَّنَ رسول الله ﷺ في سنته الثابتة الفرق جلياً بين الجهاد المبرور الماضية شرعته إلى يوم القيامة، والهرج الذي حَذَّر منه رسول الله ﷺ وحذر منه كتاب الله سبحانه وتعالى، بَيَّنَ الله وبيَّنَ رسول الله ﷺ الفرق بينهما جلياً كبيراً لا يَترك بينهما مجالاً لِلَبْسٍ.

أنبأنا المصطفى ﷺ أن الجهاد إنما هو مقاتلة الأعداء الذين أعلنوا الكيد للإسلام والمسلمين، واستمرؤوا السير إلى اغتصاب حقوقهم والنيل من مبادئهم وقيمهم، وهو ما قَد بَيَّنَه كتاب الله بعبارة صريحةٍ واضحة، لا تَقبل تأويلاً ولا التباساً، عندما قال: ﴿**إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [الممتحنة: ٩].

هذا هو الجهاد، وهؤلاء هم المجاهدون، بَيَّن ذلك كتاب الله بِنَصٍّ صريح قاطع، وبيَّنه لنا رسول الله ﷺ بعبارات شارحة لا تَدع مَجالاً لِلَبْس.

ثم إنه ﷺ بيَّنَ لنا الهرج، وميز بينه وبين الجهاد، وأوضح لنا أن الهرج هو أن يَتصادم المسلمون فيما بينهم بقتال انتصاراً لعصبة أو غضباً لعصبة أو سيراً تحت رايةٍ عُمِّيَّة -أي سيراً تحت رايةٍ لا تعلم من

يحملها وإلى أي غايةٍ يسير بها- هذا هو الهرج الذي بَيَّنَه لنا رسول الله ﷺ، ثم حَذر منه أيما تحذير ؛ فقال: (**مَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتي، يَضْرِبُ بَرَّهـا وَفاجِرَها، وَلا يَتَحاشَى مِنْ مُؤْمِنِها، وَلا يَفي لِذي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فَلَيْسَ مِنّي وَلَسْتُ مِنْه**)[1].

إذاً قد أوضح الكتاب المبين -كتاب ربنا جل جلاله- ومن ثم شَرَحَ لنا رسولنا محمد ﷺ الفرق بين الجهاد المبرور الماضي إلى يوم القيامة، وبين الهرج الذي هو علامة من علامات قيام الساعة، والذي هو أخطر بابٍ وأوسع بابٍ إلى الفتنة الدهماء، ومع ذلك فإننا لنسمع ونرى ما لا يصدقه العقل، نرى أناساً يزعمون أن الجهاد قد التبس عليهم بالهرج، يَدعون إلى الهرج ويرفعون لواءه، ويزعمون أنه الجهاد في سبيل الله، يأمرون بما نهى رسول الله ﷺ عنه، يأمرون بما حذر منه كتاب الله عز وجل، ويقولون إنه الجهاد، ويعرضون عن الجهاد الذي أمر به رسول الله ﷺ ويخذِّلون منه.

ثم إننا ينبغي أن نتساءل عن النتيجة التي يُحقِّقها الجهاد الذي أمر به الله عز وجل، والنتيجة التي يستثمرها الهرج الذي نهى عنه رسول الله ﷺ، بل نهى عنه كتاب الله عز وجل:

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة، برقم (١٨٤٨).

- أما الجهاد المبرور الذي أعلن عنه بيان الله قائلاً: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾[البقرة: ١٩٠].

تنفيذ هذا الأمر الإلهي والسير إلى ما أمر الله به بالجهاد يرفع رأس الأمة عالياً، يجعلها تتفيأ ظلال الأمن والسلم الحقيقيين، يجعلها تمتلك حقوقها المادية والمعنوية، يَجعلها عزيزة في نفسها منيعة في أعين أعدائها، هذه هي ثمرة الجهاد الذي أمر به كتاب الله عز وجل وأمر به رسول الله ﷺ، الجهاد الذي يخذِّل منه الذين يصرون على الدعوة إلى الهرج.

- أما الهرج -وهي تسمية اختارها رسول الله ﷺ- فما هي عاقبة الهرج، ما هي عاقبة تصادم المسلمين بالقتال ؟ لا يدري -كما قال رسول الله ﷺ- القاتل فيما قَتَل، ولا يدري المقتول فيما قُتِل.

عاقبة ذلك أن تتسع دائرة الأحقاد السائرة بين المسلمين بعضهم مع بعض، وأن تتحول الأحقاد إلى ثأر يهيمن على النفوس والقلوب، ومن ثم فإن الوطن يَهلك ويتمزَّق تحت سنابك هؤلاء المتقاتلين، الأغنياء يتحولون إلى فقراء مُدقِعين، والفقراء يتحولون إلى جائعين، يهلكهم الجوع ويشيع فيما بينهم البؤس والهلاك، يتحوَّل الوطن الواحد إلى قطع مُبَضَّعَةٍ، ويتحول إلى فئات مُتقاتلة متخاصمة، فئات تغرق في بحار من الدماء فيما بينها، والإصلاح الذي يتحدث عنه

المسلم أين مكانه ؟ ليس له مكان إطلاقاً أمام هذا البلاء الماحق، أمام هذا الهلاك الذي يَحيق بالأمة وبالوطن، الديار تتهاوى والقتل يستحر، والدماء تتحول إلى أنهر، ومتى يُمكن لهذه الأمة أن تنهض من كبوتها ؟ لَسوف يَمر العقد والعقدان وثلاثة عقود، ولا تستطيع هذه الأمة أن تستيقظ من البلاء الماحق الذي أحاط بها، لا يُمكن للخراب أن يتحوَّل إلى عمران خِلال هذه المدة، وما السبب ؟ السبب هو الهرج.

أرأيتم إلى النتيجة التي يُحقِّقها الجهاد بالمعنى الذي شرعه الله، وبالمعنى الذي بيَّنَه لنا رسول الله ﷺ ؟

أرأيتم إلى الأثر المهلك المرعب الذي يُثمره الهرج الذي هو علامة -كما قال رسول الله ﷺ- مِن أقسى وأخطر العلامات الدالة على قرب قيام الساعة ؟.

لا شَك أن احتلال العدو المشترك لأرض إسلامية من أكبر المصائب التي تحيق بالمسلمين، ولكن هذه المصيبة لا يُمكن أن تَتسرب إلى أرضٍ مِن بلاد الإسلام إلا من خلال بوابة واحدة لا ثاني لها، هذه البوابة هي الفتنة التي حَذر منها رسول الله ﷺ. فمن خلال هذه البوابة يَتسرب العدو إلى أرض المسلمين، ويبسط يده عليهم، ويغتصب حقوقهم.

وما هو المعنى الملخص للفتنة التي تحدث عنها رسول الله ﷺ حديثاً ضَافِياً ؟

هي تتلخص في عدوان المسلمين **بعضهم على بعض**، كُل مَا حدثنا عنه رسول الله ﷺ من الفتن وأنواعها يتلخص في هذا الشيء، عُدوان المسلمين بعضهم على بعض، وأحاديث الفتنة كثيرة جداً، وكلها يدور على هذا المعنى.

تأمَّلوا مثلاً في قوله ﷺ، فيما يرويه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (**لا تقوم الساعة حتى تقتلوا أئمتكم، وتعتلجوا بسيوفكم -أي تتقاتلوا أنتم المسلمين بأسلحتكم- ويرث دنياكم شراركم**).

انظروا إلى قول رسول الله ﷺ، فيما يرويه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه -بَيت سرّ رسول الله ﷺ- أنَّه ﷺ قال: (**أما والذي نفسي بيده ستكون فِتَنٌ القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي**) **قال حذيفة: أرأيتَ يا رسول الله إن دَخل دَاري وشهر سيفَهُ عَليَّ وبسط يديه ليقتلني ؟ قال: (كُن كخير ابْنَيْ آدم). أي كُن كما قال خَير ابْنَيْ آدم: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ﴾** [المائدة: ٢٨].

وسائر أحاديث الفتن تدور على هذا المحور ! إنها تتمثل في

عدوان المسلمين بعضهم على بعض بذرائع مُختلفة يُبرِّرها الشيطان، ويحذر مِنها الرحمن سبحانه وتعالى.

وإني لأَذْكُر -ولعلكم جميعاً تذكرون- يوم كانت تنشر بذور هذه الفتنة التي نشهد ثمارها اليوم، يوم كانت تنتشر بذورها متمثِّلة في كُتُبٍ تُوزَّع مجاناً في مشارق الأرض ومغاربها، تنطوي على تكفير المسلمين، على تبديع المسلمين، على تحليل دماء المسلمين.

وكنا نقول: أيها الناس ! إنها بذور لفتن، وإن هذه البذور إذا استنبتت لن تُنبت إلا الحناظل، وإنها ستتفجر بالفتن التي حَذَّرَ مِنها رَسول الله ﷺ، ولكن لم يَكن الذين يَنثرون وينشرون هذه البذور، لم يكونوا يسمعون هذا التحذير قط، كانت هُنالك قِوىً ولا شك تدعم هذا العمل، تدعم هذا النثر والنشر ؛ مِن أجل أن تتفتح بوابة الفتنة، فيتسرَّب العدوان من خلال هذه البوابة.

ما المبرر ؟ ارجعوا إلى بذور الفتن، البذور التي كانت تتمثل في الكتب المكفرة: إنهم أعوان سلطة، إذن فهم كفرة، إذن ينبغي أن يقتلوا.

أي دين قالها ؟

أي آية قالها الله عز وجل نصت على حكم بإطلاقه ؟

أي حديث نبوي صحيح عن رسول الله ﷺ تضمَّن هذا ؟

الذي يَعرفه المسلمون أن الإسلام يَتضمن نقيض ذلك، لا نعلم

أن هنالك مَن كان عوناً لأعداء المسلمين، مثل حاطب بن أبي بلتعة، هذا الرجل المسلم الذي أرسل كتاباً سرّاً إلى أهل مكة المشركين، يُنبئهم بأن محمداً ﷺ قد جهز جيشاً ؛ وهو يَوشك أن يتجه إليهم لفتح مكة، فخذوا حذركم.

ومع ذلك فهل أهدر رسول الله ﷺ دمه ؟ هل قتله ؟ جاء من يُفكر في ذلك، فقال المصطفى ﷺ: (وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)[1].

ولا مُبرر لهذا الذي يَجري اليوم مُتحدياً تَحذير رسول الله ﷺ، مُعرضاً عن أخباره المتكررة المنذرة المحذرة: (والَّذي نَفْسي بيدِهِ، لا تَقومُ السّاعَةُ حَتَّى تَقْتُلوا إِمامَكُمْ، وَتَجْتَلِدوا بِأَسْيافِكُم)[2]. أي تتقاتلون -أنتم المسلمين- بأسلحتكم، والسيوفُ كناية عن السلاح الموجود لكل عصر.

رسول الله ﷺ يقول هذا، ولكنا نسمع ما يَجري في كل يوم من

---

(١) أخرج قصته: البخاري في الجهاد والسير، باب الجاسوس، برقم (٣٠٠٧). وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم، برقم (٢٤٩٤).

(٢) أخرجه الترمذي في الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، برقم (٢١٧٠). وأخرجه ابن ماجه في الفتن، باب أشراط الساعة، برقم (٤٠٤٣)، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما، وقال الترمذي: حديث حسن.

دوران رحى القتل على مسلمين أمثالكم، وننظر إلى العدو الجاثم على الصدر، ننظر إلى العدو المستحل للأرض، الغاصب للحقوق، وإذا هو يَصفق ! وإذا هو لا يَبيع فرحته لأحد، أأنتم مجاهدون ؟

أهذا هو الجهاد الذي تزرعون به الفرحة في قلوب أعدائكم ؟

ومهما تاه مُسلم عن مبادئ دين الله، ومهما تاه مسلم عن كلام رسول الله ﷺ، فما ينبغي أن يغيب عن بيان الله سبحانه وتعالى المخبر والمحذر والمنذر: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ * وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ٦٥- ٦٦].

ها هو ذا: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

نراه بسبب التصرفات الرعناء التي يقوم بها المأجورون التكفيريون اليوم.



الفصل الخامس:
شذوذ الحركة الوهابية

المبحث الأول: الوهابية ومحمد بن عبد الوهاب.

الوهابية كلمة تُطلقُ على من اقتدوا بمحمد بن عبد الوهاب التميمي، وهم جماعة يزعمون أنهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ﵁ ويعتبرون محمد بن عبد الوهاب المصلح الذي قام بإرساء التوحيد في جزيرة العرب.

تحولت الوهابية لاتجاه مذهبي داخل الفكر الإسلامي، له أنصاره ومؤيدوه، وأفكاره التي تَتَّسم بالتشدد الاعتقادي والانحراف في تطبيق الشريعة. واعتمادهم للفكر الخوارجي الذي يكفرون به أكثر علماء الأمة، وسوادها الأعظم، ويستبيحون دماء وأموال مخالفيهم.

وقد استمدت الوهابية قوتها من سكناها في الأراضي المقدسة أولاً، ثم من أموال النفط في الجزيرة العربية ثانياً، فنصّبوا أنفسهم الناطق الرسمي باسم الإله، وبالتالي كان حكمهم على الرافض لفكرهم الخارج عليهم أنهُ كافر مشرك أو مبتدع ضال.

يقول مفتي الشافعية ورئيس المدرسين في مكة في أواخر القرن

التاسع عشر الشيخ أحمد زيني دحلان في كتابه "الدرر السنية في الرد على الوهابية" صفحة (٤٢): كان محمد ابن عبد الوهاب يقول:

(إني أدعوكم إلى التوحيد وترك الشرك بالله وجميع ما هو تحت السبع الطباق مشرك على الإطلاق ومن قتل مشركًا فله الجنة).

وهكذا جعل جميع الناس مشركين يستحقون القتل وكان محمد بن عبد الوهاب وجماعته يحكمون على الناس بالكفر واستباحوا دماءهم وأموالهم وانتهكوا حرمة النبيّ بارتكابهم أنواع التحقير له وكانوا يصرحون بتكفير الأمة منذ ستمائة سنة وأول من صرَّح بذلك محمد بن عبد الوهاب وكان يقول إني أتيتكم بدين جديد، وكان يعتقد أن الإسلام منحصرٌ فيه وفيمن تبعه وأن الناس سواهم كلهم مشركون.

وذكر المفتي أحمد بن زيني دحلان أيضاً في كتابه "أمراء البلد الحرام" صفحة (٢٩٧ ـ ٢٩٨) (أن الوهابية لما دخلوا الطائف قتلوا الناس قتلاً عامًّا وأبادوا الكبير والصغير والمأمور والأمير والشريف والوضيع وصاروا يذبحون على صدر الأم الطفل الرضيع ويقتلون الناس في البيوت والحوانيت، ووجدوا جماعة يتدارسون القرآن فقتلوهم عن آخرهم، ثم خرجوا إلى المساجد يقتلون الرجل في المسجد وهو راكع أو ساجد، ونهبوا النقود والأموال وصاروا يدوسون بأقدامهم المصاحف ونسخ صحيح البخاري ومسلم وبقية كتب

الحديث والفقه والنحو بعد أن نشروها في الأزقة والبطائح وأخذوا أموال المسلمين واقتسموها كما تقسم غنائم الكفار).

هذا السيناريو الذي شكّل حياة محمد بن عبد الوهاب وأتباعه أُعيد إنتاجه في استوديوهات أمريكية تركية قطرية سعودية عبر شخصيات قادت حملات الإرهاب والتكفير في بلادنا الحبيبة سورية.

مرتكزهم الأساسي العنف والكراهية والإلغاء للآخر والتكفير والتحطيم، فهي تتصفُ بكل السلبيات التي جهدت البشرية على مرّ العصور على رفضها ومحاربتها.

لقد صوّر بعض الكاتبين أن محمد بن عبد الوهاب رائد من رواد الإصلاح كما كان البعض ولفترة قريبة من الزمان يعتبر الحركة الوهابية برمّتها حركة إصلاحية؛ غير أن الحقيقة التي كانت خافية عليهم لقلّة الاطلاع وقِصر الباع في علوم التاريخ والعقيدة قد تجلّت بأوضح صورها في هذه الأيام التي شكل فيها الفكر الوهابي أكبر خادمٍ لأعداء الأمة في تسويقهم لتصرفاتهم وفتاويهم، وتشويههم لديننا على أساس أنه دين العنف والقتل والإرهاب وهو من ذلك براء براءة الذئب من دم يوسف.



المبحث الثاني: أهم أسس الفكر الوهابي

لكلِّ فكرٍ أسس يقوم عليها سواءً كان ذلك الفكرُ صحيحاً أم مخطئاً والأسس في الوهابية يمكنُ أن تُختصر في خمس نقاط تتشعب عنها معظم آرائهم وفتاويهم وهذه الأسس هي:

١. **تقسيم التوحيد إلى إلوهية وربوبية:**

وهو اختراع ابن تيمية الحراني الذي زعم أن جميع فِرَقِ المسلمين من المتكلمين عبدوا غير الله لجهلهم توحيد الألوهية ولم يعرفوا من التوحيد إلا توحيد الربوبية وهو الإقرار بأن الله خالق كل شيء وزعم أن هذا التوحيد اعترف به المشركون فكفّر به جميع المسلمين.

والحقيقة أن توحيد الألوهية والربوبية متلازمان لا يمكن أن ينفك أحدهما عن الآخر في الوجود والاعتقاد فمن اعترف بأنه لا ربَّ إلا الله كان مُعترفاً بأنه لا يستحق العبادة غيره، ومن أقرَّ بأنه لا يستحق العبادة غيره كان مُذعناً بأنه لا إله سواه وهو معنى لا إله إلا الله، وهو ما عليه إيمان المسلمين جميعاً.

ولذلك نرى الاستفاضة في القرآن الكريم بذكر أحدهما بدلاً عن الآخر لكونهما يؤديان ذات المعنى فمثلاً قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا

﴿اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] وقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾[الأعراف:١٧٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا...﴾ [فصلت: ٣٠] وكذلك الأمر في السنة النبوية الشريفة فمثلاً نقرأ قول رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً بها قلبه دخل الجنة» رواه الترمذي اكتفاءً بالتلازم الذي يُضمّن الألوهية والربوبية في لفظ أحدهما.

ومن هنا يتبين خطأ ابن تيمية ومن قلّده من الوهابية في هذا الأساس الذي ميّز ضلالهم عن هداية جمهور العلماء.

٢. التجسيم:

وهو تشبيه الله تعالى بالبشر وتجسيمه فهو عندهم له جسم يجلس على العرش وله وجه ويد وساق وقدم وهو يصعد وينزل - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً -.

وهذا القول بالتجسيم مخالف لنصوص القرآن الصريحة منها قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وإنما حملهم على التشبيه والتجسيم إنكارهم للمجاز في اللغة العربية فمثلاً فسروا قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [ن:٤٢] فقالوا أن الله تعالى يكشف عن ساقه يوم القيامة تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وقد سئل حبر الأمة سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية فقال للسائل: ألم تسمع بقول الشاعر:

ولكن أخو حربٍ إن عضت الحرب عضها ...

وإن شمّرت عن ساقها الحرب شمّرَ

فالتشمير عن الساق يعني اشتداد الأمر وعظيم هوله.

وكذلك حديث النبي ﷺ: (قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء) رواه مسلم. فهم يقولون أن لله تعالى أصابع تبعاً لإنكارهم المجاز في اللغة العربية وتجسيمهم البغيض والحقيقة أن المعنى الذي يفهمه العرب هو سُرعة التقليب بين الخير والشر بين النعمة والنقمة وقد قال الراعي النميري:

ضَعيفُ العَصا بادي العُروقِ تَرى لَهُ

عَلَيها إِذا ما أَجدَبَ الناسُ إِصبَعا

وكثيرة هي الأمثلة التي تدلّ على المجاز في لغتنا الغنية العظيمة التي اختارها ربنا سبحانه لتكون قالباً لكلامه القديم ولغةً لدينه العظيم.

٣. عدم توقيرهم وعدم احترامهم لرسول الله ﷺ:

وهذا هو أساس آخر من أُسس الوهابية حيث أنهم لا يحترمون رسول الله ﷺ ولا يُعظمونه ولا يوقرونه خلافاً لأوامر الله تعالى فقد قال عنه ربنا سبحانه في القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]،

وقال سبحانه واصفاً له بصفاتٍ عالية: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال جل من قائل: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وشدَّدَ ربنا تبارك وتعالى على كل من أراد إيذاء النبي ﷺ فأعدَّ لهم عذاباً أليماً ولعنهم حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧] وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:٦١].

رغم كل هذه الآيات القرآنية نجدهم يسيئون لمقام النبي ﷺ، ومن أمثلة ذلك:

إنكارهم التوسل برسول الله ﷺ، فمن قال داعياً الله: يا رب بجاه رسول الله اقضِ لي الأمر، أو قال: يا رب أتوسل إليك برسول الله ﷺ، فهو بذلك قد أشرك.

إنكارهم لفظ السيادة لسيدنا محمد ﷺ فلا يجوز عندهم أن نقول: سيدنا محمد ﷺ، علماً أن ذلك من أقلِّ حقوق سيدنا محمد ﷺ علينا، وقد وصف الله تعالى غيره من الأنبياء بالسيادة فقال: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ

﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران:٣٩] وقال رسول الله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر) رواه الترمذي. فمن باب أولى أن يكون لرسول الله ﷺ هذه السيادة.

هم ينكرون علينا أن نقول سيدنا محمد ﷺ؛ على حين يضعون لملكهم قبل ذكر اسمه الكثير من ألفاظ التبجيل والتعظيم.

وينكرون احتفالات الأمة بذكرى مولد السيد الرسول ﷺ فيقولون هو بدعة؛ غير أنهم يحتفلون بذكرى محمد بن عبد الوهاب وذكرى ملكهم وذكرى تأسيس مملكتهم وغير ذلك. وكذلك ينكرون احتفاء الأمة بذكرى إسراء النبي ﷺ ومعراجه.

وينكرون على جمهور المسلمين زيارة قبر النبي ﷺ علماً أنه قد فعله الصحابة رضوان الله عليهم.

والأسوأ من ذلك ما ذكره الشيخ علوي بن أحمد الحداد صاحب كتاب "مصباح الأنام وجلاء الظلام في رد شبه البدعي النجدي التي أضلّ بها العوام" كذلك الشيخ زيني دحلان في كتابه "الدرر السنية في الرد على الوهابية" حيث قال: (إن محمد بن عبد الوهاب كان ينهى عن الصلاة على النبي ﷺ ويتأذّى من سماعها وينهى عن الإتيان بها ليلة الجمعة وعن الجهر بها على المنابر ويؤذي من يفعل ذلك ويعاقبه أشدّ العقاب؛ حتى أنه قتل رجلاً أعمى كان مؤذّناً صالحاً ذا صوتٍ

حسن نهاه عن الصلاة على النبي ﷺ في المنارة -المئذنة- فلم ينتهِ فقتله، ثم قال: إن الربابة في بيت الخاطئة _ الزانية_ أقل إثماً ممن ينادي بالصلاة على النبي ﷺ في المنائر، وكان يُلبّس على أصحابه بأن ذلك كله محافظةً على التوحيد، وأحرق كتاب دلائل الخيرات_ وهو للإمام الجزولي_ وغيرها من كُتب الصلاة على النبي ﷺ، ويتستر بقوله أن ذلك بدعة وأنه يريد المحافظة على التوحيد).

ولقد ظهر على بعض القنوات الفضائية أحد الوهابيين وهو يحكي سيرة النبي ﷺ وقد أسهب في ذكره وأكثر وهو يقول: ذهب محمد، وأتى محمد، وقال محمد، وفعل محمد ... ويَضُنُّ بالصلاة والسلام عليه فأيُّ فكرٍ وأي دين يحملونه وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢] اللهم صلِّ وسلم وبارك وعظم هذا النبي العظيم.

وورد عن أحد علمائهم أنه قال: إن عصاي هذه خير لي من محمد... لأن العصا أتكئ عليها ومحمد ﷺ قد مات وأرِمَ، وغير ذلك من قلة الأدب مع الذات المحمدية لا مجال لسردها وقد أُلّفت في ذلك الكثير من الكتب.

٤ . تكفير المسلمين:

لقد كفّر الوهابية المسلمين بمجرّد المعصية ووصفوهم

بالمشركين والكفرة وعَبَدَة القبور، فالتكفير عندهم أهون من شرب الماء العذب، وقد غفلوا عن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا ﴾ [النساء: ٩٤] وقوله ﷺ: (مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ فَلَا تُخْفِرُوا اللَّهَ فِي ذِمَّتِهِ) رواه البخاري، وقد حذر رسول الله ﷺ من التكفير تحذيراً بالغاً فقال (تكفير المسلم كقتله)، وقال ﷺ: (أيما رجل كفَّرَ رجلاً فإن كان كما قال وإلا فقد باء بالكفر) رواه أحمد.

وما تكفيرهم للمسلمين إلا ليستحلوا الأموال والأعراض ولينسفوا الآخر، فهم ليست لديهم ثقافة الحوار ولا يُحسنون الدعوة بالتي هي أحسن أو بالموعظة الحسنة. هم يؤسسون للإرهاب وسفك الدماء، وقد رأينا صنيعهم وفكرهم في هذه المؤامرة الكونية لوطننا وكيف أنهم ألبسوا الناس لباس الكفر.

٥. حصر العلم والفهم في علمائهم فقط:

فهم يقدّسون علماءهم فمثلاً ابن تيمية (شيخ الإسلام) لديهم! وابن القيم الجوزية (علّامة زمانه)! ومحمد بن عبد الوهاب (رائد الإصلاح والتجديد)!

أما أئمة المذاهب وكبار علماء الدنيا والدين فهم كفرة ضالون

مضلون فلا يتورعون عن تبديع الإمام أبي حنيفة النعمان، والإمام الغزالي، والإمام الأشعري، والرازي، والنووي، والعسقلاني، والسيوطي ثم يواصِلون جرأتهم وتكفيرهم ليصلوا إلى رموز عصرنا فيكفرون ويبدعون شهيد المنبر والمحراب العلامة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي والعلامة الدكتور وهبة الزحيلي وغيرهم كثير. جميعهم كفرة؛ والدين كل الدين؛ والإيمان كل الإيمان؛ منحصر في العلماء الثلاثة المذكورين ومن تبعهم وسار على هواهم.

هذه من أهم أسس الوهابية التي خالفوا فيها جمهور المسلمين، وهي شيء لا يصدر عن عقولٍ تحمل فكراً معتدلاً أبداً، بل فكراً إرهابياً تكفيرياً مُلغياً للآخر.



المبحث الثالث: فسادات الوهابية، وشذوذهم الفكري

تشابه الوهابيون والخوارج في الجمود والتشدد في الدين فمثلاً قرؤوا قوله تعالى ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧] فقالوا أن من أجاز التحكيم فقد أشرك. وجعلوا شعارهم (لا حُكم إلا لله) وهي كلمةُ حق أُريد بها باطل، فالتحكيم في الخصومات ثابت بنص القرآن والسنة النبوية المُطهّرة وسيرة السلف من صحابة وتابعين. وكذلك شابههم الوهابية فقرؤوا قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] وقوله سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥] فقالوا إن من قال بجواز الشفاعة من النبي ﷺ والصالحين فقد أشرك، فكان شعارهم (لا معبود إلا الله ولا شفاعة إلا لله) وهي كلمة حق أُريد بها باطل حيث جواز الشفاعة ثابتٌ ولا مراء فيه.

إن الأحاديث التي وردت عن رسول الله ﷺ في الخوارج ومروقهم من الدين انطبق بعضها على الوهابية أيضاً من ذلك قوله ﷺ: «يخرجُ أناس من قبل المشرق يقرؤون القرآن لا يُجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرقُ السهم من الرميّة» أخرجه أحمد. قال بعض شراح الحديث "القسطلاني": من قِبل المشرق: أي من جهة شرق المدينة كنجد وما بعدها، ومعلوم أن نجداً هي مهد الوهابية

وموطنها الأول. وقال رسول الله ﷺ واصفاً حالهم: (يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان) وهذا ما كان عليه الخوارج وما عليه الوهابية حتى الآن؛ فلم يُعرف عنهم أنهم قاتلوا إلا المسلمين. كَمَا وَصفهم عبد الله بن عمر رضي الله عنه بقوله كَمَا فِي صَحِيح البُخَارِيّ (بِأَنَّهُم عَمدُوا إِلَى آيَات نزلت فِي الْكفَّار فطبقوها على الْمُسلمين) وَمَا ذَلِك إِلَّا لجهلهم وَعدم فقههم فِي الدّين.

وعلى العموم نستطيع القول بأن الخوارج والوهابية قد اتفقوا في قضايا التكفير ومحاربة أهل الإسلام وإن صلوا وصاموا وحجوا، والتشكيك بإيمان المؤمنين واحتكاره لأنفسهم فلا يمتلك حقيقة الإيمان إلا من يرى رأيهم ويعتنق أفكارهم الشاذة، وكذلك نجد الفريقين يلغون الآخر مهما كان ذا علمٍ وفضل وتقى وعبادة.

لقد كانت السمة العامة لمن سار على خطى محمد بن عبد الوهاب هي الخلط والضلال؛ وإذا أردنا أن نبتعد عن الحياة الشخصية لأولئك ونتلمّس شخصيتهم العلمية من خلال فتاويهم ومؤلفاتهم فإننا سنجد شذوذاً فكرياً واضحاً لا يمكن السكوت عنه بل ينبغي التنبيه إليه والتحذير منه وفيما يلي نستعرض بعضاً من فتاويهم (الألباني نموذجاً):

يقول ناصر الألباني في فتاويه:

١- عصمة الأنبياء ليست عصمة مطلقة[1]، حيث أن الأنبياء والرسل يرتكبون صغائر الذنوب والمعاصي[2].

٢- يجوز أن ينسى الرسول ﷺ الآيات التي بلغها للناس[3].

٣- القول بأنّ أمهات المؤمنين وزوجات الأنبياء غير محفوظات من الزنا والفاحشة[4] وهذا القول من أشنع الفتاوى والتي لم يستطع بسببها تلميذه القديم محمد نسيب الرفاعي إلا أن ينكر ذلك ويرد عليه في كتاب مستقل بعنوان: "نوال المنى في إثبات عصمة أمهات وأزواج الأنبياء من الزنا".

٤- المطالبة بهدم القبة النبوية وإخراج قبر النبي محمد ﷺ من مسجده[5]، وهذا القول أيضاً من المسائل الشنيعة التي تبجّح بها الألباني وعلل ذلك بأن بقاء القبر النبوي داخل المسجد من البدع المنكرة والجرائم عنده، وذلك خلافاً لإجماع الأمة حيث لم يتجرأ

---

(١) فتاوى الألباني جمع عمرو وعبد المنعم سليم ص١٨ طبعة الأولى دار الضياء مصر.

(٢) المرجع السابق ص ٢٩ و٣٠.

(٣) المرجع السابق ص ٣٠ و٣١.

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم ٢٥٠٧ مجلد ٦ ج١ ص ٢٦ وما بعدها طبعة الأولى مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الرياض.

(٥) تحذير الساجد للألباني ص ٩٨ وما بعدها ط ٣ المكتب الإسلامي بيروت.

أحد على المقام النبوي كما فعل الألباني[1].

٥- الرسول ﷺ ليس هو أفضل الخلائق عند الله تعالى[2].

٦- والدا النبي ﷺ من أهل النار[3].

٧- تحريم التوسل بالنبي ﷺ[4].

٨- المطالبة بعدم مدح النبي ﷺ وإطرائه[5].

٩- تحريم السفر بقصد زيارة سيدنا محمد ﷺ[6].

١٠- عدم جواز تلقين الميت[7].

١١- منع الاحتفال بالمولد النبوي الشريف[8].

١٢- تحريم تقبيل المصحف الشريف وجعل تقبيله من البدع

---

(١) انظر "مناسك الحج والعمرة، ط٢، ص٦٠" للألباني.

(٢) التوسل أنواعه وأحكامه للألباني تنسيق محمد عيد العباس ص ١٤٩ ط الأولى الشرعية مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الرياض.

(٣) صحيح السيرة النبوية للألباني ص ٢٣ وما بعدها ط الأولى المكتبة الإسلامية الأردن.

(٤) أحكام الجنائز وبدعها الألباني ص ٢٦٦ و٢٦٤ ط ٤ المكتب الإسلامي بيروت، وكتاب التوسل وأنواعه وأحكامه للألباني.

(٥) التوسل أنواعه وأحكامه ص ٨٠.

(٦) أحكام الجنائز ص ٢٦٥.

(٧) أحكام الجنائز ص ٢٤٣.

(٨) فتاوى الألباني في المدينة والإمارات ص ١٥٥.

والضلالة[1].

١٣- قول صدق الله العظيم بعد قراءة القرآن من البدع[2].

١٤- على أهل فلسطين أن يغادروا بلدهم ويتركوها للمحتل الصهيوني وتكفير من يبقى في فلسطين من المسلمين وهي من آخر فتاويه[3].

١٥- الانتفاضة الفلسطينية على المحتل الصهيوني عمل محرم وغير جائز[4].

١٦- تحريم الدعاء للغزاة والمرابطين والمدافعين من قبل خطيب الجمعة[5].

١٧- لا يجوز تقبيل يد الأب أو الأم بل هو من البدع[6].

---

(١) رسالة كيف يجب علينا أن نفسر القرآن للألباني ص ١٢٨ـ ط ١ المكتبة الإسلامية الاردن.

(٢) فتاوى الألباني في المدينة والامارات ص ٢٦٣.

(٣) فتاوى الألباني، عكاشة عبد المنان ص ١٨ طب دار الجيل بيروت.

(٤) سلسلة أشرطة الهدى والنور للألباني.

(٥) الأجوبة النافعة عن أسئلة مسجد الجامعة للألباني ص ٧٢ المكتب الإسلامي بيروت ط٢.

(٦) قاموس البدع مستخرج من كتب الألباني، إعداد مشهور السلمان وأحمد الشكوكاني ص ٧١٨ ط٣ دار البخاري قطر.

١٨- نقش اسم الميت وتاريخ الوفاة على القبر أمر محرم[١].

١٩- تحريم استخدام المسبحة في تسبيح الله تعالى[٢].

٢٠- اتخاذ يوم الجمعة عطلة بدعة[٣].

٢١- ثبت أن الألباني يرد الحديث الصحيح إذا خالف مذهبه ويقول بأن الحديث صحيح إذا وافق رأيه. فردّ أحاديث في البخاري ومسلم، فهو تارة يصحح حديثاً لوجود رجل فيه وفي موضع آخر يحكم على حديث بالوضع لوجود نفس الرجل في السند وقد وقع الألباني وتخبط في أكثر من ثلاثة آلاف حديث وتناقض في الحكم عليها. وقد رد عليه المحدث الدكتور محمود سعيد ممدوح في رسالة "تنبيه المسلم الى تعدي الألباني على صحيح مسلم".

٢٢- الألباني يقول عن أتباع المذاهب في سلسلته (٦/ ٦٧٦): أعداء السنة من المتمذهبة والأشاعرة والمتصوفة وغيرهم. فهو يعتبر المتمذهبة من الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة الذين هم الأشاعرة والصوفية وغيرهم من المسلمين أعداء السنة. وكذلك قال الألباني في تعليقه على كتاب "مختصر صحيح مسلم" للحافظ المنذري: هذا صريح

---

(١) أحكام الجنائز ص ٢٥٥.

(٢) فتاوى الألباني في المدينة والامارات ص ١٦١.

(٣) الاجوبة النافعة ص ٦٥ ط٢ المكتب الإسلامي بيروت.

في أن عيسى عليه السلام يحكم بشرعنا ويقضي بالكتاب والسنة لا بغيرهما من الإنجيل أو الفقه الحنفي ونحوه. فهو يعتبر فقه الحنفية وغيره كفقه الشافعية والمالكية والحنابلة مثلاً من فقه أهل السنة ليس من الإسلام. وشَتمهم وتضليلهم وتكفيرهم للحنفية والشافعية والمالكية والجعفرية أمور مشهورة.

ومن النماذج التي توائم ما ذكرنا لفتوى الألباني الأخيرة في تكفير السواد الأعظم من المسلمين والعيب على عقيدتهم ما ذكره صالح بن فوزان:

الأشاعرة والماتريدية لا يستحقون أن يلقبوا بأهل السنة والجماعة.[1] في حين قال العلامة الشيخ مرتضى الزبيدي شارح كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي: (إذا أطلق أهل السنة والجماعة فالمراد بهم الأشاعرة والماتريدية)[2].



(١) كتاب من مشاهير المجددين في الاسلام ابن تيمية وابن عبد الوهاب ص٢٢.

(٢) اتحاف السادة المتقين (٢/ ٦).

المبحث الرابع:
جهود علماء بلاد الشام في فضح فتن وضلالات الوهابية

استولى السعوديون على الرياض سنة (١١٧٨هـ/ ١٧٧٣م). وفي سنة (١٨٠٣م) دخلوا مكة، ثم وصلوا كربلاء في العراق، وحوران في بلاد الشام، قبل أن يتدخل محمد علي باشا والي مصر ليردهم، ويضعف قوتهم من خلال حملاته العسكرية الثلاثة التي كانت آخرها (١١٥٧ - ١٢٣٣ هـ/ ١٨١٦ - ١٨١٨م).

وقد أفتى علماء الأمة الإسلامية حينها بأنهم بغاة يُحاربون كما حارب أمير المؤمنين عليٌ كرم الله وجهه الخوارجَ، وصنفوا في ذلك المؤلفات.

ومما قاله علماء دمشق في ذلك، ما كتبه العلامة ابن عابدين في حاشيته على **(الدر المختار)**:

(**مطلب في أتباع عبد الوهاب الخوارج في زماننا:** قوله: ويُكفِّرون أصحاب نبينا - يعني أن هذا من صفة الخوارج الذين يُقاتلون - علمتَ أن هذا غير شرط في مسمى الخوارج، بل هو بيانٌ لمن خرجوا على سيدنا علي، وإلا فيكفي فيهم اعتقاد كُفر من خرجوا عليه، **كما وقع في زمننا في أتباع عبد الوهاب الذين خرجوا من نجد، وتغلبوا على الحرمين**، وكانوا ينتحلون مذهب الحنابلة، لكنهم اعتقدوا أنهم هم

المسلمون، وأن من خالف اعتقادهم مشركون، واستباحوا بذلك قتل المسلمين وقتل علمائهم، حتى كسر الله شوكتهم، وخرَّب بلادهم، وظفر بهم عساكر المسلمين عام ثلاث وثلاثين، ومئتين وألف)[1].

وقد صنَّف علماء دمشق في عصر ظهور محمد بن عبد الوهاب وبعده مصنفات خاصة في الرد على الوهابية، ومن أشهرها:

- **(النقول الشرعية في الرد على الوهابية)**، للشيخ مصطفى الشطي (مفتي الحنابلة(: (-١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م).

- **(الأقوال المرضية في الرد على الوهابية)**، للشيخ عطا الله الكسم (مفتي الشام) (- ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م).

ثم تتابعت كتب علماء دمشق وغيرها من مدن الشام في الرد على ضلالات الوهابية ومن أشهر تلك الكتب:

-اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية: للعلامة الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي.

-السلفية: مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي: للعلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

-ردود على شبهات السلفية: للشيخ محمد نوري رشيد الديرشوي.

---

(١) حاشية ابن عابدين ١٣/ ١٣٥.

الفصل السادس:
سماحة الشيخ الدكتور أحمد كفتارو

المفتي العام للجمهورية العربية السورية

مؤسس مجمع الشيخ أحمد كفتارو (أبي النور سابقاً)

(١٣٣٠ - ١٤٢٥هـ = ١٩١٢ - ٢٠٠٤م)

الشيخ أحمد كفتارو من أبرز علماء عصره التجديديين، وهو صاحب رؤية إصلاحية، ومشروع نهضوي، أسس أركانه على أرض الواقع، وظهرت ثماره وأينعت.

وقد تحدث العلامة المصلح، الداعية الكبير الشيخ أبو الحسن الندوي عن الفكر الإصلاحي عند سماحة الشيخ أحمد كفتارو بشكل مبكر سنة (١٩٥١م) قائلاً:

«يرى الشيخ أحمد كفتارو أن أقرب طريق وأنجح وسيلة لإصلاح الأوضاع الفاسدة، وتطبيق الدين في المجتمع والحياة هو التأثير في رجال الحكومة، الذين بيدهم أزِمَّة الأمور والسلطة التنفيذية، وذلك عن طريق الاتصال بهم والمقابلات الشخصية وإيجاد الثقة فيهم، وإن ما يكتب من النجاح في عام عن طريق الدعوة العامة يكتب في أسبوع أو أقل من ذلك

عن طريق هؤلاء.

وله خطة ومنهاج في الإصلاح، يعتقد أنه إذا نفذ اتجهتِ البلاد بأسرها اتجاهاً دينياً، وهو إصلاح المعارف وتوجيهها الإسلامي، وإصلاح الإذاعة، وإصلاح السينما، ورقابة الأفلام، وتربية أئمة المساجد.

وهو قوي الأمل، عظيم الثقة بتأثير هذه الوسائل العصرية في توجيه الشعب.

والشيخ أحمد عالم مثقف مطلع، ناضج العقلية، واسع آفاق الفكر، نشيط في عمله، وقد تمكن فعلاً في حكومة سابقة باتصاله برئيس الجمهورية من إلغاء البغاء الرسمي.

وحكى لي أنه اجتمع برئيس أركان الحرب الحالي، وهو الحاكم العسكري للبلاد[1]، وتحدث معه ساعة وقال له:

تستطيع أن تكون زعيماً للبلاد العربية كلها بل للعالم الإسلامي كله إذا هيأت لنفسك الزعامة الإسلامية، واحتضنت خدمة الإسلام، وكان نتيجة هذا الحديث أنه طلب من فضيلة الشيخ أن يقدم إليه مقترحاته في توجيه البلاد وبرنامجه للإصلاح.

---

(١) إشارة باجتماعه مع الرئيس حسني الزعيم.

وقال لنائبه أن يسمح له بالحضور والاجتماع في كل وقت، وأن يأخذ تقريره ويقدمه، ولكن الحادث الأخير الذي كان فيه العلماء معسكراً واحداً إزاء الحكومة أحدث شيئاً من الفجوة وعرقل سيره»[1].

ويتلخص منهجه الفكري والدعوي في المحاور الآتية:

المحور الأول: التزكية والبناء الأخلاقي.

المحور الثاني: التعليم العام والديني.

المحور الثالث: الدعوة إلى الله.

المحور الرابع: الوحدة الإسلامية.

المحور الخامس: الحوار الإسلامي المسيحي.

المحور السادس: السياسة.

المحور السابع: الإعلام.

---

(١) مذكرات سائح في الشرق العربي (ص٢٧٦).

المحور الأول: التزكية والبناء الأخلاقي

تمسك الشيخ أحمد كفتارو بالتصوف خلال مسيرته الدعوية كلها، وأكد دوره وأثره، وكانت تجربته الصوفية إحدى التجارب التجديدية الرائدة التي تستحق الدراسة والتأمل.

نشأ وتربى الشيخ أحمد كفتارو على يد والده الشيخ محمد أمين كفتارو أحد شيوخ الطريقة النقشبندية، وسلَك على يديه ودخل الخلوة وأخذ عنه الطريقة النقشبندية، وفي إحدى خلوات الشيخ أحمد سنة (١٣٥٠هـ) دخل عليه والده، وأجازه بجميع ما يرويه عن شيوخه، وقال له: «**والله ما أجزتك بها إلا بإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم**».

وقبيل وفاة الشيخ أمين جمع تلاميذه وإخوانه، واختار ولده الشيخ أحمد خليفة له، وشيخاً لهم، وأوصاهم بملازمته.

خلَف الشيخ أحمد والده في مشيخة الطريق، وسار على نهجه مربياً وواعظاً ومسلكاً، غير أن همته وطموحه في خدمة الإسلام والدعوة إلى الله، وحرصه على وحدة الصف وجمع الكلمة ونبذ التعصب جعله يسير وفق منهج تجديدي، **ويدور منهج وفكر الشيخ أحمد كفتارو التجديدي في التصوف حول النقاط الآتية:**

١) نبذ المصطلحات الصوفية، والعودة إلى المصطلحات القرآنية.

وجد الشيخ أحمد أن كثيراً من الناس اتجهوا نحو معادة التصوف؛ لجهلهم بالمصطلحات الصوفية، فنبذ تلك المصطلحات، واهتم بالمعاني والجواهر، واستخدم الألفاظ القرآنية، فهو يرى أن الغاية تحقيق المعنى، لا الوقوف عند الظواهر والأسماء دون المسميات.

فإذا كان أعداء التصوف من المسلمين يرفضون كثيراً من الحقائق بسبب تسميتها الحادثة، ومنها اسم التصوف، فقد كان الشيخ أحمد كفتارو يدعو إلى تغيير تلك الأسماء مع الحفاظ على المسميات، ومن ذلك نبذ اسم التصوف والاتجاه إلى اسم الإحسان.

٢) نبذ الأفكار الخاطئة الدخيلة على التصوف.

تسرَّب للتصوف بعض الأفكار الهدامة التي تخالف العقيدة، فكان الشيخ يحذر منها، وينبه على خطرها، ومخالفتها للعقيدة، وأن التصوف الإسلامي بريء منها، كما كان يؤكد على أن التصوف علم وعمل، بل إن التصوف يحض على بلوغ أعلى درجة الإتقان في العمل ويدرب النفس على ذلك.

وكان يوصي بقراءة مكتوبات الإمام الرباني أحمد الفاروقي؛ لما فيه

من التصوف السليم، ونقد المذاهب الصوفية الباطلة.

٣) التأكيد على أن التصوف جزء من الدين، وليس هو الدين كله.

إن الدين كل متكامل، إيمان، وعبادة، وأخلاق وسلوك، فالتصوف هو الجانب الذي يهتم بتزكية النفس وإصلاحها وتهذيبها، وهذا كله يدفع الإنسان نحو الإيمان بالله سبحانه والتقرب منه، وأداء الأوامر، واجتناب النواهي.

إذا فُهم التصوف على أنه الدين كله؛ كما كان حال جهلة المتصوفة في العصور المتأخرة كان عاقبة ذلك تشويه صورة الإسلام.

٤) التأكيد على أن الصوفي هو ابن وقته.

كان الشيخ أحمد يؤكد دائماً على أن الغاية من الطريق هو تزكية النفس، وتربية الإنسان المؤمن، وعلى الصوفي أن يكون واعياً متعلماً مؤثراً في مجتمعه، ومتقناً لعمله أياً كانت مهنته وتخصصه ودراسته، كان يشجع المريدين على طلب العلم، والقراءة على العلماء، والاستفادة منهم، والانفتاح على العلوم العصرية.

والحضور الاجتماعي والثقافي والإعلامي والسياسي، وعدم

الانطواء والانعزال عن المجتمع، والتفرقة بين التوكل والتواكل، وأن هذا لا يتنافى مع التصوف، فإن التصوف يسعى ألا تكون دنيا المؤمن في قلبه، لكن لا يمنع ذلك كونها في يده، أو أن يكون عضواً فعالاً ومؤثراً فيها.

٥) عدم اختياره خليفة واحداً يوصي إليه بمشيخة الطريق.

لم يقم الشيخ باختيار خليفة له، يقوم على شؤون المريدين، ويهتم بتوجيههم، كما هو العادة من شيوخ الطرق الصوفية، بل كان يرى أن على كل شخص مؤهل أن يقوم بالدعوة إلى الله وإصلاح النفوس، والدعوة إلى تهذيب الأخلاق، وعندما سأل عن خليفته في الطريق قال:

«أنا أهيئ لكل الإخوان الآن الذين لديهم الكفاءة والعلم والانتفاع القلبي أن يقوم بالدعوة، أعداد كثيرة تقوم بالعمل، وأرجو الله أن يفتح عليهم، وكل واحد مدعو من قبل القرآن والسنة إلى أن يذكر ويذكِّر، إلى أن يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة»[١].

---

(١) الشيخ أحمد كفتارو يتحدث (ص١٠٧).

المحور الثاني: الدعوة إلى الله

نشأ الشيخ أحمد كفتارو نشأة صوفية، وتأثر بمنهج السادة الصوفية في الحرص على الدعوة إلى الله، وجمع قلوب العباد على ربهم، وإصلاح أمرهم، وساعده في نجاحه في العمل الدعوي حضوره الاجتماعي، وما تمتع به من مواصفات الداعية الناجح.

بدأ نجمه بالسطوع بعد وفاة والده سنة (١٩٣٨م)، حيث آلت إليه دروس ومجالس والده الشيخ أمين في مساجد دمشق، لا سيما مسجد أبي النور بحي ركن الدين بدمشق.

لم يكن الشيخ أحمد متقوقعاً على نفسه، ولا على جماعته، ولا انطوائياً، ولم يعش على تلاميذ أبيه ومائدته، بل كان صاحب همة عالية في الدعوة، ونشاط قلَّ مثيله.

التفَّ الناس حوله، وتأثروا بالداعية الشاب، وأسلوبه الجذاب، وحديثه العذب، وطريقته التي لم تكن معهودة آنذاك؛ حيث كان يهتم بالثقافة المعاصرة، ويناقش الشبهات المعاصرة حول الإسلام.

وتوسَّع نشاطه، وعمَّت شهرته، وأقبل الناس على دروسه ومواعظه، ولما يتسع مسجد الأحمدية في سوق الحميدية لتلك الجماهير

اختار مسجد يلبغا لذلك.

وشهد مسجد يلبغا في منتصف القرن الماضي آلاف الناس التي كانت تفد إلى دروس الشيخ أحمد كفتارو، والذي كان أحد المراكز المهمة التي تعنى بقضايا الأمة والبلد في تلك الحقبة.

ومن أبرز عناوين المحاضرات التي كان يلقيها في الأربعينات من القرن العشرين:

- **الشيوعية.**
- **الإسلام.**
- **الإسلام والاشتراكية.**
- **الإسلام والرأسمالية.**
- **دفاع الإسلام عن المسيح والسيدة العذراء.**
- **مريم والسيد المسيح في القرآن الكريم.**

وكان مسجد أبي النور بحي ركن الدين مركزاً أساساً لدعوته، يقيم فيه المجالس العامة والخاصة، ويهيئ فيه جيلاً من الدعاة إلى الله، فأقام حلقات في المسجد لكافة الأعمار والمستويات، ولكل حلقة أستاذ يقوم على تدريسهم وتوجيههم والإشراف عليهم.

وقد جمعت هذه الحلقات أصحاب المهن، والمثقفين، وطلاب المدارس والجامعات، وكان يحضُّهم دائماً على الإتقان والإبداع، كلٌّ في مجاله وتخصصه ومهنته.

وتنقَّل في مساجد دمشق يلقي فيها الدروس والمواعظ، واشتهرت مجالسه ودروسه في عدد من مساجد دمشق، أبرزها: الجامع الأموي.

وكان له في الأربعينات درس أسبوعي يوم الأحد في مسجد السادات الأقصاب، ويوم الإثنين في جامع يلبغا، ومجلس يوم الخميس بعد المغرب يقرأ فيه الختم النقشبندي في جامع تنكز، وآخر يوم الجمعة في مسجد أبي النور

بقي سماحة الشيخ أحمد محافظاً على همته العالية، وأسلوبه الجذاب، وحكمته في الدعوة إلى أواخر حياته، أي أنه أمضى قرابة سبعين عاماً في الدعوة إلى الله، وكان شعاره الذي يرفعه ويسير عليه خلال سبعين عاماً هو:

{ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة}

وكانت هذه الدروس تتخصص بالفهم الشمولي للإسلام من خلال تفسير القرآن الكريم أربع مرات على مدار سبعين عاماً، وكانت المحاور الذي يعالجها، إصلاح الفرد وتهذيب نفسه، وإصلاح المجتمع، ومناقشة

الأمور الطارئة والقضايا الكبرى التي تهم الأمة.

يصف الشيخ أبو الحسن الندوي درس الشيخ أحمد كفتارو في الجامع الأموي عندما زار دمشق سنة (١٩٥١م) قائلاً:

«مشينا إلى حلقة كبيرة جداً تضم المئات من الناس، والمكبرة تذيع صوت الشيخ أحمد كفتارو، وجلسنا نستمع، وحانت من الشيخ التفاتة فرآني على بعد وعرفني وأدناني إليه، وعجبت من سرعة خاطره؛ لأننا لم نتقابل بعد الحج، وما عنده علم بتوجهي إلى دمشق.

واستمر الدرس نحو ساعتين، وكان درساً في سورة البروج، إلا أنه كان درساً دينياً عاماً يتناول الحياة كلها، وأعجبني من الشيخ تطبيق الآيات على الحياة، والتعرض للواقع الحاضر، من غير اقتصار على المعاني العلمية والكليات، وتنزله إلى مستوى الثقافة العامة، والتحدث في لغتهم المحلية الدارجة.

وانتقد لا دينية المعارف في البلاد، ونشوء الشباب على الجهل التام بالدين والغفلة عنه، وتعرض لنكبة فلسطين، وخوف المسلمين إذا استمروا في سكوتهم، وجبنهم من أن يستولي اليهود- لا سمح الله- على سورية ودمشق، ويعتلي حبر من أحبارهم هذا المنبر العظيم، وسرني أن

نسبة الشباب وأبناء المدارس كانت طيبة في حلقة الدرس»[1].

ونلحظ في وصف الندوي لمجالس الشيخ أحمد كفتارو التأكيد على تميزها بأمور، منها:

الأول: جماهيرية هذه الدروس، والإقبال الكبير عليها.

الثاني: إقبال الشباب على هذه المجالس والدروس.

الثالث: اعتناء الشيخ أحمد كفتارو بالثقافة المعاصرة، والقضايا العامة، وفقه الواقع.

وطموح وهمة الشيخ أحمد كفتارو لم يكونا ليوقفاه عند جامع أبي النور أو مساجد دمشق فقط، بل كان يتردد إلى لبنان، ويقيم فيها دروس الوعظ والإرشاد في منتصف القرن العشرين؛ بتنسيق وشراكة مع **الشيخ حسن خالد مفتي لبنان**، وكان له درس دوري في الجامع الكبير في بيروت صباح يوم الثلاثاء، وكان يمضي جميع يومه فيها، ثم يعود في صباح الأربعاء إلى دمشق، وبقي مواظباً على هذه الدروس مدة من الزمن.

وما إن لمع نجمه حتى بدأت تأتيه الدعوات من خارج سورية شرقاً وغرباً لإقامة الدروس، وإلقاء المحاضرات، والمشاركة في المؤتمرات.

---

(١) مذكرات سائح في الشرق العربي (ص٢٦٢).

زار الشيخ أحمد كثيراً من دول العالم شرقاً وغرباً والتقى فيها شخصيات عالمية مرموقة، وترك أثراً دعوياً ملحوظاً، وقدم المنح الدراسية للطلاب غير العرب للدراسة في مجمع أبي النور، وزادت عدد المؤتمرات التي شارك فيها على مئة وخمسين مؤتمراً عالمياً إسلامياً.

ومن الجدير بالذكر أنه كتب عدداً من المقالات في جريدة (نهضة العرب) التي تصدر في أمريكا في منتصف القرن العشرين، ومنها مقال نشر في سنة (١٩٥٤م) بعنوان: (الإحسان في الإسلام).

وأثمرت جهود الشيخ أحمد كفتارو العمل الدعوي على صعيد العالم، حيث نشر التسامح والفضيلة والأخلاق، وأسلم على يديه عدد من الناس، وكان له أثر كبير لا يزال الناس يعيشون في ظلاله شرقاً وغرباً، وكان له دور كبير في افتتاح المراكز الإسلامية والدعوية في عدد من دول العالم.

ويحدثنا الأستاذ فاروق آق بيق- عن الأثر الكبير الذي قام به سماحة الشيخ أحمد كفتارو في رحلاته ولقاءاته وحواراته العالمية في الدعوة إلى الله- قائلاً: «كان سماحة الشيخ أحمد كفتارو حيثما حلَّ ملفتاً للأنظار، واسع الأفق، جمَّ العلم، شديد التواضع، كثير اللباقة، يحيي الصغير والكبير، ويبتسم للجميع.

وكان يأخذ جليسه إلى خالق الأرض والأكوان والإنسان، ويذكره بعظيم صنعه وجماله وكماله، ثم يسأل هل من المعقول أن يسن هذا الإله قانوناً

للإنسان يناقض هذا الجمال والكمال ويضر بالإنسان؟!

وإذا وجدنا ذلك فمرده إلى الإنسان الذي حرَّف تعاليم السماء، وزاد عليها وأنقص؛ مثَلُ الدِّين كماء السماء ينزل نقياً طاهراً يهب الحياة للجميع ويعيد موات الأرض إلى بهجة ونضرة، ولكن هذا الماء عندما يدخل المدينة، ويخالط أوساخ الإنسان بدل أن يهب الحياة يهب المرض والموت، وعلى المهتمين بالبيئة أن ينقُوا هذه المياه ويعيدوها لأصلها الطاهر النقي، والدين الصحيح هو كماء السماء يشيع السلام والطمأنينة والسعادة والرخاء لكل الناس في كل العالم».

ويمكن تلخيص الأسس التي ميزت منهج الشيخ أحمد كفتارو في الدعوة إلى الله بالنقاط الآتية:

١. التوجه الجماهيري العام لانقاذ الناس من غفلاتها، ولهوها، وإعادتها إلى عبادة إلهها، وفهم دينها.

٢. استخدام وسائل التأثير؛ القصة، الطرفة، الأسلوب البسيط.

٣. الاهتمام بالشأن العام، ومعالجة القضايا الطارئة في فكر الأمة بأسلوب بسيط يسهل فهمه على العامة، مثل: الاشتراكية وحقوق المرأة والشيوعية، والإلحاد.

٤. حض تلامذته على خوض غمار الدعوة إلى الله في القرى والأحياء الشعبية؛ وذلك بعد تملكهم أساسيات العلوم الشرعية.

٥. تبسيط العلوم الشرعية والتصوف، ونشره بين العامة.

٦. الرؤية الشاملة للرسالة الإسلامية، والتركيز على فقه الواقع، ومقاصد الشريعة.

٧. التأكيد على أن تطبيق أوامر الله، والالتزام بالشريعة سبب سعادة في الدنيا قبل الآخرة، وأن أحكام وآداب الإسلام ليست للأجر والثواب فقط.

المحور الثالث: التعليم العام والديني

حرص الشيخ أحمد على العلم والتعليم، وكان يرى أن الدعوة إلى الله لا تقوم إلا بالعلم، وأن التصوف والسلوك لا يصح إلا بالعلم، وأن الحياة والمجتمع لا يقاد إلا بالعلم، ولم يولِ العلم الشرعي اهتمامه فقط، بل كان يهتم بجميع العلوم وشتى التخصصات والفنون، ويشجع تلاميذه على الخوض في جميع مجالات الحياة والتفوق فيها، ونبغ من تلاميذه شخصيات تبوؤا مكانة رفيعة في المجتمع على الصعيدين السياسي والاجتماعي، بل والعسكري أيضاً.

ومن جهوده في نشر العلم:

١. تأسيس **معهد الأنصار** للذكور سنة (١٩٤٩م) والإشراف عليه، وهو مدرسة خاصة للمرحلتين الإعدادية والثانوية للذكور، يقوم بتدريس مناهج وزارة التربية، يدرِّس فيه أميز الأساتذة والمدرسين في دمشق.

وسبب تأسيس الشيخ أحمد كفتارو معهد الأنصار الإعدادي والثانوي الخاص، هو أن الشيخ أحمد كفتارو زار المدرسة العازارية في حي باب توما سنة (١٩٤٩م).

ولما دخل إلى غرفة المدير وجد صوراً لأبرز الشخصيات السياسية

والعلمية التي درست وتخرجت في هذه المدرسة، ومنها صور لأربعة رؤساء للجمهورية، وهم:

حقي العظم، تاج الدين الحسني، شكري القوتلي، العقيد فوزي سلو!

ازداد شعور الشيخ بالخطر، ونظر إلى نشاط إخوانه من كبار العلماء وأصحاب النهضات فرأى أن أكثر عملهم مقتصرٌ على التفكير في إنشاء المعاهد الشرعية التي لا مستقبل لأبنائها في إدارة شؤون الأمة، ولا بد من سد هذا الفراغ في العمل.

فبدأ التفكير بإنشاء مدرسة يدرس المنتسبون إليها منهاج وزارة التربية في ذلك الوقت، وتؤهلهم للدخول إلى الاختصاصات الجامعية المتنوعة.

وهكذا قرر الشيخ أحمد كفتارو إطلاق المعهد رغم الإمكانات المحدودة جداً التي كان يمتلكها الشيخ في ذلك الوقت، ورغم الاضطرابات التي كانت تشهدها البلاد، فاستأجر الشيخ صفاً في مدرسة في حي البحصة، قريباً من المرجة، من وزارة المعارف آنذاك، وجهزها بسرعة قصوى لتبدأ باستقبال الطلاب للعام الدراسي (١٩٤٩-١٩٥٠م)، وبدأ يحثُّ الناس على التسجيل في المعهد من خلال دروسه وإخوانه، فأقبل الطلاب على التسجيل فيها.

- تأسيس **معهد بدر** للإناث سنة (١٩٦٤م)، وهو مدرسة خاصة للمرحلتين الإعدادية والثانوية العامة للإناث.

- تأسيس **مجمع أبي النور** والذي سمي من بعد باسمه ويضم:

١- تأسيس **المعهد الشرعي للدعوة والإرشاد** سنة (١٩٧٥م) للذكور والإناث، وقد خرَّج المعهد خلال أربعين عاماً آلاف الدعاة من جميع أنحاء الأرض، وكانت مناهجه متكاملة يدرس فيه الطالب العلوم الشرعية والعربية والدعوة والتصوف خلال ست سنوات، ثم تحول هذا المعهد بعد وفاة الشيخ سنة (٢٠١٥م) إلى ثانوية شرعية باسم **ثانوية الغد المشرق**.

٢- تأسيس **دار لتحفيظ القرآن الكريم**، باسم دار العلامة الشيخ محمد أمين كفتارو سنة (١٩٨١م).

وكان الشيخ أحمد كفتارو يشجع تلاميذه على القراءة وحفظ القرآن وإتقانه على كبار شيوخ القراء، كيف لا، وهو تلميذ شيخ القراء محمد سليم الحلواني.

٣- **اهتمامه بالتعليم العالي**، فأقام اتفاقيات للتعاون مع عدد من جامعات العالم الإسلامي، **فافتتح فرعاً لكلية الدعوة الإسلامية** سنة

(١٩٨٢م)، وفرعاً لكلية أصول الدين بجامعة أم درمان سنة (١٩٩٢م)، وفرعاً لكلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر سنة (٢٠٠١م)، وفرعاً لقسم الدراسات العليا لعدد من الجامعات: أم درمان (السودان)، الأوزاعي، معهد الدعوة الجامعي (بيروت)، وقبل ذلك سافر بعض الأساتذة والباحثين إلى عدد من جامعات العالم لتحصيل الشهادات العليا[1].

وكان التعليم الجامعي والدراسات العليا الذي افتتحه الشيخ في مؤسسته فرصة لطلاب المعاهد الشرعية في سورية وغيرها؛ لمتابعة تحصيلهم العلمي، ونيلهم لأعلى الشهادات الجامعية، وتخرَّج فيه المئات من حملة الماجستير والدكتوراه.

٤- افتتاح **معهد لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها** في عام (١٩٨٨م)، مدة الدراسة بها عامان دراسيان، يلتحق بعدها الطالب في الكليات الجامعية للدراسات الإسلامية.

افتتاح فرع **للدراسات الإسلامية لغير المتفرغين** في عام (١٩٩٣م)؛

---

(١) ثم أثمر ذلك صدور المرسوم التشريعي رقم (٤٨) للعام ٢٠١١م بإحداث معهد الشام العالي للعلوم الشرعية الذي تحول سنة ٢٠١٧م إلى (جامعة بلاد الشام) بفروعه الثلاثة: مجمع الشيخ أحمد كفتارو، مجمع الفتح الإسلامي، مجمع السيدة رقية.

بهدف تأهيل الطلبة غير القادرين على الانتظام بدوام يومي، والدراسة في هذا القسم موزعة على سبعة مراحل، يدرس الطالب المواد المقررة في كل مرحلة لوحده، ويتقدم للامتحان بها، ويقيم المجمع في كل عام دورة امتحانية واحدة، ودورتين تكميليتين، وينال عندما يجتاز المراحل الأولى الثلاثة شهادة دبلوم التأهيل الشرعي، ثم إذا اجتاز المراحل الباقية من السبعة ينال شهادة الدراسات الإسلامية لغير المتفرغين.

ولهذا القسم فروع في عدد من المدن السورية في حلب واللاذقية والقامشلي.

ويعتبر هذا القسم فرصة المثقفين كافة، والدعاة غير المتخصصين بالشريعة الإسلامية أن يتابعوا تحصيلهم العلمي في مجال الدراسات الإسلامية، ويكوِّنوا ثقافة إسلامية في كافة العلوم الشرعية.

٥- **إقامة دورات تأهيلية عالمية سنوية في دمشق للأئمة والخطباء والمدرسين الدينين والدعاة للبلدان الناطقين بغير العربية**، وكانت الدورة الأولى سنة (١٩٩٣م)، ثم تتابعت هذه الدورات السنوية حتى عام (٢٠١١م)، وكانت هذه الدورات مقسَّمة إلى خمس شعب، بالعربية، والإنجليزية، والروسية، والتركية، والفرنسية، والتحق بها عبر سنوات

إقامتها مئات الأئمة والخطباء من شتى أنحاء العالم.

٦- إقامة دورات لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.

٧- افتتاح عدد من المعاهد الشرعية والمراكز الإسلامية في كثير من بلدان العالم، منها: معهد الإمام أبي حنيفة في جركيسك بروسيا الاتحادية، معهد بداية الهداية في جاوة بإندونيسيا، معهد الأنصار في سومطرة بإندونيسيا، معهد الدراسات العربية والإسلامية في ولاية لوس أنجلوس بالولايات المتحدة، وعدد كبير غيرها في تركيا وإفريقيا، وجنوب شرق آسيا.

المحور الرابع: الوحدة الإسلامية

حرص الشيخ أحمد كفتارو على وحدة الصف الإسلامي، ووقوف جميع الأديان صفاً واحداً في نشر الفضيلة، ومقاومة الإلحاد والغلو والتطرف.

وتتجلى مظاهر حرصه على وحدة الصف الإسلامي خلال النقاط الآتية:

١- **دعوته إلى التآلف بين الصوفية والسلفية، والرجوع إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة لفهم الدين الحقيقي**، وهذا ما أكده بقوله:

"أنا صوفي وسلفي معاً، التصوف عندي هو تزكية النفس، كما ورد ذكرها في القرآن الكريم، بقوله تعالى: ﴿قد أفلح من تزكى﴾ وقوله تعالى: ﴿وقد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ وهو عندي ما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم عن مقام الإحسان بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وأنا أدعو إلى ترك التسميات، والمصطلحات التي فرقت المسلمين، لنرفع كلمة التصوف، ولنرجع إلى مصطلح القرآن والسنة، ولنترك البدع التي دخلت على التصوف كما دخلت على أغلب العلوم الإسلامية، مثل

الأخبار الموضوعة في الأحاديث، والأخبار الفاسدة في التفسير، ولنعد إلى حقيقة الإسلام الصافي".

٢- نبذ التعصب المذهبي، ومظاهر الجمود، والدعوة إلى الانفتاح على كافة المذاهب، وقبولها، والعمل بها، وترك الخلاف في الجزئيات، والتفاف حول الكليات التي جاء بها القرآن الكريم.

٣- الدعوة إلى الوحدة الإسلامية بين السنة والشيعة، ورفض التفرقة، والعمل معاً في خدمة الدين الإسلامي، وأكد هذا المعنى بقوله في الجامعة العلمية في مدينة قم سنة (١٩٧٢م):

"كم يؤسفني ألا أرى الإسلام بشقيه- السنة والشيعة- شيئاً واحداً، وشعوراً واحداً وأملاً واحداً، هذا ما يعتقده كل مسلم، وما أرجوه أن هذه القوى الكامنة في القلوب والنفوس تظهر في عمل مشترك؛ لإعادة بناء الإسلام وتجديده، ليقود العالم من جديد، كما قاده إلى العلم والحضارة، وإلى الوفاق والإخاء، والخدمة الإنسانية على أيدي آبائنا الأولين"[١].

---

(١) زيارة المفتي العام للديار الشامية للجامعة العلمية في قم.

المحور الخامس: الحوار الإسلامي المسيحي

حمَل الشيخ أحمد كفتارو على عاتقه مهمة الحوار مع جميع الأديان لا سيما المسيحية منهم، وذلك منذ بدايات نشاطه الدعوي، وألقى في الأربعينات من القرن الماضي عدداً من المحاضرات حول هذا الموضوع في المساجد وغيرها، وكانت تلك المحاضرات ظاهرة فريدة في عصرها، وكانت قفزة نوعية في الخطاب الديني في ذلك العصر، ومن هذه المحاضرات:

١- التعاون الإسلامي المسيحي، وهل يمكن أن يتغلب على الإلحاد.

٢- التآخي بين المسيحية والإسلام[1].

٣- مصافحة المسيحية والإسلام في ظلال القرآن.

وكان له زيارات متبادلة مع كبار الشخصيات الدينية في العالم، حتى إنه يكاد لا يوجد مؤتمر حول الحوار الديني حصل في العالم في النصف الثاني من القرن العشرين إلا وقد شارك فيه، وترك فيه أثراً كبيراً.

ومن صور ذلك ما جرى معه على مائدة الرئيس الأسبق شكري

---

(١) المقصود من وحدة الأديان هنا وحدة مصدرها، وكان مما كتبه في إحدى مقالاته في جريدة الأيام بتاريخ (١٥/ ٤/ ١٩٥٦م): «الأديان كلها من مصدر واحد، فليتحابب أهل الأديان السماوية، وليناصر بعضهم بعضاً».

القوتلي حيث كان حاضراً عدد البطاركة، ورجال الدين المسيحي وعدد من العلماء المسلمين، فقام البطريرك تيوديوس، وتكلم عن بعض المواقف التاريخية التي أثارت الشحناء بين المسلمين والمسيحيين، وكأنه يشير إلى ظلم تعرض له المسيحيون الشرقيون، فقام الشيخ أحمد كفتارو وتكلم بما يجيب عن تلك الشبهات التي أثارها البطرك ثم قال:

«متى نرى الوقت الذي يتم فيه التلاقي والتعاون؟! أما آن الوقت لكي ننبذ الخصام؟! أما آن الوقت لنتلاقى على كلمة سواء».

فما كان من البطريرك الذي سمع هذه الدعوة إلا أن هبَّ من مقعده قائلاً: «نعم، لقد آن الأوان..». ومد يده لتلاقي يد الشيخ أحمد كفتارو ويتصافحا، وسط تصفيق من الجميع.

زيارة سماحة الشيخ أحمد كفتارو للفاتيكان سنة (١٩٨٥م)

قام سماحة الشيخ أحمد كفتارو بزيارة للفاتيكان سنة (١٩٨٥م) والتقى فيها البابا يوحنا بولس الثاني، وألقى فيها محاضرتين حول الحوار الديني، تحت عنوان: (الإسلام والتسامح الديني)، (تأملات عالمية في الإسلام والمسيحية).

وكان يؤكد دائماً في كلماته على دور الأديان في إنقاذ الإنسان، وعلى نقد المسيحية من داخلها، ويؤكد على أن عودة رجال الدين المسيحي إلى النقد الموضوعي سيوصلها إلى حقيقة الإيمان.

ويتحدث الشيخ أحمد كفتارو في أحد حواراته مع بابا الفاتيكان قائلاً:

هل تدري يا سيادة البابا من سبب نشوء الإلحاد في العالم؟

قال بابا الفاتيكان: ما هو؟

فأجابه الشيخ أحمد كفتارو: أنتَ..

فنظر بابا الفاتيكان إلى الشيخ أحمد كفتارو نظرة استغراب واستهجان!!

فقال الشيخ أحمد كفتارو: وأنا أيضاً.

فسأله بابا الفاتيكان: وكيف ذلك؟!

فقال عندها الشيخ أحمد كفتارو: يا سيادة البابا، حينما نقدم للناس ديناً يتناقض مع العقل، ويصادم الفطرة، ويحاصر الفكر، ماذا سيكون جواب العقلاء الأحرار؟ إننا نقول للثوب الأبيض إنه أسود، وقالت الكتب السماوية: إنه أسود.

والعين والعقل يرى أنه أبيض، فماذا ستكون النتيجة؟

إذا لم يقم رجال الأديان بتصحيح معتقداتهم وفق إرادة الله التي لا يمكن أبداً أن تكون مخالفة للعقل والمنطق فإن علينا أن نتهيأ لعرس البوم.

فقال بابا الفاتيكان: وما عرس البوم؟

فقال الشيخ أحمد كفتارو: يروى أن أميراً شاباً ورث ملك أبيه بعد موته، وكان مسرفاً مِتلافاً مبذراً، التفت إلى أهوائه وشهواته، وسيَّب أمر الملك والمملكة وراء ظهره حتى خربت وفسدت، وكثر نعيق البوم الذي يعيش على الخراب.

تقدمت بومة إلى أخرى تطلب يد ابنتها لابنها، فقالت: إني لا أقبل لابنتي مهراً أقل من خمسين مدينة خربة.

فقالت أم البوم الخاطب: هذا كثير.. ولم يخرب إلى الآن إلا عشر

مدائن!! لكن إن أطال الله عمر أميرنا المسرف فإني أسلمك خمسين مدينة خلال خمس سنين، ونعقد حينئذٍ عرس البوم.

وبعد أن ضحك البابا لما سمع قال الشيخ أحمد كفتارو:

يا سيادة البابا، إذا لم يرجع العلماء ورجال الأديان إلى إظهار حقيقة الأديان فإن عرس البوم قادم لا محالة.

وفي هذه القصة ما فيها من الإشارات المهمة التي يجدر تأملها.

ومن الجهود التي أثمرت في حواره مع الأديان:

حوار مع عدد من رجال الدين من اتحاد الكنائس البروتستانتية في ألمانيا، وكان ذلك من خلال عدة جلسات في ألمانيا وفي مجمع أبي النور، وفي ختام الحوار صدرت هذه البيانات التي نقتطف منها هذه الفقرات.

١) البيان الصادر من اتحاد الكنائس البروتستانتية في ألمانيا سنة (١٩٨٠م)، والذي جاء فيه:

«إن اللقاء تم بروح من الاحترام والاعتراف بالرسالتين السماويتين اللتين نزلتا على عيسى رسول الله ومحمد نبي الله، واللتين تهدفان إلى سعادة الإنسان وسلامته، لقد خدم هذا اللقاء التعارف المتبادل للمؤمنين

من الدينين، كما ساعد على إزالة سوء التفاهم، وحقق إمكان تعاون مستقبلي مشترك، إن ما تم إبرازه على وجه الخصوص في هذه المباحثات هو إجماع الديانتين الإسلامية والمسيحية، على الإيمان بالله الخالق الواحد الأحد، الذي أرسل عيسى ومحمداً رحمة للناس، ومن أجل إسعادهم».

٢) البيان الصادر عن مؤتمر السلام العالمي في ألمانيا سنة (١٩٨٦م)، والذي جاء فيه:

«نحن المشتركين في هذا اللقاء، المنتمين إلى دينين سماويين، نتفق في الإيمان بالله الواحد الأحد، خالق الأرض والسموات، كما نتفق بأنه لا إله إلا هو، ونشهد كأناس تابعين للسيد المسيح رسول الله، وللنبي محمد رسول الله، بإيماننا بالله، وبرسالتي عيسى ومحمد السماويتين من جهة، والعمل الشامل من أجل السلام، شيئان متلازمان».

وهنا يرد تساؤل ما هو الباعث الذي دفع الشيخ أحمد كفتارو للسير بهذا الاتجاه الذي لم يكن معروفاً في الأوساط الدينية الإسلامية بدمشق خاصة والعالم عامة؟

ويجيب الشيخ أحمد كفتارو نفسه عن هذا السؤال بقوله:

«ويدفعني إلى ذلك شيئان: **أولهما**: عقيدتي الإسلامية؛ لأن كل من

يقرأ القرآن يجد فيه خلاصة عن كل ما أتى به السيد المسيح، وعن كل ما أتى به نبي الله موسى، فنحن نعتقد بأن القرآن يتضمن موضوعات عديدة: منها الحديث عن أنبياء التوراة، ومنها الحديث عن حياة سيدنا عيسى المسيح، ومنها ما أتى متمماً لما جاء به أنبياء الكتاب المقدس المنزل من عند الله، ولذلك فإنني أجد أن من عقيدتي الإسلامية، ومن واجبي الديني أن أعمل على التقاء العالمين الإسلامي والمسيحي؛ لأننا دينياً ملتقون.

وثاني ذينك الأمرين: هو مصلحة السلام العالمي؛ إذ إن الإنسان أصبح الآن على شفا جرف من الانهيار»[1].

(١) الدعاة والدعوة (١/ ٥٤٥).

الوسائل والطرق

التي تجعل عملية الحوار الديني ناجحاً في نظر الشيخ أحمد كفتارو

قام الشيخ أحمد بتقديم الطرق التي تسعى للقاء الأديان في ورقة قدمها لمؤتمر منبر الأديان العالمي المنعقد في سان فرانسيسكو سنة (١٩٩٠م)، فقال فيها:

«بين أيدينا اليوم أكثر من طريق للقاء الأديان، منها:

١. **أن نرجع إلى كتبها الأصلية المنزلة**، فنجمع منها ما اتفقت عليه الأديان، من وحدانية الله العظيم، خالق كل شيء على أبدع نظام، وأن الإنسان أخو الإنسان.

٢. **أن ننظر إلى الوصايا الأخلاقية التي تجعل العالم سعيداً موحداً** إذا عمل بها، ثم تعميم التعليم والإعلام بها، بمختلف الوسائل الحديثة، الأمر الذي لا يوصل العالم إلى السلام فحسب، بل يجعل من العالم كله أسرة واحدة متآخية متحابة.

٣. **أن ننظر وبكل شجاعة وصدق وإخلاص إلى أن مرور الزمن، وكثرة الترجمات، ووجود أصحاب المطامع والأهواء، قد أثَّر على بعض أصول الدين** الداعية إلى المحبة والتعاون، وفسح المجال لبذور التعصب

والحقد بين عباد الرب الواحد، الأمر الذي يجب مراقبته وتصحيحه، وإعادة النظر في التأويلات المعاكسة للقاء الأديان، مستعينين بالعقول النيرة، والأبحاث العلمية الصحيحة، ولابد لهذه الوسائل وما يشبهها من مؤتمرات حوار حر، يهدف إلى الوصول إلى الحقيقة، واللقاء الحقيقي بين الأديان السماوية».

المحور السادس: السياسة

بعد مرحلة الاستقلال في سورية بدأت منافسة شديدة بين جميع الأحزاب الموجودة في تلك الفترة، وكان موقف العلماء ينقسم إلى قسمين:

قسم ابتعد عن المشاركة في العمل السياسي، بل حتى الكلام في السياسة.

وقسم انخرط مع الجماعات والأحزاب الإسلامية التي رأت أن تسعى لحكم البلاد منفردة عن جميع مكونات المجتمع السوري، مما أدى إلى مواقف سلبية وصدام مع الحكام وسائر التيارات والأحزاب الموجودة.

بينما سار الشيخ أحمد كفتارو سيراً مختلفاً عن المسلكين السابقين، ويتحدث الشيخ أحمد كفتارو نفسه عن المنهج الذي سلكه في السياسة قائلاً:

«كنت أقرأ وأفهم من الخارطة السياسية في سورية والبلاد العربية بدقة وتراءى لي أن المنطقة قادمة على تغييرات سياسية تلوح اتجاهاتها في الأفق، وكنت أرى أن من الحكمة ضرورة عدم الدخول بصراعات سلبية مع التيارات الوطنية والعلمانية، ورحت أدعو لتغليب سياسة الحوار[1] وفعل الممكن على الصدام السلبي وعمل غير الممكن.

---

(١) وكانت مع جميع التوجهات: السياسية، والقومية، والعلمانية، واللادينية.

ودارت دورة الزمن، ومرت البلاد بأزمات خطيرة، ارتكب فيها السلبيون والمتطرفون، ودعاة ما يسمى (الإسلام السياسي) أفدح الأخطاء من قتل وتدمير وتفجير للسيارات، ونسبوا ذلك إلى الإسلام ظلماً وعدواناً، واستطعنا بفضل الله تعالى من خلال رصيد السياسة المعتدلة التي انتهجتها ونتيجة للقراءة الصحيحة للمتغيرات في المنطقة، ومن خلال العلاقة الطيبة مع الرئيس حافظ الأسد وما يتمتع به من رؤية مستقبلية، استطعنا الحفاظ على العمل الإسلامي المعتدل الذي أعطى ثماراً كبيرة، حتى إن كثيرين من الإسلاميين الذين كانوا ينتقدون هذا الاتجاه المعتدل منذ أربعين عاماً باتوا يتسابقون إليه اليوم ويتجاوزونه»[1].

ونجح الشيخ كفتارو في هذا التوجه الذي مشى عليه في حياته، وأثمر ذلك على الصعيد الإسلامي كثيراً، ومن ذلك:

١- إقناع أمين عام وزارة المعارف الأستاذ خالد بوظو بتطوير مناهج التربية الدينية في المدارس الرسمية.

كان نصاب مادة التربية الدينية في المدارس الرسمية ساعة أسبوعية، وتدرَّس في الصفوف الانتقالية فقط، ولا تدرَّس في صفوف الشهادات

---

(١) الشيخ أحمد كفتارو يتحدث (ص١٥٦).

(الكفاءة والثانوية).

عمل الشيخ أحمد كفتارو في مطلع الخمسينات على إقناع أمين عام وزارة المعارف **الأستاذ خالد بوظو** لتطوير مادة التربية الإسلامية، والاهتمام به، وزيادة عدد الساعات الخاصة بها.

ونجحت مساعيه بعد زيارات متكررة، صدر قرار بإضافة حصة دينية ثانية لمادة التربية الإسلامية، وتمَّ اعتمادها مادة أساسية في كافة الصفوف الدراسية منذ ذلك الحين.

٢- نجاح مساعيه لدى جميل مردم بك رئيس الحكومة في إغلاق أماكن البغاء في سورية.

وذلك في زيارة لجميل مردم بك للشيخ أحمد كفتارو؛ ليطلب منه الدعم والتأييد في الانتخابات.

فقال له الشيخ أحمد كفتارو: إن عمل الإنسان هو الذي يجلب له تأييد الناس.

فطلب جميل مردم من الشيخ أحمد كفتارو إلى أن يرشده إلى عمل من هذه الأعمال، فطلب منه العمل على إلغاء محلات البغاء السري والعلني في جميع أنحاء الجمهورية العربية السورية.

ولم يمضِ سوى بضعة أيام على هذا اللقاء، وبينما كان الشيخ أحمد كفتارو يلقي درسه العام في المسجد الذي كان يضم الآلاف من الناس؛ إذ دخل شرطي المسجدَ، وتخطى رقاب المستمعين، واقترب من الشيخ مقدماً له ورقة كانت بيده.

فقام الشيخ أحمد كفتارو بقراءة هذه الورقة على الحاضرين، وفيها قرار صادر عن مجلس الوزراء يقضي بإلغاء محلات البغاء السري والعلني في جميع أنحاء سورية.

ولما انتهت الانتخابات كان جميل مردم من المبرزين في الفوز بالنيابة..

٣- القيام بدروس دينية في معسكرات الجيش أثناء حكم حسني الزعيم.

وكان حسني الزعيم قد نحا منحى مخالفاً للشريعة الإسلامية، ومحارباً للعلم والعلماء، مصراً على السير على خطى مصطفى أتاتورك.

ويسجل الشيخ أحمد كفتارو نظريته التجديدية في علاقة العلماء بالحكام قائلاً:

«الحاكم ابن بلدك، ولو لم يكن حاكماً ماذا يكون؟ هو إنسان مثلك،

ولكن صار حاكماً، ولا يزيد في شيء عنك إلا أنه تحمل مسؤولية أمته وشعبه، فإذا أنت أعنته في ميدان واجباته فإنه يدعمك ويحبك، وإذا طلبت منه ما يمكن أن تطلبه وما يمكن أن يستجيب له أيضاً يستجيب لك، أما أن تطلب أكثر من الممكن، سواء في قابليته أو في مقدوره فلن يستجيب لك، أنت كداعية للإسلام يجب أن تعرف كيف تستعمل طاقاتك في تحقيق الهدف»[1].

ثم قال: «قد لا يستطيع رجل الدولة، وقد لا يملك الإمكانيات التي يطلب العالم منه أن يقوم بها؛ لأكثر من اعتبار، وفي هذه الحالة لا يجوز للعالم الإسلامي أن يحرج الحاكم الوطني، ويطلب منه أموراً لا يستطيع تحقيقها، إنه لا يقبل من العالم الإسلامي أن يطلب من الحاكم الوطني كل شيء؛ لأن الحاكم قد يطلع على أشياء لا يطلع عليها عالم الدين الإسلامي، وهناك إمكانات سياسية، وإمكانات اقتصادية، إمكانات اعتبارية كثيرة، وهناك أمور أسياسية، وهناك أمور ثانوية، وعلى هذا الأساس يجب أن يكون هناك تلاق دوماً بين عالم الدين الإسلامي، وبين الحاكم الوطني للتعاون والتباحث.

---

(١) الشيخ أحمد كفتارو يتحدث (ص١٩٥).

ولو فرضنا أن الحاكم يستطيع أن يعمل العمل الإسلامي المطلوب ولم يقم به، فإننا في هذه الحال يتوجب علينا ألا نشن عليه الحرب الهجومية، أو الحرب المدمرة، لا.

يجب أن يكون عملنا كله إيجابياً، فنبحث عن المنافذ التي تسترعي انتباهه، وتستوجب قناعته»[1].

ثم قال: «المسلمون يجب أن يتعاونوا مع حكامهم ليس على أساس أن يتم كل شيء في يوم واحد، فهذا لم يفعله النبي ولا غيره من الأنبياء، وحتى الله لم يفعله، فالله تعالى كان قادراً على أن يعمم الإسلام في يوم واحد، فلو أن العلماء فقهوا هذا الحكم الشرعي وهذا البرنامج السماوي الإلهي والنبوي في التعامل مع الحاكم الوطني بمعنى التعاون والتلاقي والتأني وعدم الاستعجال لكان الخير الكثير قد عم كل العالم الإسلامي، ولنهض العالم الإسلامي نهضته التي هو مهيأ لها في ظل القرآن الكريم والإسلام.

لكن هناك أخطاء من الحكام كما أن هناك أخطاءً من علماء الدين الإسلامي، وخاصة أولئك الذين يعتزلون الحاكم؛ لأنهم حفظوا مقولة

---

(١) الشيخ أحمد كفتارو يتحدث (ص١٩٦).

تقول: (بئس العلماء على أبواب الأمراء). وهذه ليست قرآناً منزلاً ولا حديثاً نبوياً!!

قالها شخص ما، وقد يكون قالها بنية صالحة، قالها بمعنى تحذير العلماء من استغلال الدين لأغراضهم الخاصة، أما أن تذهب إلى الحاكم لتتعاون معه على الخير، وعلى خدمة الأمة، وعلى خدمة المجتمع، فها فرض من الفروض الأساسية في الإسلام.

لقد قال الله تعالى في القرآن الكريم لموسى وهارون: {اذهبا إلى فرعون} ولم يقل: بئس موسى وهارون على باب فرعون!

وأيضاً فإن كثيراً من الإسلاميين يفهمون قول النبي صلى الله عليه وسلم: (**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**)[1]. يفهمون هذا القول فهماً مغلوطاً.

هذه الكلمة حق ولكن يساء استعمالها، فتستعمل بالعنف والسلبية وبعكس المنهاج القرآني، فالمنهاج القرآني في كلمة الحق عند السلطان الجائر يتبدى لنا من خلال توجيه موسى عليه السلام إلى كيفية التعامل مع فرعون، ففرعون سلطان جائر، نعم جائر، وفي هذه الحالة ماذا قال موسى

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٢).

وهارون عند السلطان الجائر؟ هل قالا كلمة حق أم كلمة باطل؟ كلمة حق، كيف؟

إن المخطط الإلهي (لكلمة حق عند سلطان جائر) بيَّن لهما أسلوبها، فقال سبحانه وتعالى: {فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى} وفي آية أخرى: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة} أي: بالإقناع، بالحوار الإقناعي، فتخاطب الملك بالعبارات التي تفتح قلبه، فتقول له: يا جلالة الملك، الإسلام كذا وكذا، وأنت إذا فعلت كذا مما فيه مصلحة المسلمين يرتفع مقامك بين الناس، ويحبك شعبك..

كثير من المسلمين يفهمون كلمة الحق عند السلطان الجائر؛ إما بالسباب أو الاغتيالات، والسبب أنهم لم يتفقهوا بفقه حكمة القرآن، ولا تفقهوا بفقه حكمة رسول الله؛ لذلك نجد النتائج عكس ما يرغبون فيه، وبعد مدة ينكشف لهم ما وقعوا فيه من خطأ فيندمون، ولكن تكون الفرصة قد فاتت، ووقعت المآسي والنكبات، عليهم هم أنفسهم، وعلى أمتهم، وعلى دولتهم، وعلى الإسلام، وعلى المسلمين»[١].

---

(١) الشيخ أحمد كفتارو يتحدث (ص١٩٨).

المحور السابع: الإعلام

كان الإعلام في منتصف القرن العشرين ملوثاً بكثير من المخالفات الشرعية، مما دعا المشايخ لمحاربته والتصدي له، والإعراض عنه بالكلية، ظناً منهم أنهم يمكن أن يتجاوزوا خطره وتأثيره، وأفتوا بتحريم إدخال التلفاز إلى بيوت المسلمين، واستمر بعضهم بتبني هذه الفتوى حتى أواخر القرن العشرين الميلادي، في حين كان للشيخ أحمد كفتارو عناية كبيرة بالجانب الإعلامي مما أدى إلى خلاف بينه وبين بعض المشايخ التقليديين في هذا الجانب.

وتتلخص عناية سماحة الشيخ أحمد كفتارو بالإعلام خلال المحاور الآتية:

١. تأكيد سماحة الشيخ أحمد كفتارو على أهمية الإعلام في الخطاب الديني.

رأى الشيخ أحمد كفتارو تأثيراً كبيراً للإعلام على الفرد والأسرة والمجتمع، وما يخلفه من آثار سلبية أو إيجابية بحسب الطرح الذي يقدِّمه.

وكان دائماً يؤكد على هذا المعنى بقوله: «لو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يملك وسائل الأعلام الموجودة اليوم بين أيدينا لاستغنى عن كثير من الحروب والمعارك».

وتحدَّث الشيخ أبو الحسن الندوي عن فكر ومنهج الشيخ أحمد كفتارو واهتمامه بالإعلام وإصلاحه، وذلك في خمسينات من القرن العشرين الميلادي، حيث قال:

«وله خطة ومنهج في الإصلاح يعتقد أنه إذا نفذ اتجهت البلاد بأسرها اتجاهاً دينياً، وهو إصلاح المعارف وتوجيهها الإسلامي، وإصلاح الإذاعة وإصلاح السنما ورقابة الأفلام وتربية أئمة المساجد، وهو قوي الأمل عظيم الثقة بتأثير هذ الوسائل العصرية في توجيه الشعب»[1].

وكان يرى أن الإعلام من أهم الأدوات التي يجب على الداعية أن يستعملها اليوم، ويجب أن يكون على دربة وخبرة عالية فيها، حتى يستطيع إيصال صوته بنجاح إلى أكبر فئة في المجتمع.

٢. محاولة الشيخ أحمد كفتارو إصلاح الإعلام، أو التأثير فيه كحد أدنى.

عمل الشيخ أحمد كفتارو عدة خطوات نحو إصلاح الإعلام؛ ليكون في خدمة العمل الدعوي، وهذا ما أكده تلميذه وصديقه الشيخ محمد بشير الباني بقوله:

وقام بتشجيع عدد من تلاميذه إلى الولوج للعمل في ميادين

---

(١) مذكرات سائح في الشرق العربي (ص٢٧٦).

الإعلام، ونجح بعض تلاميذه في ذلك، وقاموا بتقديم عدد من البرامج النافعة والهادفة[1].

وكان سماحته أول عالم سوري- ومن أوائل العلماء- الذين كان لهم دروس دينية تعرض على شاشات التلفاز.

وكان من أوائل من دعا إلى تأسيس قناة دينية، تكون منبراً لنشر الإسلام الصحيح الوسطي، بعيداً عن غلو السلفية، وشطح الصوفية، ولما اجتمع بالسيد صالح كامل صاحب مجموعة (Art) قال له: بلغني أنك لا تدفع زكاة مالك!!

فأجابه السيد صالح كامل: بل إني أدفع زكاة مالي وفوقها الكثير!! كيف لا أدفع زكاة مالي؟!!

فقال له: مجموعة القنوات التي تملكها، أليس من زكاتها أن يكون فيها قناة إسلامية؟!

---

(١) ومن أوائل تلامذة الشيخ أحمد كفتارو الذين شجعهم على الانخراط في الإعلام، وكان لهم أثرهم فيه: الأستاذ زهير الأيوبي مدير إذاعة الرياض، وأحد مؤسسي الإعلام الإسلامي، والأستاذ عدنان دبسي مدير إذاعة القرآن الكريم في الرياض، والأستاذ ميسر سهيل معد برامج ومذيع في قناة BBC، وغيرها من القنوات الفضائية، والأستاذ مروان شيخو، من مشاهير مؤسسي الإعلام الإسلامي في سورية.

وأثمر هذا الحوار بإنشاء قناة (اقرأ) الدينية.

وتتجلى أهمية الإعلام في فكر الشيخ أحمد كفتارو من خلال الخطوات العملية الآتية:

١- **تسجيل كافة خطبه ودروسه** التي كان يعقدها في المساجد حتى ينتفع بها أكبر شريحة في المجتمع، ولم يكتفِ بذلك، بل قام **بتأسيس قسم للإعلام في مجمعه** يقوم بحسن إخراج هذه الدروس وأرشفتها، ويقدم الخبرة الإعلامية اللازمة لنجاح العمل الدعوي.

٢- **تقديم الدعم والتشجيع لأيِّ عمل ديني إعلامي**، ومن ذلك تشجيعه لمصطفى العقاد على تنفيذ فلم (الرسالة)، وقال له:

«إن عملك هذا ينافس أعمال ودعوة علماء المسلمين كلهم في القرن العشرين».

في حين وقف كثير من المشايخ موقفاً سلبياً تجاه هذا العمل، وغيره من الأعمال الدينية الإعلامية، ومنع عرض وتداول فيلم الرسالة في المملكة العربية السعودية.

٣- **الاهتمام بالمسرح، وتشجيعه لعدد من طلابه لا سيما في معهد الأنصار على تقديم المسرحيات الهادفة**، وهذا ما أكده تلميذه وصديقه

الشيخ محمد بشير الباني قائلاً:

«الشيخ أحمد كفتارو بما كان عليه من سمو في المعرفة، واطلاع على مناهج الإصلاح.. أدرك دور المسرح الهادف، وأثره في تحقيق الغايات والأهداف للوصول إلى ترقية الإمة في نضالها المقدس»[1].

ثم قال: «فالمسرح لا يقتصر على رفاهية وترفيه، ولكن يعالج المجتمع ويطبب أمراضه، وينبغي أن يحمل الغذاء والدواء، وأن يحمل قارورة الشفاء، وأيُّ مانع يمنع المتدين من أن يناضل من أجل تحسين وضع المسرح، وأن يأخذ دوره الفعال في الجهود الطويلة في هذا المضمار»[2].

وغيرها الكثير من النقاط، فضلاً عن ذلك اهتمامه بالصحافة، وكتابة المقالات المهمة في عدد من المجالات الإصلاحية، وتبعه بذلك نخبة من تلاميذه.

---

(١) المرشد المجدد (ص٢٦٦).

(٢) المرجع السابق نفسه.

الفصل السابع:

المنهج الفكري للعلامة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

المبحث الأول:

ملامح المنهج الفكري للعلامة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

المطلب الأول: الإمام الشهيد والمواجهة الفكرية لأعداء الأمة:

جند الإمام الشهيد[1] نفسه منذ شب عن الطوق للعمل في سبيل خدمة

---

(١) ولد الإمام الشهيد، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي سنة (١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م)، ومضى إلى لقاء ربه شهيداً حميداً إن شاء الله سنة (١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م)، نشأ في رعاية والده العارف بالله الملا رمضان البوطي، وأخذ عن عدد من كبار العلماء من أشهرهم الشيخ حسن حبنكة الميداني، الذي تأثر به، كما أخذ عن عدد من كبار تلامذته، وتخرج في معهد (التوجيه الإسلامي) سنة (١٩٥٣م)، ثم التحق بكلية الشريعة في جامعة الأزهر في القاهرة، وتخرج فيها سنة (١٩٥٥م).

عاد إلى دمشق مدرساً للتربية الدينية في حمص، ومعيداً في كلية الشريعة في جامعة دمشق.

ثم أوفد إلى القاهرة لنيل درجة الدكتوراه، فنال درجة الدكتوراه في الفقه وأصوله بمرتبة الشرف الأولى، وكانت أطروحته في كتاب (ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية).

وفي عام (١٩٧٥م) عُين وكيلاً لكلية الشريعة، ثم عميداً لها في عام (١٩٧٧م).

شارك في كثير من المؤتمرات، وكانت خطبه ودروسه مقصداً لآلاف طلاب العلم، وكرِّم في كثير من المحافل العلمية، وترك أكثر من ستين مؤلفاً في شتى العلوم والمعارف كان لها أثرها الكبير في تصويب الفكر، ودفع الشبهات، وتثبيت أهل الحق.

استشهد وهو يفسر القرآن الكريم في درسه الأسبوعي في جامع الإيمان بدمشق مع أكثر من أربعين من نخبة الشباب فيهم حفيده الأستاذ أحمد بن توفيق رمضان.

هذا الدين؛ إذ جعل من نفسه حصناً منيعاً، ووظف ما آتاه الله عز وجل من رسوخ في العلم في سبيل هذه المهمة الجليلة. وبنى نشاطه الدعوي والفكري على قاعدة علمية راسخة، وشفافية وجدانية ربانية متميزة صقلت شخصيته، وأضفت عليها مسحة من الهيبة التي عرف بها في حياته. وما كان له أن يفلح لولا المقومات التي وفقه الله تعالى إليها منذ نعومة أظفاره ..

وقد تألق وعيه لما يحاك للأمة من مؤامرات نتيجة همٍّ حمله على عاتقه، وغدا يتقلب في غماره، فمنذ نشأته الأولى وظف نفسه جندياً في خدمة الدعوة إلى الله عز وجل والذود عن حياض الإسلام. ولعل ما يبرز هذا الجانب في سن مبكرة من حياته كتابه تجربة التربية الإسلامية الذي ألفه وله من العمر تسعة وعشرون عاماً.

والمتصفح لهذا الكتاب يدرك مدى سعة اطلاعه على المكائد مما ينشر في شرق العالم وغربه ضد هذا الدين، في وقت لم يكن العالَم يعرف فيه تقنية انترنت ولا محرك البحث، وأشد ما يلفت نظر القارئ في هذا الكتاب مدى حرصه على انتهاز الفرص؛ إذ دخل في تجربة تدريس طلاب المدارس الثانوية العامة - كمدرس لمادة التربية الإسلامية - فترة وجيزة، فخرج منها بفوائد فريدة ما وقعت على مثلها ممن أمضوا حياتهم في مثل هذه المهمة.

المطلب الثاني: الجانب العلمي والفكري في شخصيته:

لعب الجانب الأكاديمي في شخصية الإمام الشهيد دوراً هاماً في بث الوعي وتحصين العقول في أوقات عصيبة وأيام حالكة، فقد كان الحصن الذي تهاوت عنده هجمات عرفتها سورية في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي واجه بطريقته الفريدة هجمات متنوعة. منها:

الوهابية، والتيارات الإلحادية، وحملات التشكيك، ودعوات تطوير وتغيير استهدفت الثوابت التي قام عليها الدين الإسلامي .. والمتتبع المنصف لا ينكر جهوده التي آتت أكلها في تلك الحقبة، وحجمت هذه التيارات والهجمات، حتى جعلت الكثير منها أثراً بعد عين. كان كلما استشعر رائحة مكيدة أو لاحظ حبائلها جند نفسه للتصدي لها سواء في دروسه التي استقطبت الكثيرين آنذاك، أو في مؤلفاته التي كان الناس سرعان ما يتلقفونها من الأسواق، كما أنه لا يتوانى عن طرق أبواب المعنيين في سبيل الوقوف في وجه هذه المكيدة، من مسؤولين وغيرهم.

فعلى سبيل المثال، عندما ظهرت نشاطات وحملات مشبوهة لم تعهدها الساحة الإسلامية في الشام؛ تدعو إلى (**اللامذهبية**)، وتغرس بذور فكر لا يقيم للأئمة اعتباراً، وتطأ على ميراث فقهي ضخم خلفه

أئمة أعلام بحجة محاربة البدع، متسلقين أو متكئين على كلمـة (السـلف) .. شن العلامة البوطي معركته الهادئة على جبهات متعددة، فقـد تصـدى لهذا الفكر من خلال تدريسه لمادة تـاريخ التشريـع الإسـلامي في مسـجد دنكز أولاً، ثم أعاد الكرة في مسجد الإيمان مـرة أخـرى، وكـان هـذا رده العملي على دعاة اللامذهبية.

وفي ذات الوقت اسـتل قلمـه السـيال المرتكـز عـلى قدرتـه الأدبيـة العالية، ووظفه سنداً لرده العملي من خـلال تأليفـه لكتـاب **(اللامذهبيـة أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية)**، ثم أتبعه بكتـاب **(السـلفية مرحلـة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي)**، والكتابان كانا الفيصل في القضاء عـلى أحلام تلك الحملات ..

ومن أمثلة ذلك أيضاً: تصديه لتيارات الإلحاد مـن خـلال تدريسـه لمادة العقيدة الإسلامية عبر كتابه **(كبرى اليقينيات الكونية)** أولاً، وتأليفه كتاب **(العقيدة الإسلامية والتيارات المعـاصرة)** ثانيـاً، والـذي دأب عـلى تدريسه لطلاب كلية الشريعة سنوات طويلـة، ومـا كـان تأليفـه لكتـاب نقض أوهام المادية الجدلية إلا الجبهة الرديفة للجبهـة المسـجدية، فكانـت

هاتان الجبهتان بمثابة الحصن المنيع للمجتمع والمصل الواقي للعقول من أن تنالها أوهام هذه الضلالات الإلحادية ..

وهناك أمثلة أخرى تتجلى للمتتبع عند اطلاعه على العديد من كتبه ككتاب: (**لا يأتيه الباطل**)، وكتاب (**يغالطونك إذ يقولون**) .. وكلاهما قد درسهما في المسجد. وكان قد ألف من قبل كتباً أخرى **ككتاب (دفاع عن الإسلام والتاريخ)**، و(**المذهب الاقتصادي بين الشيوعية والإسلام**)، اللذان ألفهما في بداية حياته العلمية في ستينيات القرن الماضي رداً على شبهات وحملات من هذا القبيل.

المطلب الثالث: الجانب الوجداني، والروحي:

وللاطلاع على حقيقة هذا الجانب، لا بد من تسليط الضوء على العوامل التي بنت هذا الجانب من شخصيته، ويرتكز هذا الجانب على ثلاثة عوامل:

العامل الأول: وهو محبة الصالحين والتواضع لهم والتأدبِ معهم والتردد عليهم، سواء أكانوا من الأحياء عبر الزيارات المتبادلة، أو المنتقلين عبر تردده لزيارة قبورهم والتأدب في حضرتهم. وهو حال فخيم سرى إليه من حال والده واطلاعه على علاقته مع الصالحين، وكان لا يتوانى عن انتهاز الفرصة – رغم ضيق وقته – ليتخذ لقلبه زاداً من هذا الجانب الوجداني عبر مجالستهم وطلب الدعاء منهم إن كانوا من الأحياء، والدخول على الله من بابهم والدعاء عندهم إن كانوا من المنتقلين.

العامل الثاني: كان الإمام الشهيد كثير التبتل بالأسحار، كثير التضّرع، مكثراً من تلاوة كتاب الله، فكم وكم كان يمضي الهزيع الأخير من الليل باكياً يتردد صدى نشيج بكائه في جنبات بيته، يجأر إلى الله تعالى أن يستعمله في خدمة دينه وأن يلهمه الخير في أقواله وأفعاله ومؤلفاته.

العامل الثالث: وجود المرجعية الصحيحة: وهو أساس لا يمكن تحصيله عبر التلقي، وإنما يتم تحصيله من خلال ملازمة القدوة الصالحة والمرجعية الرشيدة، وقد توافر له هذا الجانب بوجوده تحت أنظار والده المعمّر الشيخ ملا رمضان البوطي رحمه الله تعالى، فلم يكن ليتخذ قراراً أو يخطو خطوة إلا بعد مشاورة مرجعيته الأولى في حياته، من خلال أخذه عن نخبة من العلماء العاملين الربانيين، ووجود المرجعية في حياة الداعية سر من أسرار نجاحه، فكيف إذا كان هذا المرجعية من العلماء الربانيين.

هذه العوامل الثلاثة انعكست على دروسه وكتبه، فآتت ثمراتها في عباد الله. وهذا الجانب لم يدركه إلا من عاشره عن قرب أو واظب على دروسه أو استعرض مؤلفاته بعمق، هذا الجانب هو السر في رقة قلبه، إذ تأخذه العبرة عند ذكر محبة الله عزّ وجل الذي دأب على مناجاته في الأسحار، أو عند ذكر الصالحين الذي تربطه بهم علاقة خفية وطيدة، أو عند استعراض المشاهد المؤثرة من سيرة سيدنا رسول الله ﷺ.

المبحث الثاني:

الخطوط العريضة في آثار العلامة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

المطلب الأول: شخصية العلامة الدكتور البوطي في مؤلفاته:

يمكن تقسيم منهجه الفكري في التأليف إلى ثلاثة أطوار نسبياً:

طور المؤلف الأديب.

وطور المؤلف المفكر الداعية.

وطور المؤلف السالك.

مع أن كل الكتابات الأدبية والفكرية لا تخلو من لمسات في التزكية والرقائق، كما أن كتاباته الفكرية والأدبية لا تخلو من نفحات وجدانية..

الطور الأول: المؤلف الأديب:

ويتمثل هذا الطور في كتبه الأدبية التي ظهرت في مجملها في مقتبل عمره، ولعل السبب في ذلك قرب عهده بعكوفه على كتب الأدب، ورغم إفراده لمؤلفات كان جانبها الأدبي هو الغالب - ويتمثل هذا في قصة (ممو زين) و(قصة سيامند) ومقالته الأولى أمام المرآة التي لا يجد المدقق فيها أي فرق بين أسلوبه وأسلوب الرافعي في كتابه وحي القلم - إلا أن المسحة الأدبية سمة تتميز بها كل كتاباته. وفي هذا الطور أيضاً قام

بتوظيف القدرة الأدبية في حل بعض المشكلات الاجتماعية من خلال مقالات أدبية نشرها في مجلة حضارة الإسلام في ستينيات القرن الماضي، ثم إنه جمعها في كتابه من الفكر والقلب.

الطور الثاني: المؤلف المفكر والداعية:

وهو طور توظيف القدرة الأدبية في سبيل الوقوف بوجه المكائد، فكان يتصيد السموم التي كانت تبثها المجلات والدوريات أو الإذاعات المسموعة آنذاك، فكم من خبر بثته إذاعة من الإذاعات مر على أسماع الناس مرور الكرام كان هو له بالمرصاد، يدوّنه ويكتب مصدرَه وتاريخَ بثِهِ، ولا يقف عند الحرف وإنما يغوص إلى ما وراء الحرف، فيرسل الرد لصاحب السموم ينصحه ويبين له خطورة ما نشر - إن أمكنه ذلك - ملتزماً مبدأ: (انصح بالسر ولا تغتب، وإذا نصحت فلا تعِب).

فإن لم يتح له ذلك يراسل إدارة تحرير المجلة، ويرسل لهم مقالة فيها المصل المضاد لما جاء في المقالة المشبوهة من دسائس. فإن نشروها فبها ونعمت، وإن تجاهلوا مقالته وأصروا على نشر الشبهة دون الرد، تتضح له رسالة هذا المجلة وهدفها وحقيقتها.

ومن هنا كان يحذر من مجلة العربي المعروفة، وكتابه (حوار حول مشكلات حضارية) بمجمله مقالات أرسلها كردود على مقالات مشبوهة لم تنشر في المجلة المذكورة، فغدا المصل المضاد اليوم أشهر من مقالة مشبوهة طوتها صفحات التاريخ مع المجلة التي روجت لها.

كما أن كتابه (**لا يأتيه الباطل**) رد على شبهات حول كتاب الله، كان قد تبجح بها وطرحها قس مصري على قناة أسست بغرض تشكيك البسطاء والسذج من المسلمين بقرآنهم، فكلف من يجمع له الشبهات، ثم عكف عليها ففندها ووأدها في مهدها الخبيث الذي خرجت منه.

ويلخص منهجَه في مواجهة الأفكار الشاذة أو الهدامة بالقول: **(الغزو الفكري الذي يقبل باسم العلم أو العولمة أو حرية النظر والفكر لا يمكن رده إلا بالسلاح ذاته، وليس من سبيل إلى استعمال هذا السلاح إلا البحثَ والنظرَ والحوارَ..)**.

ومن أبرز كتبه التي تعكس منهجه في هذا الطور: (يغالطونك إذ يقولون) - (الظلاميون والنورانيون) - (المرأة) - (منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم) - (هذه مشكلاتهم) - و(هذه مشكلاتنا) - (الإسلام ملاذ كلّ المجتمعات الإنسانيّة).

وتميّزت كتاباته في هذا الطور بأنه لم يقف فيها موقف المدافع الضعيف، بل واجه الخصوم بإبراز الدلائل العلمية على تهافت أفكارهم.

الطور الثالث: وهو طور المؤلف السالك في طريق التزكية: وهو الطور الذي غلب عليه في آخر حياته. وعند تتبع مؤلفاته في هذا الطور تجد أن مسحة السلوك والتزكية هي الغالبة عليها، إذ يكثر فيها ذكر الرقائق وقصص الصالحين. وعين هذه المؤلفات كتابه شرح الحكم العطائية، إضافة إلى كتابه الحب في القرآن - وهو من آخر ما ألفه - الذي ختمه بقوله:

(**لقد بدأت رحلة الكتابة والفكر في حياتي بالحب وها أنا ذا أختمها، على ما يبدو، بالحب! كان حديثي في بداية رحلتي هذه عن حب الإنسان للصور والأشكال وما فعله ذلك الحب في حياة كثير من الناس** - ويقصد قصة ممو زين - **وما فعله في صدر حياتي بي أيضاً** - ولعله يقصد العديد من المقالات التي ضمنّها كتابه من الفكر والقلب - **وها أنا ذا، في خواتيم هذه الرحلة أعود إلى الحديث عن الحب كما هو في القرآن، إنه حديث عن معين الحب ومن يؤول إليه هذا الحب .. ومعين الحب وصدره ومستحقه ألا وهو الله عز وجل .. ومرجع الحب ومن يؤول إليه هو الله عز وجل**).

المطلب الثاني: شخصية العلامة الدكتور البوطي في دروسه وخطبه:

بدأ رحلته في التدريس المسجدي من مسجد والده، ثم في عام (١٩٧٠) بدأ درسين بعد مغرب الاثنين والخميس من كل أسبوع في مسجد السنجقدار ولضيق المكان نقل الدرس إلى مسجد تنكز، ثم عندما ضاق المكان نقله عام ١٩٩٦ إلى مسجد الإيمان، واستمر فيه إلى يوم استشهاده في ذات المسجد أثناء إلقاء الدرس على طلابه. وكانت دروسه تتسم بالمنهجية العلمية حتى غدت أشبه بدورات منهجية كل ما انتهى من كتاب بدأ بآخر، وتجلت في دروسه مقدرتُه العلمية ورقةُ قلبه.

أما بالنسبة لشخصيته خطيباً، فقد صعد على المنبر بسن مبكرة، حين كان شيخه الشيخ حسن حبنكه يرسله ليخطب في بعض مساجد الميدان الصغيرة وله من العمر سبعة عشر عاماً، لكنه صعوده على المنبر خطيباً تم منذ عودته من مصر إلى دمشق، واستمر في ذلك إلى يوم استشهاده.

منهجه الخطابي في الطور الأول: العمق العلمي والبلاغة العالية.

وهو الطور الذي غلب على شخصيته في الشطر الأول من حياته، إذ غلبت على دروسه وخطبه الفصاحة العالية، والبلاغة الراقية، وانعكس جلياً العمق والجدية على هذه الدروس.

ويلخص منهجه في الدروس والخطب بقوله: **(إن شيئاً من الصيحات المنبرية أو التحذيرات الوعظية أو المصادمات الكلامية لا يمكن إلا أن تزيد التيارات الجانحة إقبالاً وضراوة، وتعطيها زخماً من قوة الدعاية والتنبه إليها)** فيغرس في العقول الدواء من دون ترويج لاسم الداء، إذ يعمل على تحصين العقول قبل انتشار الفيروس.

منهجه الخطابي في الطور الثاني: بساطة الأسلوب ورقة المشاعر. وقد تجلى هذا الطور في السنوات الأخيرة من حياته، وصار يُشرِّب بلاغته العالية بالكلمات العامية التي نادراً ما كانت تصدر منه في الطور الأول، والذي يقارن بين دروس التفسير التي كان يلقيها في مسجد والده في الطور الأول ودروس التفسير التي ألقاها أخريات حياته يجد هذا جلياً. إذ يندر في الطور الأول ورود قصص ورقائق، لكن دروسه الأخيرة غنية بها، فهو طور جمال إن صح التعبير.

ومما يذكره العلامة البوطي في هذا الصدد: **(الإنسان الذي كانت حياته إقبالاً على الله والتزاماً بأوامره، يريه الباري عز وجل مقره ويرى بشارته، فتعاف نفسه الدنيا ويتشوق للرحيل)**.

المطلب الثالث: شخصية العلامة الدكتور البوطي في مناظراته ومحاضراته:

والحديث عن منهجه في المناظرات والمحاورات لا ينحصر في مناظرات علنية عقدت، بل يشمل أيضاً كتبه التي قصد من خلالها محاورة الآخرين.

الحكم العدل بينه وبين الطرف الآخر هو الميزان العلمي، وأقول الميزان العلمي لا الديني؛ لأؤكد على أحد ثوابته التي انتقده البعض عليها، وهي أن منبع الدين في نفوسنا ليس مجرد اعتقاد، وإنما هو العلم والبرهان، ودليله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، وإذا تعارض العلم والبرهان مع الدين والقرآن نتبع العلم والبرهان، ولن يتعارضا.

وإنك لتعجب وأنت تقلب صفحات كتابه (نقض أوهام المادية الجدلية)، بأنه لم يضمن هذا الكتاب أي آية من كتاب الله عز وجل ولا حديثاً من كلام رسول الله ﷺ، بل استند في نقض أركان وأسس المذاهب الإلحادية التي قامت على فكر أساطين ملئت أسماؤهم جنبات الأرض، أقول: استند في نقض ذلك كله على موازين ومسلمات علم المنطق والمنطلقات الفلسفية التي يسلمون هم بها.

ومن المهم الإشارة إلى أبرز النقاط التي كان ينطلق منها في سائر حواراته ومناظراته المعلنة أم المكتوبة الموجهة للخصوم:

النقطة الأولى: يتبع المنهج القرآني القائل: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، فيفترض منذ البداية صحة ما ذهبوا إليه، فيعرض أفكارهم، ثم يضع هذه الأفكار على ميزان العلم والمنطق.

النقطة الثانية: يحترم شخص الخصم، ويقابله بمشاعر الود والحب والشفقة النابعة من القلب، ويتجنب الحوار المبني على أحكام مسبقة، وبالتالي يتسامى عن أي لقاء قد يعقد تحت اسم حوار وهو في حقيقته صراع ديكة كما كان يسميه.

النقطة الثالثة: يتبع في حواراته أصولَ علم المناظرة والجدل، والتي كان قد خبرها وتمكن منها على يد والده والشيخ حسن حبنكه وهو في مقتبل العمر، ففي بداية كل حوار يبحث مع الخصم عن نقطة مشتركة ينطلق الحوار من خلالها.

ومن هذه النقاط الثلاث دان له محترفو الفلسفة وألجم أفواههم، ولقاؤه مع أحد أبرز أساتذة الفلسفة في الثمانينات الدكتور الطيب التيزيني لقاء مشهود ومشهور..

يقول رحمه الله في مقدمة كتابه (لا يأتيه الباطل):

(إنني مع يقيني التام بأن الله متم نوره الذي يتلألأ في قرآنه، لا بد أن أنهض بالواجب الذي شرفني الله به، فأرد البطلان إلى أصحابه، وأكشف عن لغو اللاغين وزيف المدجلين بمصباح من موازين العلم ومنهجه، صاف عن الأسبقيات والعصبيات المذهبية والطائفية أياً كانت .. مستضيئاً ومنضبطاً بقوله تعالى: (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً)، وسائراً تحت الشعار القرآني القائل: (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) ... ولسوف أتتبع سائر الشبهات والافتراضات الباطلة .. أضعها جميعاً تحت مجهر النظر العلمي، مصغياً بتجرد إلى ما يقرره العلم والمنطق بشأنها ...)

المبحث الثالث:

موقف العلامة الشهيد من بعض العناوين الفكرية، والفقهية

المطلب الأول: تنبه الإمام البوطي لحرب الشعارات والحذير منها.

كثيرة هي الشعارات والمصطلحات التي تنبه لخطورتها خلال مسيرته الغنية بالعطاء، وحذر منها، وبين خلفيتها ونتائجها الخطيرة، في وقت انطلت على الكثيرين، ولعله تفرد بالتحذير من الكثير منها. ومن هذه المصطلحات والشعارات: (فقه الأقليات، القراءة المعاصرة، التقاليد الإسلامية، التقريب بين الأديان، الحرب المقدسة، رجال الدين، المفكر والفكر الإسلامي، تراث الآباء والأجداد – القيم الروحية)[1].

وعلى سبيل المثال أنقل لكم موقفه من مصطلح الفكر الإسلامي. يقول: (**أن ألفتَ نظركم إلى شيء يجب أن نتبينه، ولعله يدخل في شعار من الشعارات التي يُحَارَبُ بها الإسلام بشكل خفي، كلمة**

---

(١) ينظر كتاب: يغالطونك إذ يقولون١١ – ١٧٠، هذه مشكلتهم ٢٤٦، من أسرار المنهج الرباني ٣٣ الجهاد في الإسلام: ١١– ٢٢٥، الظلاميون والنورانيون:٧٤ – ١٠٩ البدايات: ١١٩، من هنا وهناك: ٢٥.

فوجئنا بها في هذا العصر تلتصق بالإسلام والإسلاميات والإسلاميين دون أن نجد فيما مضى ذكراً لهذا الكلمة أو لهذه النسبة، هذه الكلمة هي (الفكر الإسلامي، الأفكار الإسلامية، المفكر الإسلامي، المفكرون الإسلاميون)، هل سمعتم بهذه الكلمة في القرون التي خلت؟ ما أظن أن فيكم من سمعها، لماذا تُرَوَّجُ هذه الكلمة؟ هنالك خطة، وأنا المسؤول عن البرهان عليها، هي أن يستقر شيئاً فشيئاً في أذهان الناس أن الإسلام إن هو إلا أفكار بشرية تكاثرت ثم تكاثرت، ثم إنها تناسقت، ثم إنها اصطبغت بصبغة الدين، وهكذا فالدين في عقائده وشرائعه ليس وحياً من عند الله لعباده، وإنما هو رؤى وأفكارٌ تجمعت ثم تناسقت ثم ترسخت وتحولت إلى دين، هذا هو المقصد من ترويج هذه الكلمة).

وطالما حذر من هذه المصطلحات وغيرها مما مر على أسماعنا وما زال يمر، وبوسع كل من يقرأ كتبه أن يتبين حقيقة هذه المصطلحات، ومن بثها إلينا والدافع من وراء ابتكارها، وبالتالي خطورتها.

المطلب الثاني: موقف الإمام الشهيد من موضوع الوحدة الإسلامية، وفهمه لحديث الفرقة الناجية.

كان الدكتور البوطي رحمه الله داعية وحدة، وجمع، وكان ينطلق نحو ذلك من منطلق الحرص، والحب الذي جعله الله في قلبه، ولذلك نراه حين يتحدث عن الوحدة الإنسانية وأسسها يقول:

تحت عنوان: (**الوحدة الإنسانية أهم الأهداف التي جاء الإسلام من أجلها**): «لا نزاع في أنّ وحدة الأسرة الإنسانية، والقضاء على عوامل التشرذم والتفرق فيها؛ من أهم الأهداف التي جاء الإسلام لتحقيقها على صعيد الحياة الدنيوية هذه»[1].

أما قضية (الوحدة الإسلامية) فقد كان العلامة الشهيد ينظر لها من جوانب مختلفة، فهي واجب ديني ينطلق من نصوص قرآنية، ونبوية كثيرة جاءت تدعو إلى الوحدة وتحضُّ عليها.

وهي واجب استراتيجي في مواجهة أعداء الأمة الذين كان دأبهم السعي لإضعاف الأمة بشتى الوسائل الممكنة من أهمها تمزيق وحدة

---

(١) بحوث ودراسات للدكتور البوطي تحت عنوان: (أهمية المذاهب الفقهية في رعاية الوحدة الإسلامية) موقع نسيم الشام.

الأمة التي جمع الله شملها بالإسلام إلى طوائف، وقوميات لتصبح هذه الأمة أمماً، وليصبح هذا الدين أدياناً.

ومن كلام الإمام الشهيد في ذلك ما قاله في خطبته حول توجيه حديث (ستفترق أمتي):

«وإني لأقولها يا عباد الله ولا أتحفّظ، كلّ مجتمع يركن أفراده إلى عوامل الفرقة والتشاحن، ويضحّي أفراده بواجب الوحدة التي أمرنا الله عز وجل بها، في سبيل الانتصار للرأي وللمذهب وللاجتهاد، ليسوا صادقين في إسلامهم، وليسوا مخلصين في التمسك بأوامر مولاهم وخالقهم سبحانه وتعالى، هذه حقيقة ينبغي أن نقولها».

ثم يقول: «**عندما أجد من يدعو إلى الشقاق والفرقة وهو يرفع فوق رأسه شعار الدين، شعار الإسلام، كم وكم من أناس يُخْدَعُون بدعوته، ومن ثم كم من الناس يضحون بالوحدة التي أمر الله بها، ويقعون فيما حذَّر الله عز وجل منه من التشظي والتصدع والتحول إلى فئات متفرقة شتى، ولعل من أخطر هذه العوامل التي تتحرك باسم الدين**»[1].

ومن هذا المنطلق رفض رفضاً قاطعاً دعوى من يدعون أنهم هم

---

(١) موقع نسيم الشام من خطبة د. البوطي ٦/ ٢/ ٢٠٠٩.

وحدهم أصحاب الفرقة الناجية ومن ساواهم من اهل النار، وذلك بناء على فهمهم القاصر لحديث الافتراق. وحديث الافتراق. هو قول النبي ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقةً، فواحدةٌ في الجنة وسبعون في النار، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقةً، إحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة، والذي نَفْسُ محمَّدٍ بيده لَتَفْتَرِقَنَّ أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار».

وفهمه لهذا الحديث يتجسد في كلامه التالي: (كل من وُجِدَ في عصر رسول الله ﷺ وكل من وُجِدَ فيما بعد إلى قيام الساعة من أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنه من أمة الدعوة ومن آمن منهم أصبح من أمة الاستجابة، والمراد بالأمة في قوله ﷺ: (وتفترق أمتي) أمة الدعوة لا أمة الاستجابة. فالمراد بالفرق الأديان الباطلة الخارجة عن ملة الإسلام، وليس المراد الفرق الإسلامية).

المطلب الثالث: موقف الإمام الشهيد من (المذهبية):

أفصح الإمام الشهيد عن نظرته إلى المذاهب الفقهية بقوله:

"إننا لا نرتاب في أنّ نشأة المذاهب الفقهية وتطوّرها وانتهاءها إلى التي هي عليه الآن خير حماية للوحدة الإسلامية من التصدُّع والشقاق...إن الخلافات الفقهية التي تشكّل العمود الفقري في تلك المذاهب كانت خلافات تعاونية مبرِّرة، لا خصومات أو شقاقات فكريّة مُجَرِّمة...ومعنى هذا أنّ نسيج الوحدة الإسلامية إنما تلاقت سداه ولُحمته من هذه الخلافات التعاونية، إذ لولا الساحة التشريعية العريضة التي تكونت من مجموع الاجتهادات الفقهية المتعددة، لما أتيح للمساحات الإسلامية الشاسعة والمتنوعة أن تتلاقى وتتلاحم تحت مظلة شرعة واحدة، ومن ثم لما أتيح لها أن تخضع على اتساعها لنظام دولة واحدة"[1].

وهكذا فإن الإمام الشهيد على الرغم من تشديده على الحفاظ على تلك الثروة الفقهية التي وصلتنا من خلال المذاهب الفقهية،

---

(١) بحوث ودراسات للدكتور البوطي تحت عنوان: (أهمية المذاهب الفقهية في رعاية الوحدة الإسلامية) موقع نسيم الشام.

وعلى الرغم من مواجهته لأولئك الذين حاولوا تهديم عروش أولئك الفقهاء، وتجاوز جهودهم أو التهوين منها، أو محاولة مقارنة أنفسهم -على ضعف مكنتهم العلمية- بتلك القامات العظيمة التي قدمت للأمة خدمات لا يمكن أن يقاس بها غيرها.

إلا أنه من ذلك كله يرفض أن يغدو المذهب قفصاً فكرياً، أو سبباً للتشاحن والتنازع، والتفرق بأي صورة من الصور.

ويقول في كتاب (اللامذهبية) في ذم التعصب المذهبي:

"إن جميع الأئمة الأربعة على حق...ومن هنا كان اتباع المقلد لمن شاء منهم اتباعاً لحقّ وتمسكاً بهدى، وهو إذ يختار اتباع واحد منهم لا ينبغي أن يتصور أن الآخرين على خطأ...ولقد ظهر في بعض البلدان ولدى فريق من الناس من يخالف هذا الحق المتفق عليه، ولكنه أيضاً امتداد للتعصب السيء الذي لا وجه له في الدين، ويجب تحذير المسلمين منه بكلّ وسيلة.

إن تعداد المحاريب في المساجد وتسمية كلّ محراب منها باسم مذهب من المذاهب الأربعة، أسوأ مظهر يتجسد فيه التخريب المقيت الذي لا معنى له ولا مسوغ"[1].

---

(١) اللامذهبية: (٥١) وما بعدها.

المطلب الرابع: موقف الإمام الشهيد من التصوف والصوفية:

نشأ الإمام الشهيد رحمه الله نشأة صوفية متميزة فقد كان والده عارفاً بالله، ونموذجاً فريداً من العلماء الربانيين، وبعودة سريعة إلى الجانب الوجداني من شخصيته.

وقد بقي الإمام الشهيد متمسكاً بهذا المنهج، وكان ذلك لا يخفى على أحد ممن يعرفه، ويظهر في سلوكه، وفي كلماته، ودروسه، وكتاباته.

بل إن الإمام الشهيد أفرد بعض الكتب للحديث عن التصوف بشكل خاص، وخصص بعض دروسه لذلك، ولعل أهم تلك الدروس دروس (شرح الحكم العطائية) التي صدرت بعد ذلك في أجزاء متتالية وكانت خلاصة فكره ومنهجه الصوفي.

قال في حديث عن التصوف في أحد دروسه: "لا مشاحة في الاصطلاح، وكلمة التصوف مصطلح، فإذا كان المراد بالكلمة شيئاً مخالفاً لكتاب الله فهو مرفوض وإن كانت الكلمة قرآنية.

والمراد بالتصوّف: أن يكون إسلام المرء مهيمناً على قلبه بعد اليقين العقلي المسيطر على عقلة، بأن يفيض القلب بمحبة الله وتعظيمه ومخافته، بحيث تطرد الأغيار من القلب فهذا هو التصوف.

فالتصوف ليس علماً يُحفظ، وإنما هو حال يصطبغ به القلب فيعيش مع الله، هذه الحال تحرق جميع الأمراض التي تكون في القلب، كالكبرياء والضغائن والأحقاد وحبّ الدنيا وحب المال والتكالب على المناصب، كل ذلك يذوب في ضرام حبّ الله تعالى.

كان صحابة رسول الله ﷺ سادة المتصوفين وإن لم يكونوا يستعملون كلمة التصوف.

وهناك أناسا يتكلمون بالتصوف وهم لا يعرفون رائحته.

ورحم الله من قال: (كان التصوف في صدر الإسلام مسمى لا اسم له، وأصبح اليوم اسماً لا مسمى له.

فإذا وجد منحرفون في التصوف فنحن نشير إليهم ونحذر منهم، ولكن ذلك لا يغض شيئاً من لبّ الإسلام المنضبط بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وكان ساداتنا الذين عرفوا بهذا الاسم أول من ينضبط بكتاب الله وأول من يحاربون البدع..

قال سيدي الشيخ عبد القادر الكيلاني في وصية له قبل موته يقول لابنه: (يا بني طِر إلى الحق بجناحي الكتاب والسنة) ويقول مثله

الجنيد البغدادي رحمهم الله تعالى"[١].

ولكن الشهيد الإمام رحمه الله كانت له وقفات في نقد سلوك كثير من المتصوفة الذين أهملوا بعض حقائق التصوف، وبالغوا في بعض الصور الشكلية مبالغة تخرجها عن حقيقتها.

كما كان ذلك مع بعض من بالغ في مفهوم (الرابطة) في الطريقة النقشبندية، أو أدخل صور كسروية من تعظيم الشيوخ على حالة تخرج عن الأدب النبوي، وتعاليم الإسلام وآدابه.

وكان الإمام الشهيد ينكر على من يبالغ في مظاهر الإجازات من الشيوخ، ويكاثر فيها، دون الوقوف على حقائقها، ومعاني الوصول من خلالها.

موقف الإمام الشهيد من كتب الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي:

هو أبو بكر، (وقيل: أبو عبد الله) محمد بن عليٍّ الملقَّب: بمحيي الدين، وبالشيخ الأكبر. أندلسي المولد والنشأة، عربي الأصل ينتسب إلى حاتم الطائي من ولده عبد الله بن حاتم، وليس من الصحابي عَدي بن حاتم على ما ذكره ابن قتيبة في المعارف والمقَّري في نفح الطيب.

يقول العلامة البوطي: مما اتّفق عليه المؤرخون وكتّاب التراجم أنّ

---

(١) تنزيل من مقطع لدرسه في جامع الإيمان.

مؤلّفات الشيخ محيي الدين بن عربيّ أو كثيراً منها لم تخْلُ من دسّ الباطنيّين، لا سيّما كتابه المشهور: (الفتوحات المكيّة)، وكان ذلك شأنهم وطريقتهم في ترويج أفكارهم الباطنة، وممن ذكر ذلك: ابن العماد في كتابه (شذرات الذهب)، والمقرّي في كتابه (نفخ الطيب)، والإمام الشعرانيّ في (اليواقيت والجواهر)، وحاجي خليفة في (كشف الظنون).

إذن أكَّد العلماء أن هناك من افترى على الشيخ المظلوم، ودسَّ في كتبه الدسائس، وجزم بذلك الحصكفي في كتابه الدر المختار، وعلى كل حال: ينهى أهل العلم والفضل عن قراءة كتابي الفصوص والفتوحات لما فيهما من دس أوقعه نُسّاخ الباطنية في عصره بهما. وينصح بقراءة أربع كتب له بشكل خاص مؤكِّداً على ذلك جداً: ما لا يعوَّل عليه، وكنه ما لا بد للمريد منه، والوصايا، وروح القدس في محاسبة النفس. نعم قد تجد في بعضها كلاماً صوفياً مختلَفاً في اعتباره بين العلماء، ولكنك لن تجد عقيدة الحلول والاتحاد، بل نفيَهما، ولن تجد زندقة، ولا إلحاداً، وإنما هي فكر مشرق، ومواعظ رائقة، وكلام أدبي عذب لطيف.

المبحث الرابع:

رؤيته للعمل السياسي، ومنهجه في نصح أولي الأمر ومخاطبتهم

المطلب الأول: منهجه في نصح أولي الأمر ومخاطبتهم:

حسبنا للاطلاع على منهجه الفكري والضوابط التي اتبعها في علاقته مع أولي الأمر والسلطة، أن أنقل لكم ما ذكره هو عن منهجه في مقدمة كتابه (هذا ما قلته أمام بعض الملوك والرؤساء)، وهو الكتاب الذي اضطر لإصداره عندما ارتفعت وتيرة الافتراءات التي ألصقت به من قبل بعض الحاقدين. يقول:

(ولما بلغ الأمر والدي، أقبل إليَّ قائلاً: وقد تصور أنني متألم من حديث الناس: بوسعك أن تسلك سبيلاً تنال به رضا الناس كلِهم عنك، ولكن فلتعلم أنه لن يكون إلا سبيل النفاق!.. فالمنافق وحده الذي يملك أن ينال رضا الناس كلهم، في كل الأحوال. منذ ذلك اليوم، لم أحِد بتوفيق الله ورعايته عن هذا النهج:

لا أبدأ فأطرق أبوابهم، ابتغاء أي مغنم، أو بحثاً عن أي مصلحة دنيوية. إن دعاني رئيس الدولة استجبت، ولكن لا أصطحب معي أي حاجة شخصية أرجوها منه أو أعرضها عليه. لا أدخر وسعاً في نصحه

وتذكيره بالله، وبعظم المسؤولية التي يحملها لهذه الأمة. أثني عليه بكل ما عرفته فيه من صلاح وخير، سواء عرف الناس معي ذلك منه، أم لم يعرفوا.. حملاً له على المزيد، وتحذيراً له من التحول إلى النقيض..).

المطلب الثاني: الإمام الشهيد ورؤيته حول تشكيل حزب إسلامي:

كان الإمام الشهيد يعارض بشدة فكرة الأحزاب الإسلامية، لأن الإسلام هو المعصم الذي يجمع كل الأحزاب. والأسباب التي دعته لرفض فكرة وجود أحزاب إسلامية تتمثل في ثلاث:

السبب الأول: يقول: (عندما أشكل حزباً إسلامياً، سأقع بما وقع فيه الآخرون، لأني عندما أسمع مدح أعضاء حزبي وجماعتي لي وأرى ولاءهم -وأنا بشر - فستعلو علاقتي مع أعضاء جماعتي على علاقتي مع بقية الجماعات والأحزاب، وستصبح علاقتي معهم بديلاً عن قوله تعالى: (إنما المؤمنون إخوة) إذاً فكيف سألقى الله وأنا على هذه الحال؟ مع أنه ربما يكون في الأحزاب الأخرى من كانت علاقته مع الله عز وجل أفضل من علاقة أعضاء الحزب الذي انتمي إليه مع الله عز وجل).

السبب الثاني: وجود سياسيين حرفيين يطمحون للوصول إلى أمانيهم ومطامعهم السياسية من أقصر طريق، هؤلاء سيتخذون الحزب

الإسلامي سوقاً رائجاً، ولن يتوانوا عن إطلاق اللحى والتظاهر بالتزامهم الإسلامي، ويقول: (**سيغدو ظهري مطية لهؤلاء الناس، وعندما يصلون إلى الحكم لن يتعرفوا علي، وما من حزب إسلامي إلى وفيه ممن انتموا إلى هذا الحزب لكونه طريقاً معبداً إلى أمانيهم**).

السبب الثالث: لأن النشاط السياسي يعطل العمل الدعوي، يقول رحمه الله تعالى: (عندما أقوم بعمل سياسي سأكون عاجزاً عن إقناع الحاكم والمسؤولين بأني أنصحهم لله، لأن الحاكم يجدني أسابقه بعمله وبهدفه، بل يرى أني طامع في كرسيه).

ومن هذا الباب كان يرفض النشاطات الإسلامية الحركية، بل اتخذ لنفسه بديلاً عنه لم يرق للكثيرين، وهذا البديل ترجمه في كتابه: (باطن الإثم).

المطلب الثالث: منهجه في معالجة الأزمات السياسية

الأصل في منهجه وموقفه من سائر الأزمات السياسية التي واجهها في حياته هو قول النبي ﷺ: «أما إنها ستكون فتنٌ بعدي القاعد فيها خير من الماشي والماشي خير من الساعي إليها، فإذا نزَلَتْ بكم فليلحق صاحب إبلٍ بإبلهِ وصاحب غنم بغنمه وصاحب أرضٍ بأرضه»، قال له قائل: أرأيت يا رسول الله رجلاً ليس له غنم ولا إبل ولا أرض؟ قال: «يعمد إلى سيفه فيدق حدَّهُ بحجر ثم يعتزل تلك الفرق حتى يأتيه الموت وهو على تلك الحال». وقوله ﷺ: «إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة». وهذا المنهج ظهر جلياً في فتنة الثمانينات.

قد يقول قائل: لكننا لم نشهد هذا المنهج فيما يسمى بفتنة الربيع العربي في سورية، ولا في الفتنة التي عصفت بالجزائر في تسعينيات القرن الماضي.

أقول: بل هو عين المنهج، لكنه في كلا الفتنتين اقتضاه المقام الذي أقامه الله تعالى عز وجل به أن يحمل على عاتقه مسؤولية التحذير من الفتنة والتصدي لأسبابها وأربابها الذين كان دأبهم أن ينفخوا في أوراها، من خلال تذكير الناس بالمنهج النبوي باعتزال الفتن وتجنب أسبابها.

أما في فتنة الربيع العربي، فإن الرؤيا التي رآها في الشهر الثامن من عام ٢٠١٠، جعلته يدرك أن مسؤولية كبيرة قد حمّله الله تعالى إياها، مما حمله على اتخاذ دور متفرد حتى قبل اشتعالها، ويحذر من فتنة ستقع إن لم نتدارك الأسباب، ثم عندما بدأت ملامحها دأب على التحذير من الولوج فيها ومن نتائجها على كل منبر يتصدره، والمتمعن يجد أن فحوى كل التحذيرات والنصائح التي كان يطلقها في تلك الفترة يصب في المنهج الذي اتخذه في الثمانينات. وخلاصة الرؤيا التي رآها؛ أنه رأى غيوماً داكنة من الدماء وبقعاً سوداء مقززة وصفها بجراثيم سرطانية تحط على بلدتنا المباركة، فنابه من ذلك خوف وذعر شديدان، ثم قصدته كتلة منها واتجهت نحوه فدفعها بيديه فانقشعت السماء تماماً، ثم نادى والدَه ليريه الكتل، لكنه عندما عاد مع والده إلى النافذة المطلة على هذا المشهد الرهيب وجد أن الدماء والبقع السوداء المقززة قد تلاشت أو كادت.

وكذلك الحال بالنسبة لفتنة الجزائر، فقد كان له دور لافت في وأد فتنة التسعينات هناك: وموقفه في من هذه الفتنة نابع من المنهج النبوي في مواجهة الفتن، لم يحد عن تذكير الناس بذات المنهج عبر وضعهم على الجادة من خلال بيان الحكم الشرعي، ولبيان حقيقة العلاقة التي كانت

بالكثيرين من شرائح الشعب الجزائري وسر الأثر الذي تركه كلامه فيهم. أقول: توطدت علاقته بالشعب الجزائري من خلال رحلاته السنوية إلى الجزائر للمشاركة بملتقى الفكر الإسلامي، وكان هذا الملتقى يجري كل دورة في ولاية من ولايات الجزائر، ويتواصل المدعوون مع سكان تلك الولاية من خلال لقاءات عامة في المساجد. مما أتاح له رحمه الله التواصل مع الناس والاستماع منهم، ومعالجة ما يطرحونه من قضايا. وقد أدى ذلك إلى وجود علاقة ودّية مع الناس مباشرة. واستمر هذا النشاط لسنوات طويلة.

ثم إن فتنة اشتعلت هناك باسم الجهاد ذهب ضحيتها مئات الألوف، واختلط فيها الحابل بالنابل، واستغلتها جهات خارجية اندست في صفوف الناس لتزيد الفتنة تأججاً، وارتكبت في هذه الفتنة مجازر وأعمال مشينة تحت اسم الجهاد. والسبب الرئيسي في إشعال فتيل الفتنة إلغاء نتائج انتخابات تشريعية فازت فيها الجبهة الإسلامية للإنقاذ أمام جبهة التحرير التي كانت تضم أطيافاً مختلفة؛ مما عبّد الطريق أمام الجبهة الإسلامية للإنقاذ لاستلام زمام الحكم، في وقت كان الناس يتطلعون إلى تنظيم إسلامي ينافس جبهة التحرير، فكان هذا التعسف في إلغاء نتائج

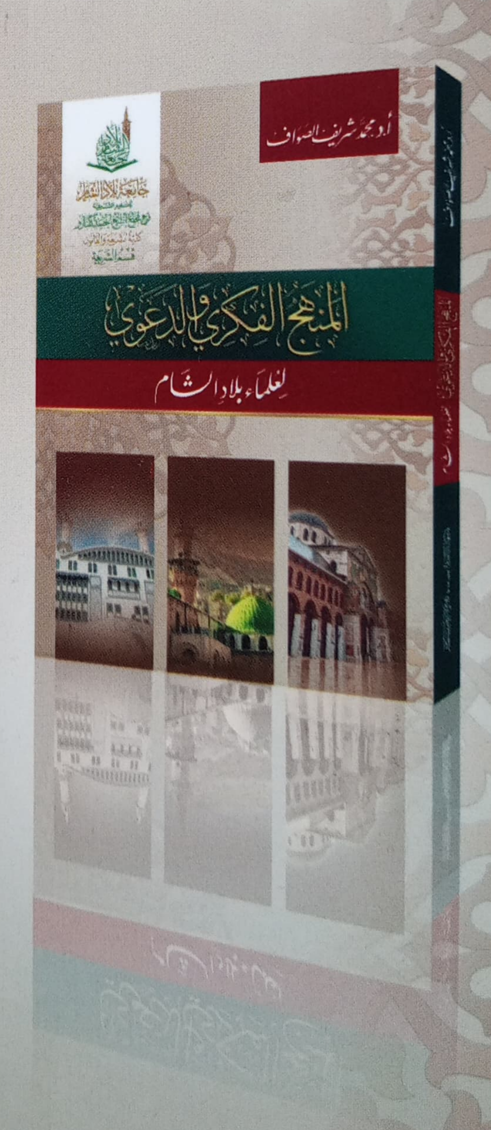
الانتخابات سبباً في ردود أفعال بلغت أخيراً درجة صدام مع الجيش، أثمر فتنة عمياء وسنوات سوداء.

هذا الواقع المؤلم دفع العلامة الشهيد – وهو المحب للجزائر – أن يوجه نداءه المعروف إلى الشعب الجزائري، فكان هذا النداء بمثابة منعطف في تحويل موقف الكثيرين من الفتنة المستعرة، وكما دفعه إلى تأليف كتابه الذي أثار ضجة واسعة في حينه عند كثير من الجماعات الإسلامية، وهو كتاب: (الجهاد في سبيل الله كيف نفهمه وكيف نمارسه)، وقد اتهم آنذاك بأنه قد ألغى الجهاد، وجُوبِهَ بحملة شعواء من شتى الجماعات الإسلامية تنتقده لموقفه – السلبي بنظرهم – من فتنة الجزائر .. ثم بعد عشر سنوات من النزيف والدمار الذي أصاب الجزائر، اتفق الناقدون على مناشدة الشعب الجزائري الكف عن الدخول في (الفتنة)، التي أدت إلى ارتكاب المجازر الرهيبة تحت اسم الجهاد، واعلنوا أن ما يجري في الساحة لا علاقة له بالجهاد..! فما بين عشية وضحها غدت ألسنتهم تتحدث باللسان ذاته الذي كان يتحدث به الشيخ البوطي قبل عشر سنوات.

هذه هي المفاصل الدعوية البارزة في حياته رحمه الله تعالى، والجامع المشترك بين كل هذه المفاصل هو الجانب الخفي الذي يتمثل في ساعات طوال كان يمضيها في جوف كل ليلة باكياً ساجداً ضارعاً لله سبحانه وتعالى أن يلهمه الحكمة والصواب، ولولا هذا الجانب الخفي لما كتب له التوفيق الذي ما زلنا نشهد أثره إلى اليوم، أي بعد انتقاله بسنوات.

الفهرس العام





توزيع
دار أفنان